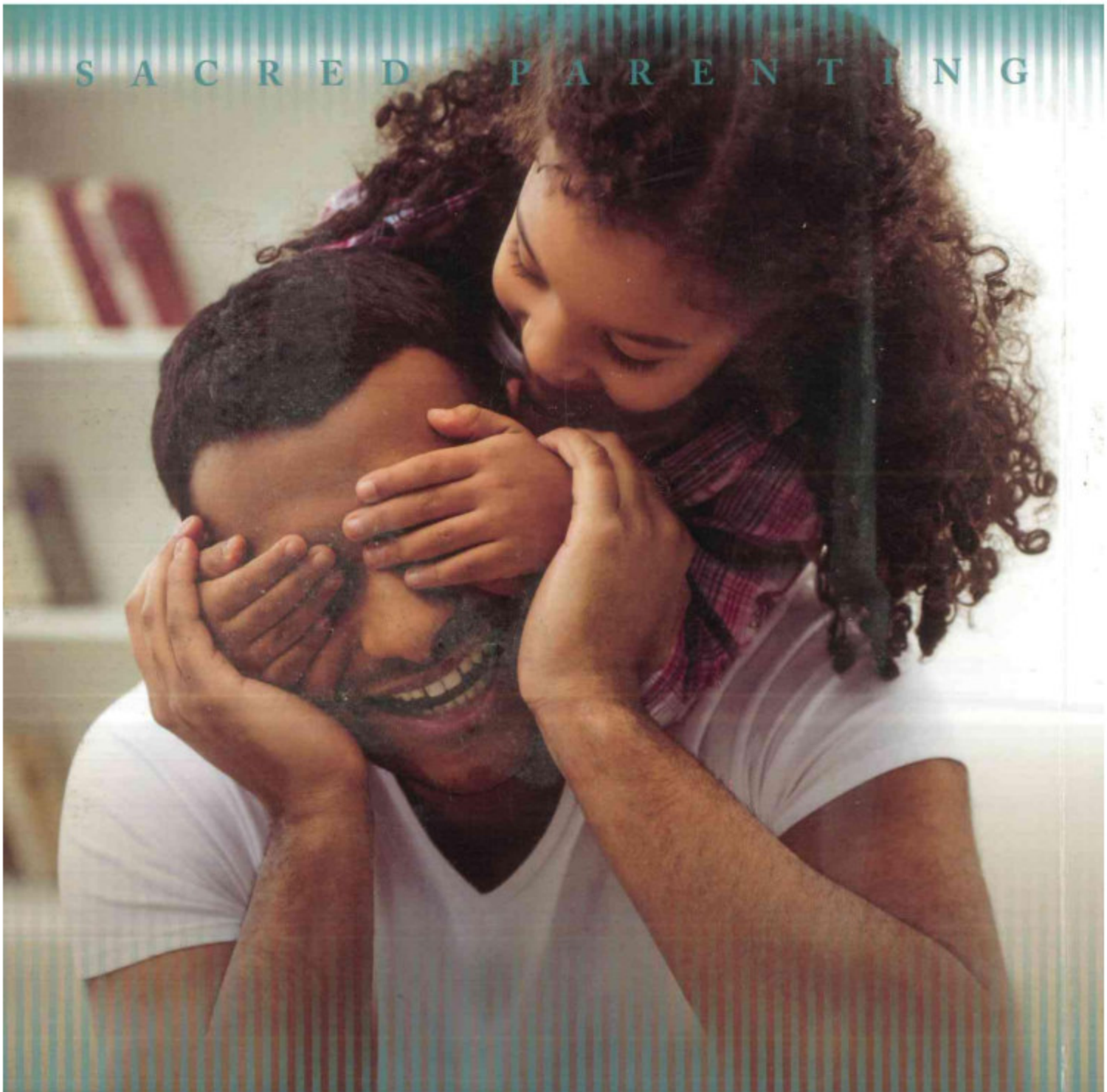
SACRED PARENTING



التربية المُقدَّسة

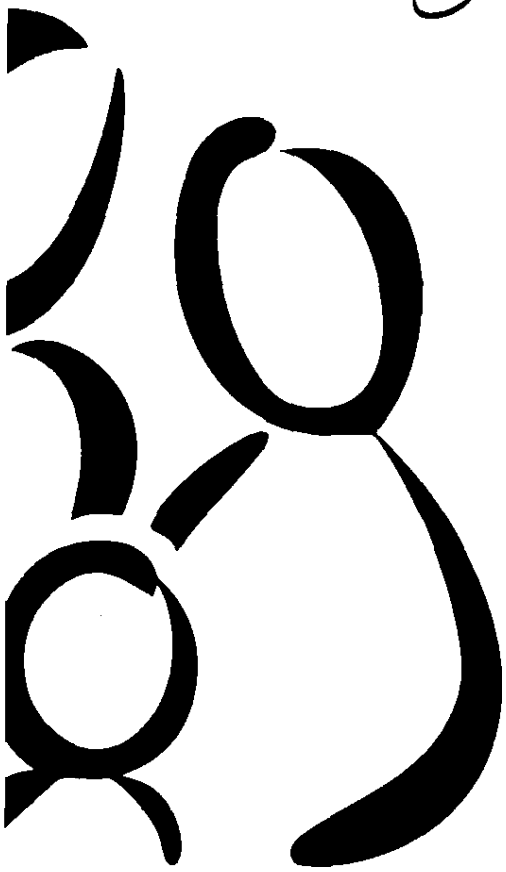
كيف تشكل تربية الأبناء علاقتنا مع الله؟

جاري توماس

التربية المُقدَّسة

كيف تتشكل تربية الأبناء علاقتنا مع الله؟

جاري توماس



مطبوعات إيجلز

Originally published in USA under the title :**Sacred Parenting**
Copyright ©2004 by Gary Thomas
Translation copyright © July 2010, **By Gary L. Thomas**
Translated by Eagles Publications
Published by permission from Zondervan, Grand Rapids, Michigan, USA

التربية المقدسة

© الناشر: مطبوعات إيجلز

ص . ب ١١٠١ هليوبوليس بحري
١١٣٧١ القاهرة – مصر

طبعة أولى ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٤٠١٧
الترقيم الدولي: 978-977-387-159-3

الترجمة: عادل زكري
التحرير والمراجعة: ريمون شهدي
المحرر المسؤول: سامي يعقوب
الإعداد الفني: إيجلز جروب
www.FocusOnTheFamily.me

طبع في مصر: مطابع آلوكس– المنطقة الحرة

جميع حقوق الطبع في اللغة العربية محفوظة للناشر وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أو طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال بدون إذن مسبق من الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

إهداء إلى

"برادي بوبينك" وزوجته "شيرلي"،

اللذين بقدوتهما وتعليمهما تركا إرثًا روحيًا لا مثيل له.

شكر وتقدير

أود أن أشكر أبنائي «آليسون»، و«جراهام»، و«كيلسي» الذين سمحوا لي بسعة صدرهم بأن أقتبس من حياتهم على صفحات هذا الكتاب. لقد قرأوا كل القصص، وأبدوا موافقتهم على أي شيء يتعلق بهم في هذا الكتاب.

كما أود أن أشكر والديّ: أبي «إي. چيه. توماس»، وأمي «چينيفا توماس»، اللذين أدَّيا دورهما بأمانة كوالدين مُقدَّسين، وقدَّما لي نموذجًا لجوهر هذه التربية المقدَّسة.

هناك عدد من القراء أرسلوا لي تعليقاتهم المفيدة على المسودة الأولى من الكتاب.. إن المرجع الذي تحملونه بين أيديكم الآن استفاد جدًا من تعليقاتهم ونصائحهم وآرائهم الثاقبة. من بين هؤلاء: «چيم شموتزر» وزوجته «كوني»، «چيل تاكمورا»، «شيرلي بوبينك»، «نيكول ويتاكر»، «آني كارلسون»، و«لاري جادبو»، و«چيري توماس»، و«ماري كاي سميث»، والدكتورة «ميلودي رود».

كما أود أن أقدِّم شكرًا خاصًا للدكتور «ستيف ويلك» وزوجته الدكتورة «ريبيكا». لا يمكنني أن أبالغ في أهمية دعمهما وتشجيعهما لي، وكذلك الأفكار الثاقبة التي قدماها عن محتوى هذا الكتاب. نشعر ليزا وأنا بالانبهار أمام الأشخاص الذين باركنا بهم الله كأصدقاء وكشركاء في خدمة ملكوته.

شكري ممتدٌ أيضًا إلى دكتورة «كاثي كاربينتر» وزوجها «چوردن» لمراجعتهما لهذا الكتاب. أنا مدين لـ «كاثي» خصيصًا لسماحها لي بالاقتباس من كتاب لها لم يُنشر بعد عن تربية الأبناء أصحاب

الحالات الصعبة. أرجو أن يدرك الناشر قيمة إسهاماتها، ويُرشح كتابها للنشر.

كما أود أن أشكر دكتور «كيفن ليمان» الذي أعتز بصداقته، وبإرشاده لي بصورة غير رسميّة في الكتابة والوعظ، وكذلك «تشاب ماكجريجور» وكيل أعمالي لمساندته لي. الشكر واجبٌ أيضًا لمساعِدتي «لورا تومسون»، التي بمواهبها المتعددة سمحت لي بأن أستثمر موهبتي، وكذلك زوجها «ستيف» لنصائحه العظيمة وصداقته ودعمه.

ولأنني أردت ألا أغفل منظور الأم، فقد اعتمدت على بعض الكاتبات اللامعات والفطنات اللاتي أَضْفَت أفكارهن لمسةً ما كنتُ أستطيع رسمها بصفتي رجلاً. أود بشكل خاص أن أشكر «ريتشل كاسك»، و«إيريس كراسناو»، والرابي «نانسي فاكس كريمر».

وكالعادة قدَّم فريق دار نشر «زوندرڤان» عملاً مذهلاً.. فقد قدَّم كلٌ من «چون سلوان» و«ديرك بيورزما» كعادتهما عملاً فوق الرائع بأن أخذا مُسودة أولية للكتاب غير مصقولة، وجعلاها أفضل بكثير. كذلك أشكركما يا «چون توبليف» و«جريج ستيلسترا» لتحملكما الإيميلات الكثيرة، وحرصكما على تعريف الناس بهذا الكتاب! كما أوجِّه شكرًا خاصًا لـ «سكوت بولیندر» لتشجيعه الشخصي لي.

أخيرًا وليس آخرًا، أود أن أشكر زوجتي «ليزا»، التي يرتقي صبرها إلى صبر القديسين. كانت تتجاوب برفق عندما أقاطعها في عملها في تدبير منزلنا لأتأكد أن فقرة ما جيّدة أو قصة ما مناسبة. لقد ساهمت ليزا بتأثيرها الكبير في هذا الكتاب. لا أستطيع أن أتخيَّل كيف كنت سأكتب هذا الكتاب بدون أن تكون هي على مرمى السمع من مكتبي.

المحتويات

شكر وتقدير ٥

الفصل الأول: الله أبي ١١

الفصل الثاني: أصعب ألم على الإطلاق ٢٧
كيف تعلّمنا التربية أن نقدّر الشخصية والخدمة أكثر من الراحة

الفصل الثالث: الذنْب المُغلف بالذهب ٤٧
كيف تُعلمنا التربية أن نتعامل مع الشعور بالذنب

الفصل الرابع: ضبط الموجة على السماء ٧١
كيف تعلّمنا تربية الأبناء أن نصغي إلى الله

الفصل الخامس: الفرح! ٩٣
كيف تساعدنا تربية الأبناء على التمتع بالفرح الإلهي

الفصل السادس: الانكشاف البغيض ١١٩
كيف تواجه التربية جُبننا وتُكسبنا الشجاعة

الفصل السابع: الحب الملتهب ١٣٧
كيف تعلّمنا التربية أن نتعامل مع الغضب

الفصل الثامن: المجد المستتر وراء التعب ١٦١
كيف تعلّمنا تربية الأبناء أن ننظر فيما وراء بريق المظهر

الفصل التاسع: الجانب الشائك من التربية: عطية الأبناء المزعجين ١٨٣
كيف تعلّمنا التربية الصبر، وطول الأناة، والمثابرة

الفصل العاشر: إصحاح ممل (قد يغيِّر حياتك إلى الأبد) ٢٠٥
كيف تعلّمنا التربية الأشياء الأهم في الحياة

الفصل الحادي عشر: نحن ماكينات طباعة ٢٢١
كيف تشجعنا تربية الأبناء على تطوير شخصياتنا

الفصل الثاني عشر: التضحية ٢٣٧
كيف تُعلّمنا التربية أن نضحي

الفصل الثالث عشر: الفراق ٢٦٥
كيف تعلّمنا التربية أن نعالج الرغبة في
السيطرة والخوف بالثقة والأمل

خاتمة: استلم مكافأتك! ٢٩٣

الحواشي ٢٩٩

"لو قُصد لتربية الصغار أن تكون سهلة، ما كانت لتبدأ أبدًا بما يُسمى المخاض!"

– غير معروف

"في العائلة فقط نُكسر، وفي العائلة فقط نُجبر."

– كارل ويتيكر

«أيها الأحباء لنطهر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح، مكملين القداسة في خوف الله.»

– كورنثوس الثانية ٧: ١

الفصل الأول

الله أبي

في يوم من الأيام عندما كانت ابنتنا «كيلسي» في الثانية من عمرها، بدأت تشير إلى الكرسي الخاص بكل فرد من العائلة حول مائدة الطعام. كنتُ مسافرًا وقتها، وبدأت تقول: "آليسون، جراهام، كيلسي..." ثم أشارت إلى الكرسي الفارغ الخاص بي وقالت: "الله."

فأجابت زوجتي ليزا: "ليس الله يا كيلسي، هذا كرسي بابا."

فردت كيلسي بابتسامة: "يسوع."

بعد ثلاثة أيام كُنّا جميعًا في غرفة بأحد الفنادق، وبدأت كيلسي مرة ثانية. ثم بدأت تشير إلى كل واحد، وتنطق اسمه. وعندما جاء دوري قالت: "يسوع."

قلتُ لها: "أنا لستُ يسوع يا كيلسي، أنا أبوكِ."

فأجابت كيلسي: "أنت الله أبي."

ذُهلتُ، وحاولت مجتهدًا أن أوضح لها الأمر، لكن أنتم كآباء وأمهات تعرفون حال الطفل ذي العامين. عندما انتهيتُ من تكوين فكرتي، كانت

كيلسي قد وجدت شيئًا أكثر إثارة جدًا من الأسئلة اللاهوتية- إصبع قدمها الأصغر وكيف تجعله يهتز في كل الاتجاهات.

بالنسبة لي، هذه إحدى أعظم المفارقات في التربية. أفكّر في كيف بدوت كبيرًا بالنسبة لأطفالي بينما كنت فقط في العشرينات من عمري، وكنت أعرف القليل. الآن حصلت على بعض الخبرة في الأربعينات من عمري، وكم هو مثير للضحك وأنا أبدو أصغر جدًا بالنسبة لأبنائي! يعرف جراهام ابني أن يغلبني في اختبار الرياضيات (بالرغم أنه حتى الآن لم يهزمني في الجولف)، وكذلك لا توجد أية احتمالية بأن تخلط بناتي بيني وبين الله.

لكن هذه المواقف المبكرة من الهوية المختلطة فتحت عيني بصفتي أبًا شابًا. كلما زاد الوقت الذي كنتُ أقضيه مع أطفالي حتى وصلوا لسن المشي، ثم إلى ما قبل المراهقة، ثم إلى المراهقة، كان يزداد انفتاحهم على حضور الله في حياتهم.. وكلما قلَّ الوقت الذي كنت أقضيه معهم، كانت تقل مرات صلاتهم. هذه الملاحظة جعلتني يقظًا ومتواضعًا أيضًا.. فبطريقة ما ساعدتُ في تشكيل شغفهم وجوعهم لله.

اكتشفتُ سريعًا أن شغفي وجوعي لله بدا مرتبطًا بشكل مباشر بواجباتي كأب. كنتُ ولازلت أبًا لما يقرب من ٢٠ عامًا، لكني أرى أنه من المنصف أن أقول إنني نضجت في الستة عشر عامًا الماضية -روحيًا، وعاطفيًا، وعلاقاتيًا- أكثر من كل سنوات عمري مجتمعة.

لماذا توفر التربية مِثل هذا المسار الفعال للنضوج الشخصي والحكمة؟ تتطلب عملية التربية مهارات لا يمتلكها أحد سوى الله، ونحن حتمًا لسنا الله. وحتى إذا دعانا أطفالنا "الله أبي"، فإن التربية تُذكرنا باستمرار بإنسانيتنا المطلقة. نحن لا نحب بشكل كامل، كما يحب الله؛ كما أن قدراتنا على الاستيعاب والفهم وبناء الحميمية تعاني من قصور غير موجود عند الله.

بالرغم من أنني أعتبر تربية الأبناء أحد أعمق الأشياء من حيث المعنى والمجازاة في كل ما أنجزته في حياتي؛ لكنها جعلتني أتضع، وأُحبط، وأربكتني تمامًا في بعض الأحيان. ليس بمقدوري أن أؤلف كتابًا عن تربية الصغار في سن المشي، أو المراهقين، لأنني من نواحي كثيرة لا أعرف تمامًا كيف أفعل هذا! إذا ظننت أن هذا الكتاب سيقدِّم لك خمس خطوات لتساعد طفلك على النجاح في المدرسة، أو عشر خطوات لتعد طفلك لمرحلة البلوغ، فحتمًا ستصاب بخيبة الأمل. لكن هذا الكتاب يقترب من منطقة مختلفة تمامًا.. وهي كيف يستخدم الله هؤلاء الأبناء ليشكّلنا نحن من الناحية الروحيَّة.

عرفت أن القواعد قد تغيرت بعد أسابيع فقط من ولادة ابنتي الكبرى. كنا مسافرين بالسيارة إلى الجنوب نحو ولاية أوريجون عندما توقفنا عند أحد المطاعم قبل أن نستكمل رحلتنا. في مرحلة ما في حياتي كانت الوجبة المفضلة لي في الدنيا كلها هي الآيس كريم من منتجات "ديري كوين" (DQ). أدركت تمامًا أن مخترع هذه الحلوى الرائعة لديه إلهام من الروح القدس لابتكار شيء مثل مذاق "إم آند إمز" من هذا الآيس كريم.

طلبنا البرجر والبطاطس المحمرة، وحصلت على الآيس كريم المفضّل لي؛ ثم خرجنا بالطعام إلى الخارج في يوم مشمس.. وفي تلك اللحظة تحديدًا انفجر حفاض ابنتنا، وهو ما كان يحدث مرة كل ثلاثة أيام. كانت ابنتنا، أول مولود لنا، تحب أن "تخزّن"؛ وكانت تفضّل أن تنتظر حتى نكون في طريقنا إلى الكنيسة، أو بمجرد جلوسنا لنتناول العشاء، أو بعد أن تستحم مباشرة، أو في لحظات راحة أخرى، قبل أن تتخلص من ما يقرب من اثنتين وسبعين ساعة من مخلفات عملية الهضم.

أتذكّر مشاعرنا وقد غُلبنا على أمرنا. البطاطس المحمرة طعمها غير لذيذ، والآيس كريم بعد ذوبانه يفقد الكثير من مذاقه- وكنت أعرف أنه ينتظرني

من ١٠- ١٥ دقيقة من العمل.. لأن هذه الرضيعة فعلت كل شيء دفعة واحدة، فتحتاج ليس فقط إلى تغيير حفاضها، بل إلى الاستحمام بشكل كامل، وتغيير ملابسها بالكامل. ونحن كنا على الطريق مسافرين!

قالت ليزا: "لا تقف هكذا. ساعدني!"

قلتُ: "ولكن ..." بينما كنت أنظر إلى البطاطس المحمرة التي ذبلت بالفعل بعد تركها لما يقرب من عشر دقائق؛ وأحملق يائسًا إلى الآيس كريم، ويسيل لعابي أمامه، مع أنه بدا بالفعل كما لو كان سيغلي تحت آشعة الشمس. وضعت علبة الطعام فوق السيارة، وذهبت لعمل المطلوب.

لقد تغيّرت الحياة فعلاً! قد يبدو الأمر تضحية بسيطة بالنسبة لك.. لكن حتى الآن، بينما أسترجع الزمن بعد هذه الحادثة بما يقرب من ١٥ عامًا، يبدو الأمر كحلم مزعج- لكنه كان علامة على نقطة تحوُّل كبرى لهذا الشاب في عمر الخامسة والعشرين وقتها.. تعلَّمت أن أضع احتياجات شخص آخر قبل احتياجاتي؛ ولم أدرك وقتها أنني بدأت رحلة التغيير الروحي التي تُسمى التربية.

ولقد استفدنا، زوجتي وأنا، استفادة كبيرة من الكتب واللقاءات التي تعلِّمنا كيف نشكِّل أبناءنا؛ لكن طوال الطريق أدركنا أن أبناءنا يشكلوننا أيضًا. التربية طريق ذو اتجاهين! أطفالنا علَّمونا كيف نضحّي (الفصل ١٢)؛ وكيف نتعامل مع الشعور بالذنب (الفصل ٣)؛ ودربونا على فن الإصغاء، وأجبرونا على أن نركع على ركبنا في الصلاة (الفصل ٤)؛ وعرفونا كيف نضحك (الفصل ٥)؛ وكيف نتجاوز الحزن (الفصل ٩)؛ وكيف نعيش بشجاعة (الفصل ٦)؛ وساعدونا على مواجهة ضعفنا واحتياجنا، وضرورة الاعتماد على الله الأعظم منّا (الفصل ١٣). لم أعرف في حياتي أكثر من خبرة التربية كواحدة من أكثر عوامل التأثير في البناء الروحي.

معلِّمون صغار

هذه الفكرة أن الله يستخدم الأبناء ليعلِّمنا، وأن لدينا فرصة لنحصل على بصيرة روحية ممَنْ دُعينا لتربيتهم وتعليمهم، تأتي من الرب يسوع نفسه.. لقد كان في هذا الأمر ثوريًا.

لم يتمتع الأطفال في القرن الأول بالمكانة اللائقة، ولم يكن يُعطى لهم أي احترام تقريبًا. وبالرغم من أن العائلات كانت تقدِّر أطفالها، كان المجتمع بالكاد يحتملهم. واللغة في أيامهم تكشف التحيز السائد في القرن الأول.. إحدى الكلمات اليونانية التي تُترجم "الطفل" هي «Pais or Paidion»، ومن بين معانيها الأخرى: "الخادم" أو "العبد". وهناك كلمة أخرى هي «nepios»، وتحمل معنى عدم الخبرة، والحماقة، وقلة الحيلة. كما كان الفلاسفة اليونان دائمًا ما يوبخون الشخص الأحمق أو الغبي بنعته بهذه الكلمة (nepios). بل وإن بعض كُتَّاب الكتاب المقدس كانوا يحثون المؤمنين على التوقف عن التفكير مثل الأطفال [paidia] (راجع كورنثوس الأولى ١٤: ٢٠).[1]

تخيَّل وقتها دهشة الناس عندما يُحضِر الرب يسوع طفلاً مزعجًا وصاخبًا، ويضعه أمام الجموع (متى ١٨: ١– ٩). وبينما يضع يسوع يده على كتف الصبي، كانت له الجرأة ليقول إن هذا الصغير يُقدِّم مثالاً يُحتذى به.

حتى الطفل نفسه لابد أنه شعر بدهشة كبيرة! كان الأطفال لا يطيقون الانتظار حتى يصلوا إلى مرحلة البلوغ، ويتطلعون بشغف إلى التخلُّص من مكانتهم الوضيعة. لكن يسوع قال: "لا، لقد فاتكم أن تفهموا شيئًا مهمًا.. لو لم تتواضعوا مثل أحد هؤلاء، لن تدخلوا أبدًا ملكوت الله". ويقصد بذلك: "انظروا إليهم الآن، تعلَّموا منهم الآن، واطمحوا لتكونوا مثلهم."

ثم يفعلها يسوع ثانية، بعدما طهَّر الهيكل من الصيارفة مباشرة (راجع متى ٢١: ١٢- ١٦). إنه لم يطرد اللصوص فقط، لكنه شفى العميان والعرج أيضًا؛ لذا بدأ الصغار يهتفون: "أوصنّا لابن داود!"

اغتاظ رؤساء الكهنة والمعلِّمون جدًا، وقالوا له: «أتسمع ما يقول هؤلاء؟»

أجابهم يسوع: «نعم! أما قرأتم قط: من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحًا؟»

ماذا حدث هنا؟ سخر القادة الدينيون من يسوع: "اردع هؤلاء الأطفال المحتقرين والجهلاء والأغبياء الذين يعاملونك كمسيّا. ربما تقدر أن تخدعهم، لكننا نفهم حقيقة مَنْ أنت!" بفطنة قَلَبَ يسوع الموائد، وهو يقول فيما معناه: "أنتم المخدوعون، وليس هؤلاء الأطفال 'الجهلاء'!"

بدا يسوع متلذذًا بفكرة أن الأطفال "عديمي الخبرة والبسطاء" لديهم فهمٌ أفضل من هؤلاء الكبار المحنَّكين. قال يسوع موجهًا كلامه للجموع في الجليل: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك.» (متى ١١: ٢٥ و٢٦).

نحن نجد عبقرية الأطفال، من الناحية الروحية، في حالة عجزهم واعتماديتهم. الكتاب المقدس، وكذلك الروحانية المسيحية، دائمًا ما تؤكد على هذا باعتباره أكبر إخفاق عرفته البشرية.

رسالة الإنجيل تفضح المتكبرين.. إنها تُصرُّ على أننا ساقطون وعاجزون، وبحاجة لآخر ليدفع الثمن نيابة عنا، ثم يغطينا بقوة خارجية؛ حتى نستطيع أن نحيا الحياة كما قُصد لنا أن نحياها. والطفل يجسِّد هذه الحقيقة بشكل كامل!

ومع ذلك فرسالة هذا الكتاب تتجاوز فكرة أننا نستطيع أن نتعلَّم شيئًا من مراقبة الأطفال؛ فهو يؤكد على أن عملية التربية هي واحدة من أكثر الرحلات التي تشكل الحياة الروحية، والتي يمكن أن يختبرها أي رجل وامرأة. ما لم نكن متحجرين وجامدين روحيًا -أو مائتين روحيًا بالفعل- فإن رحلة الاهتمام بالأطفال، وتربيتهم، وتدريبهم، ومحبتهم ستترك فينا أثرًا قويًا لا يُمحى. لن نبقى كما كنا في السابق.. سنتغيَّر إلى الأبد، وسنختبر تحوُّلاً أبديًا. من الناحية الروحية نحتاج أن نربي أبناءنا بنفس القدر الذي يحتاجون هم إلى تربيتنا.

لماذا ننجب الأطفال؟

إذا أردت أن أجعل رؤوس الحاضرين تهتز في لقاءات "الزواج المقدس" التي أديرها، كل ما عليّ فعله هو أن أسألهم لماذا تزوجوا. كثيرون منّا دخلوا الحياة الزوجية في سن صغيرة نوعًا ما، وكثيرون أيضًا منّا تزوجوا لأسباب سطحية أو أنانية؛ لكن القليلين منا فهموا الالتزام العميق والدعوة التي يطالبنا بها الزواج الكتابي.

وللأسف معظمنا في النهاية ينجب أطفالاً لأسباب سطحية أيضًا.. بعض الشابات يخبرن مراكز الولادة الطارئة أنهن أردن أن يحملن لينجبن أحدًا يحبهن. بعض الرجال يعتقدون أنه من المهم أن ينجبوا مَنْ "يحملون اسم العائلة". أزواج آخرون ينجبون أطفالاً لأن شكلهم جميل، بينما آخرون في نرجسيتهم يريدون إنجاب أحدٍ يشبههم، والبعض الآخر يظنون أن إنجاب طفل سيقضي على الشعور بالوحدة في الزواج.

لابد أن أعترف أنني شعرت بالحماس الشديد لإنجاب الأطفال، من ناحية لأنني كنت أتوق لاختبار علاقة وثيقة بين الأب وابنه، أو علاقة حميمة بين الأب وابنته. أردتُ أن أكون بطلاً في نظر أطفالي، كما كان

والدي بطلاً بالنسبة لي.. كان لديّ شعور بأن هؤلاء الأطفال سيُثبتون رجولتي. لكن هذه الدوافع، بالرغم من نُبلها، لاتزال دوافع نرجسيَّة في أصلها، بناءً على فكرة غير واقعية عن الأطفال، ونظرة رومانسية لشكل الحياة العائلية.

لم يمر وقت طويل حتى اكتشفت ما يكتشفه كل أب وأم: الأطفال يولدون كخطاة بحاجة إلى نعمة الله، وكمخلوقات اعتمادية تحتاج إلى رعاية على مدار الساعة. هذه الحقيقة ستبدد الحالة الشاعرية وأفكارنا الرومانسية عن الحياة العائلية قبل انتهاء أول عبوة حفاضات من الحجم الموفر!

نحتاج إلى شيء أكثر ثباتًا، شيء يدوم أكثر، شيء يدعمنا أمام تحديات التربية. أفضل سبب لإنجاب الأطفال -السبب الذي سيدوم أكثر من المشاعر- هو سبب بسيط جدًا، حتى أنه لا يبدو عميقًا، وهو: الله أمرنا بأن ننجب أطفالاً (تكوين ١: ٢٨). هذه رغبته بأن "نثمر ونكثر"، وهذا الإثمار يتضمن أبناءً حساسين روحيًا يخدمون الله ويعملون من أجل مجد ملكوته على الأرض. هناك إسهاب في تثنية ٦ ومزمور ٧٨ عن هذه الوصية الواردة في سفر التكوين؛ ونفهم من ذلك أنه ليس من واجبنا فقط أن نحب الرب، بل وأن نربي أبناءً يحبون الله ويطيعون وصاياه.

بكلمات أخرى، إنجاب الأطفال أمر لا يتعلق بنا، بل يتعلق به.. نحن مدعوون لننجب ونربي أطفالاً لمجد الله.

معظمنا تظهر أنانيته الدفينة عندما يتعلق الأمر بتربية الأطفال. نحن نطمح أن نستفيد من الأمر، وعندما نستفيق على حقيقة أن الأبناء يمكن أن يسببوا لنا الإحراج مثلما يمكنهم أن يسببوا لنا الفخر، نصبح مستاءين، ونشعر بالمرارة، وسرعان ما يسود مناخ روحي سلبي على البيت. عندما لا نفهم القصد من التربية، تصبح المهمة شاقة جدًا.

عندما ندرك أن إنجاب الأبناء لا يتعلق بنا لكنه يتعلق بالله، تصبح صعوبات وتضحيات التربية سهلة ومحتملة أكثر. نرى القصد من وراء الصعوبة، فنُذكِّر أنفسنا: "هذا لا يتعلق بي، بل يتعلَّق به." لم يعد الغرض في النهاية إلى أي مدى يجعلني أبنائي فخورًا، ولكن إلى أي مدى أنا أمين في تتميم الواجبات التي أوكلها لي الله. عندما نعلّق آمالنا وفرحتنا على استجابة إنسان خاطئ، فهذه مجازفة محفوفة بالمخاطر في أفضل الأحوال. بالأحرى، عندما نعلِّق نفس الآمال والفرحة على استجابة إنسان خاطئ في سنوات تعلُّم المشي أو المراهقة حتمًا سيؤدي هذا بنا إلى خيبة الأمل واليأس عندما نستفيق.

التربية (والزواج) سيصيباننا بخيبة الأمل، والجُرح، والإحباط. نعم، ستكون هناك لحظات من الفرح الخالص، والسحر الذي لا مثيل له تقريبًا؛ لكن لا يفوتك أن الحياة العائلية يمكن أن تُشقينا إلى الأعماق. إذا لم يكن لدينا سوى حافز أناني، سنهرب من أعظم تحديات التربية.. بمجرد أن تتسرب إلينا خيبة الأمل، سنتراجع لنختبئ في غرفنا أو خارج البيت (مثلما كنا نفعل ونحن صغار)، أو حتى في مكاتب عملنا، أو قاعات الاجتماعات، أو النوادي والصالات، أو المطاعم والكافيهات، أو حتى في الكنائس.

دعونا نقبل أن كلاً من الزواج والتربية يقدم لحظات رائعة كثيرة لكنه يتحدانا بعنف حتى أعماقنا. دعونا نعترف أن الحياة العائلية تُجربنا ربما أكثر من أي شيء آخر. لكن دعونا نقبل أيضًا أنها، لمعظمنا، دعوة إلهية، وجزء من خطته لتكميلنا. بمجرد أن ندرك أننا خطاة، وأن الأبناء الذين أعطاهم لنا الله هم خطاة أيضًا، وأننا معًا كعائلة علينا أن ننمو نحو الله، حينئذ تأخذ الحياة العائلية سياقًا وهدفًا مختلفًا تمامًا. تصبح التربية استثمارًا مقدسًا عندما نفهم أخيرًا أن الله يستطيع أن يُعمِّد

الحفاضات المتسخة، ونوبات غضب الصغار، وصمت المراهقين؛ ليحولنا إلى أشخاص أكثر شبهًا بيسوع المسيح.

ما قلته الآن يعرفه معظمنا في أعماقه، لكننا ببساطة لا نعبِّر عنه بالكلمات. أحد أصدقائي من الرعاة سألني عما أكتب، وعندما شرحت له فكرة الكتاب، شاركني ببعض المشكلات التي واجهها هو وزوجته في تربية ابنهما. واعترف قائلاً: "زوجتي وأنا قطعًا نعتبر تجربتنا مع ابننا «چيف» واحدة من أكثر الأمور تأثيرًا في حياتنا- من الناحية الروحية."

تقر الروائية الحاصدة للجوائز «ريتشل كاسك»: "كأم أنتِ تتعلمين معنى أن تكوني شهيدة وشريرة في آن واحد. في الأمومة اختبرت نفسي كفاضلة جدًا وبشعة جدًا، ومنخرطة جدًا في فضيلة العالم وبشاعته، أكثر مما كنت أظن..."[٢]

إحدى الأمهات ولدت طفلاً بإعاقة في النمو قالت: "لو كان بيدي ما غيّرت شيئًا. أنا مسرورة به، لأنني بدونه لن أكون نفس الشخص الذي أنا عليه الآن. أتمنى له لو كان طبيعيًا، لكنني لستُ نادمة على ما تعلمته."

لستُ نادمة على ما تعلمته.

هذه هي رسالة هذا الكتاب، من نواحي عديدة. الهدف هو أن أصطحبك إلى مرحلة ما في رحلة التربية المقدسة لتقول فيها نفس الشيء: "ربما كانت صعبة في بعض الأوقات، لكني لستُ نادمًا على ما تعلمته."

زوجتي وأنا لدينا ثلاثة أبناء.. وبينما أكتب هذه الصفحات، «آليسون» عمرها ستة عشر عامًا، و«جراهام» ثلاثة عشر، و«كيلسي» أحد عشر. لازلنا في خِضم هذه العملية، وهذا ما يجعلني أنزوي خجلاً من أن أحاول كتابة كتاب عن كيف نربي. لذا فإن كتابي هذا عن "لماذا" نربي، و"ماذا حدث" في التربية.

خلال مسيرتنا اكتشفنا أن الأبناء العنيدين، والأطفال الموهوبين، الأبناء الذين يجعلوننا نبكي، والأبناء الذين يجعلوننا نضحك، الأبناء الذين يجبروننا على أن نركع على ركبنا في شكر وامتنان، والأبناء الذين يجبروننا على أن نركع في صلاة وتضرع، الأبناء الذين يتفوقون، والأبناء الذين يخفقون.. كلهم لديهم شيء ليعلّموه لنا. هذا كله جزء من خطة الله المتقنة للتربية.

لماذا نربي؟

بمجرد أن تنجب أطفالاً، ما الذي يحفزك على التربية؟

بعض الآباء والأمهات ينجبون طفلاً إلى العالم، لكن يرفضون عمل التضحيات الضرورية لتربية هذا الطفل تربيةً حقيقية. أحد أباطرة العقارات المشهورين أخبر أحد الصحفيين مؤخرًا: "إذا استطعت أن أرى ابنتي على العشاء مرة كل شهرين، أكون سعيدًا لهذا. لستُ مضطرًا للتواجد طوال الوقت لأكون أبًا صالحًا."[٣] عندما تقرر إنجاب أطفال فهذا شيء، لكن تربيتهم بشكل يومي تتطلب مجموعة مختلفة تمامًا من القرارات. ما الذي يدفعك لتقوم في الصباح لتساعد طفلك في واجباته المدرسية، أو تسهر متأخرًا في المساء تتحدث لابنتك عن يومها؟ لماذا نحرم أنفسنا من بعض الأشياء حتى يكون لأبنائنا بعض الأشياء الأخرى؟ لماذا تتخلى عن بعض الأشياء التي تحبها حتى تبقى في البيت مع أطفالك؟

إذا كنتِ تعيشين كأم بمفردكِ، لماذا تواصلين فعل كل هذا، حتى عندما يجعلك الإعياء تشعرين كما لو كنتِ ترتدين معطفًا وزنه ٢٥ كيلو جرامًا؟ وإذا كنت تعيش مع أولاد زوجتك، لماذا تزعج نفسك بكل هذه المهاترات، وتتفاوض حول علاقات مليئة بالمشاكل، وتحاول أن تفعل أشياء يقولون

إنها مستحيلة تقريبًا- لتنجح في النهاية في مزج عائلتين مختلفتين جدًا ومجروحتين جدًا؟ إذا كنت تتبنى طفلاً، ما الذي يجعلك مستعدًا لتحمل هذا الالتزام الصعب جدًا تجاه ابن شخص آخر؟

نحن نقضي وقتًا طويلاً في التحدث عن "كيف تكون التربية" لدرجة نهمل فيها سؤالاً لا يقل أهمية هو: "لماذا نربي"! هذا شيء مؤسف؛ لأن "لماذا" هي التي تدفع وتحدد أيضًا "كيف".. وعندما يكون لدينا الأسباب الخاطئة، فإن دوافعنا ستنحرف.. حتى لو كانت الكيفية صحيحة فالأمر إجمالاً سيكون خطأً!

يقدِّم لنا الرسول بولس إجابة واضحة جدًا للسؤال "لماذا" في كورنثوس الثانية ٧: ١. بدايةً هذه الآية ربما لا تتعلق بالتربية (وهي بالفعل ليست كذلك في سياقها)، لكنها قد تكون أكثر آية نافعة عن التربية في العهد الجديد كله:

> «أيها الأحباء لنطهِّر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح، مكملين القداسة في خوف الله.»

يخبرنا بولس أولاً أن نركّز على تطهير ذواتنا، وليس أطفالنا. نحن كثيرًا ما نميل إلى التركيز على تطهير أبنائنا بحيث نهمل نمونا الروحي الشخصي. أخبرني دكتور «كيفن ليمان» ذات مرة أن التربية تشبه حالة الطوارئ على الطائرة. قبل الإقلاع تُعطى الإرشادات لكل مسافر أنه إذا نزلت أقنعة الأكسچين، على الآباء والأمهات أن يرتدوا أقنعتهم أولاً قبل مساعدة أطفالهم في ذلك. لماذا؟ لأنه في حالة الطوارئ، يحتاج الصغار أن يكون أبواهم قادرين على التفكير بشكل هادئ والتصرف بفاعلية. وإذا لم نأخذ الأكسچين، سيضطرب تركيزنا، وأطفالنا -المعتمدون علينا في هذا الموقف- سيعانون في النهاية.

ما ينطبق في الهواء جسمانيًا ينطبق بالتساوي على الأرض روحيًا.. إذا أهملنا أكسچين روحانيتنا -مسيرتنا مع الله- ستتلوث دوافعنا؛ وستضعف قدرتنا على التمييز والتعاطف والتشجيع والمواجهة. لابد أن نرى التربية كعملية طويلة يطهِّرنا الله كآباء وأمهات من خلالها بينما يُشكِّل أبناءنا أيضًا.

هذا التطهير الشامل يتضمن "كل شيء يدنس الجسد والروح".. وهذا يقودنا إلى ما هو أبعد من الخطايا "الجسدية" الواضحة من تعاطي المخدرات، والإيذاء الجسدي، والنجاسة، واللغة البذيئة، وغيرها؛ بل ويقودنا إلى ملوثات مستترة أخرى منها: الغيرة، والخوف، والمرارة، والاستياء، والرغبة في التحكم والتملك. يحذرنا بولس الرسول من أن عملية التطهير ستكون عميقة وشاملة أيضًا -في قنواتنا الروحية العميقة. التربية ستقودنا لمواجهة خطايانا الروحية التي لم نكن نعلم حتى بوجودها، وستشير إلى نقاط ضعفنا الداخلية التي كنا نراها كنقاط قوة. ستكشف التربية عن الفجوات الكبيرة بما يكفي لنقود سياراتنا الكبيرة بداخلها.

يعرِّف بولس الرسول هذه العملية بـ "تكميل القداسة". هذه ربما أكثر عبارة مفضلة لي قالها بولس في العهد الجديد كله- أنا أحب هذا التعبير جدًا! نحن كخطاة ساقطين لن نعكس صورة المسيح بالكامل حتى يأتي اليوم الذي يظهر فيه. وحتى يحدث هذا علينا أن نعالج العيوب، وربما نستعمل "سنفرة" لتنعيم بعض الشروخ والحواف الخشنة، وندع روح المسيح يشرق فينا بقدر ما نستطيع. هذه العملية من النمو الروحي ليست فقط متغلغلة (لكل شيء يدنسنا)، لكنها أيضًا مستمرة (تكميل في زمن المضارع).

ولماذا نبذل أقصى جهد لدينا؟ ما الذي يحفزنا لننظر للتربية بهذا الشكل؟ ما كان لبولس أن يكون أكثر وضوحًا: نحن نفعل هذا من منطلق "مخافة الله". عندما يكون دافعنا هو مخافة الله، نحن نفقد ٩٩٪ من المبررات التي

نختلقها في حياتنا العائلية. يبقى الله مستحقًا المخافة إلى الأبد، ولن نُعفى أبدًا من التصرف بطريقة تدفعنا إلى الأمام نحو القداسة.

تأمل مثالاً من حياتي الشخصية.. لقد عدتُ من رحلة عمل في نهاية الأسبوع في مساء الأحد متأخرًا. ولأنني لم أرَ ابنتي منذ يومين أو ثلاثة، قمت من النوم بعد أقل من خمس ساعات لأوصلها إلى المدرسة. كان بإمكانها الذهاب بالأتوبيس، لكني إذا أوصلتها إلى المدرسة سيمكنها أن تتأخر قليلاً في النوم، ويمكننا أن نتحدث في الطريق- أو هكذا ظننتُ.

كان يوم الاثنين، وكانت ابنتي في حالة مزاجية صعبة. وكان أسهل أن أحرك جبلاً من أن أحصل على جملة واحدة منها. نزلت من السيارة صامتة بدون حتى أن تقول "شكرًا". ابنتي «آليسون» سريعة في التعبير عن شكرها- لكن كان هذا يومًا من أيام منتصف البلوغ الصعبة.

لو كنت أبًا يدور في فَلَك أطفاله، لشعرت بالاستياء، وبدأت على الفور في الهياج.. "استيقظتُ بعد ساعات قليلة من النوم، وهذه طريقة معاملتها لي؟ حسنًا، لن أفعل هذا ثانيةً لها! في الأسبوع القادم، سأنام وسأمارس هواية الجولف!"

الآباء والأمهات الذين يدورون في فَلَك أطفالهم يتصرفون بلطف معهم عندما يتصرف أبناؤهم بلطف معهم. الأب والأم الذي يدور في فَلَك طفله يبني تصرفاته بناءً على استجابة الطفل.

في المقابل، الأب أو الأم الذي يدور في فَلَك الله يتصرف انطلاقًا من مخافة الله.. بغض النظر عن طريقة تعامل الأبناء معي أعرف أن الله يريد مني أن أتحرك نحو أبنائي، وأدخل إلى حياتهم، وأقدِّم تأديبًا كتابيًا، وحبًا، ومساندة. لا يهم كيف سيتجاوبون معي بقدر ما يهم ما دعاني الله لأقوم به. وبالرغم أنني مفتون بابنتي، لكن لا أقوم من سريري بعد ساعات قليلة من النوم فقط بدافع محبتي لها، لكن بدافع مخافة الله أيضًا.

هل ترى الفارق؟ أتمنى أن ترى أهمية ذلك أيضًا. عندما لا يكون الله مصدر دوافعنا، فعادةً ما نركز على الأمور التافهة ونهمل الأمور الهامة. ربما نربي طفلاً أكثر لباقة وطاعة، لكننا لن نغرس فيه ما هو أكثر أهمية بكثير. لو كانت التربية تتعلق فقط بالسلوك وتصحيح السلوك، لمدح الرب يسوع الفريسيين وألقى التراب على المرأة الزانية.

بكلمات أخرى، أقول إن سعينا الروحي لابد أن يقود تربيتنا. العمل الروحي غير المكتمل أو المهمل حتمًا ستظهر آثاره في علاقاتنا بطريقة سلبية: سنكون أكثر إلحاحًا، أكثر تحكمًا، أكثر تساهلاً، أكثر استياءً. لا يستطيع شريك حياتنا أو أبناؤنا أن يُشبعوا جوعنا الروحي الذي خلقه الله في نفوسنا. عندما نهمل الله، فنحن نطلب من زواجنا وتربيتنا أن يصبحا بديلاً عن الله.. وهو ما لم يُصمما لأجله أبدًا.

في هذا الكتاب، أتمنى أن أستثمر هذا السعي الروحي وأقدسه من أجل خير عائلاتنا وملكوت الله. التربية المسيحية هي حقًا مسيرة مقدسة.. إنها تدعونا كآباء وأمهات لنطهِّر أنفسنا، وأن نستخدم عملية تربية الصغار لنكمُل في القداسة، وأن نفعل هذا بانتظام، وكل يوم، بدافع مخافة الله. إذا بدأنا هذه المسيرة ونحن متسلحون بهذا الفهم، فكل جانب من التربية سيكتسب معنىً وهدفًا جديدًا- حتى أصعب ما فيها.

نحن نعيش وسط مُعلِّمين قديسين.. أحيانًا يبصقون على أنفسهم أو علينا، أحيانًا ينفجرون في نوبات غضب، أحيانًا يحتضنوننا ويقبِّلوننا ويحبوننا. في السراء والضراء هم يُشكلون قلوبنا، ويُشكلون أنفسنا، ويدعوننا لنختبر الله بطرق أعمق وفي آفاق جديدة. وحتى إن بكينا بدموع غزيرة على مدار رحلة التربية، فإن بركات كثيرة تنتظرنا على رأس كل طريق نخطو فيه.

"شروق الشمس بلا أمطار هي الوصفة الطبيعية لتكوُّن الصحراء."

– مثل عربي

«إني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا.»

– رومية ٨: ١٨

الفصل الثاني

أصعب ألم على الإطلاق

كيف تعلِّمنا التربية

أن نقدِّر الشخصية والخدمة أكثر من الراحة

عاشت «أبيجايل آدمز» في فترة كان فيها السماح للأطفال بالسفر خارج البلاد بصحبة آبائهم في مهمة دبلوماسية هامة يعني مرور سنوات، وليس أسابيع، قبل أن تراهم مرة ثانية. قبل واحدة من هذه الرحلات، راجع الصبي «چون كوينسي» فكرة السفر بينه وبين نفسه؛ فهو لم يكن متأكدًا من رغبته في ترك أمه طوال هذه المدة.

في خطاب وداع مفعم بالمشاعر لابنها أظهرت أبيجايل أكثر الأشياء قيمة لديها. وبدلاً من جذب ابنها چون ليظل ملتصقًا بها، عملت أبيجايل على تقوية عزيمة ابنها. نعم، لقد اعترفت بصعوبة هذا الانفصال، وبالمخاطر الحقيقية التي تنتظر ابنها (السفر بالبحر في القرن الثامن

عشر كان يمثل مخاطرة حقيقية بالحياة)؛ لكنها ذكّرت ابنها الأكبر بواجبه نحو ضرورة الاستفادة القصوى من المكاسب التي يتمتع بها كابن لرجل صاحب نفوذ. بعض هذه المكاسب تضمنت تضحيات ومخاطر كبيرة، ولكن في النهاية قبول هذه المكاسب مع المخاطر المصاحبة لها سيخلق حياة مكتملة الخبرات.

كتبت أبيجايل هذا التعليق العميق لابنها:

> ليس في سكون الحياة وهدوئها... تتشكَّل الشخصيات العظيمة. إن عادات العقول الجبارة تتكون أثناء مقاومة الصعاب. الضرورات العظيمة تتطلب فضائل عظيمة. عندما يتربى العقل، ويتحرك بمشاهد تسلب القلب، فإن هذه الصفات التي كانت ستبقى خاملة، تتحول إلى حياة، وتُشكِّل شخصية البطل ورجل الدولة.[1]

أي أب أو أم ضعيف روحيًا كان سيجد وقتًا صعبًا وهو يكتب خطابًا كهذا؛ لأنه لا يوجد ألم يُقارن بمشاهدة أطفالك يتألمون. قالت أبيجايل ذات مرة عن زوجها: "عندما يُجرح، فأنا أنزف." ومعظم الآباء والأمهات يقولون نفس الشيء عن أبنائهم. أي أم أو أب لم يتضرع إلى الله في مرحلة ما قائلاً: "يارب دعني أنا أتألم، واعفِ ابني/ ابنتي من هذا الألم"؟ لكن أبيجايل كان لها نظرة أشمل: بدون "الضرورات العظيمة" لن يتعرف ابنها على "الفضائل العظيمة".. لقد أدركت أن حياة التحديات هي حياة تشكِّل النفوس. ولأنها أرادت ابنًا ناضجًا، فقد أخبرته بأن يتحدَّى تجاربه وجهًا لوجه ويقول: "أنا مستعد لكِ.. هاتِ أفضل ما عندكِ- وأنا سأتحداكِ بكل ما فيّ." وإلا فإن سمات العظمة الخاصة في ابنها ستظل خاملة ولن تظهر إلى الوجود أبدًا.

نجح أسلوب أبيجايل، وترعرع «چون كوينسي» ليصبح رجلاً ناجحًا

جدًا، وربما أحد أكثر وزراء الخارجية إبداعًا وكفاءةً وتأثيرًا في تاريخ الولايات المتحدة. ثم ارتقى بعد ذلك إلى أعلى منصب في البلاد.. منصب رئيس الولايات المتحدة. بعد ذلك خدم كعضو في مجلس النواب، وعمل باجتهاد على إنهاء العبودية. أي أم لا تشعر بالفخر لأنها ربَّت رجلاً بمثل هذا التأثير والنفوذ على بلادها؟!

إلى أي شيء تطمح لأبنائك: الراحة أم الشخصيّة؟ علينا أن نختار كل يوم تقريبًا بين الاثنين، حيث يظهر تعارض حتمي دائمًا بينهما. التربية المقدسة تقود إلى نضوجنا كوالدين بدعوتنا إلى اختيار الخدمة والشخصيّة لأبنائنا بدلاً من الحياة الخالية من الألم.

أنت متميِّز

لنقارن بين موقف أبيجايل مع البديل الشائع في عصرنا: السعي المحموم لتجنيب أبنائنا كل ألم أو ضغوط. في هذا العالم الجديد الجبان تكون المنافسة ممنوعة.

كتب «ريك رايلي» عمودًا في مجلة «Sports Illustrated» عن كيف منعت بعض المناطق التعليمية في نيويورك وتكساس وأوتا وفيرجينيا بقوة القانون لعبة "كرة الدودج"، بينما تدرس العديد من المناطق التعليمية الأخرى نفس الأمر. في هذه اللعبة هناك فائزون وخاسرون بشكل واضح.. فإذا ضربتك الكرة خرجت من اللعبة. البعض يعتقد أن هذا قد يؤذي تقدير الطفل لذاته، كما يخشى بعض الخبراء من أن تعطي اللعبة مساحة للعدوانية.. ففي الواقع، أنت تلقي بالكرة على طفل آخر بشكل مباشر.

ولكن بدون المخاطرات، هل يمكن أن توجد مكافآت حقيقية وواقعية؟ لا أتذكَّر أشياءً كثيرة كانت تُشعرني بالرضا بقدر رؤيتي لأحد الصبية، الذين لديهم زيادة في هرمون التستوستيرون، والذين بدأوا يحلقون لحيتهم

في الصف الثالث الابتدائي، وهو يشعر بالصدمة لأنه تلقى ضربة ضعيفة غير متوقعة مني بالكرة وهو غير منتبه؛ أو حتى نشوة أكبر من الإمساك برمية للكرة من أقوى وأمهر صبي فينا. ربما لا يختبر الصغار اليوم هذا الجو المفعم بالمنافسة، وهذا بفضل بعض القيادات والعقول التعليمية في بلدنا! يبدو أن لعبة "كرة الدودج" في طريقها إلى الانقراض مثل شرائط الكاسيت وأجهزة الفيديو. يعبِّر الكاتب الرياضي «ريك رايلي» عن هذا الرثاء كالتالي:

> أعرف ماذا يريد هؤلاء الآباء والأمهات الذين يستمعون للإذاعة المحلية، ويشربون بشراهة قهوة ستاربكس.. إنهم يريدون لأبنائهم وبناتهم أن ينموا في رحم مريح من عدم المنافسة، حيث يتشارك الجميع الحلوى والملابس الجميلة، ويتأزمون أمام أبسط المشكلات. ثم يتعثر أطفالهم في المستقبل عندما تبهر عيونهم أضواء العالم الحقيقي، ويكتشفون أن هناك الضعيف وهناك القوي، وهناك فرق تتنافس، وهذا ضد ذاك، وهناك فوز وخسارة. ستتعرف بسهولة على هؤلاء الصغار؛ لأنك ستجدهم يعملون في أبسط الوظائف.. حيث لا منافسة على الإطلاق.[٢]

من الواضح أن بعض هؤلاء المعلِّمين لا يكتفون بتوقف لعبة "كرة الدودج"؛ فلديهم مشكلة أيضًا مع "الكراسي الموسيقية". حقًّا! فمع كل لفّة حول الكراسي الموسيقية هناك احتمالية بأن تتحطم نفسية الطفل الذي يخرج من الدائرة!

قليل من الألعاب بمأمن عن حراس نفسية الأطفال. لقد منعت مدرسة "فرانكلين" الابتدائية في سانتا مونيكا بولاية كاليفورنيا لعبة "استغماية الملك"، حيث يجري الأطفال وراء بعضهم البعض ومَن يُمسَك

ينتقل للفريق الآخر. ينصح «رايلي» بالإبقاء على اللعبة، ربما مع تغيير قواعدها؛ فبدلاً من أن يقول الطفل لمَن أمسك به: "لقد أمسكت بك" يقول: "أنت جميل ومتميز"!

الحقيقة المحزنة أن مثل هذه الألعاب لا تجرح أطفالنا بقدر ما تجرحنا نحن.. الوالدين. نحن نُريح أنفسنا، وليس أطفالنا، عندما نتبنى هذا التطرف السخيف. لكي تستطيع أن تشاهد ابنك/ ابنتك وهو يتألم هذا يتطلب ضعف الشجاعة المطلوبة لنتلقى نحن الضربة- لكننا من خلال وسيلة إنكار أنيقة نحاول نحن الوالدين أن نعكس هذا الألم مرة أخرى على أبنائنا.

الفكرة هنا ليست المنافسة فقط.. لقد لاحظت الدكتورة «ميلودي رود»، وهي خبيرة في شؤون الزواج والأسرة وصديقة لي، من خلال خبرتها أن الأطفال الذين يتربون في ظل فلسفة من التدليل تتجنب الصعوبات والألم بأي ثمن على الأرجح سيكونون مدمنين، يعانون من البدانة، اعتماديين، يميلون للانتحار، غير أكفاء، وكثيرًا ما يكتئبون في الحياة. وتوضح أن عبارة "الآلام المتزايدة" تتجاوز وجع الركبتين لتصف وجع القلوب والنفوس المحبطة.. وهي خبرات لا غنى عنها على مسار النضوج. إذا قمنا بحماية أبنائنا من المخاطرة والتحدي واحتمالية الرفض، فعلى الأرجح سيتوقف نضوجهم، وبالتالي سيظلون غير ناضجين.

بدافع الحب لأبنائنا لابد أن نكون أقوياء روحيًا بما يكفي لنشاهدهم يُجرحون، ولنراهم محبطين، ولنسمع آهاتهم؛ وإلا فإننا نخاطر بتربية أطفال آمنين ومذعنين لكن فارغين في أعماقهم. في هذا الجانب يمكن لعدم نضوجنا وضعفنا الروحي أن يعوق أبناءنا.

أطفال آمنون ومذعنون– لكن فارغون في أعماقهم

تعمل «ماريلي چونز» كمسؤولة عن الالتحاق بمعهد «ماساتشوستس التكنولوچي» (MIT)، وهو من أكثر المعاهد التعليمية المرموقة في الولايات المتحدة. في أبريل عام ٢٠٠٢ تسلمت رسالة من أحد الآباء لم يتمكن ابنه من الالتحاق بالمعهد لأنه كان غير مؤهل، مكتوب فيها: "أنتِ رفضتِ ابني.. هو محطَّم.. أراكِ في المحكمة."

وهذه ليست حادثة استثنائية أبدًا. تحذِّر مدام «ماريلي چونز»: "لقد أصبح الآباء والأمهات اليوم منخرطين بشكل مفرط ومتزايد في عملية التحاق أبنائهم بالكليات، وفي كثير من الحالات فإن تصرفاتهم ومواقفهم تكون خارج السيطرة."[٣]

يتفق مع هذا صديقٌ لي يُسمى «چيم شموتزر».. إنه مثل «ماريلي چونز» يكسب عيشه من خلال العمل مع الصغار. كان يعمل معلمًا في السابق، وهو الآن يرأس خدمة كبيرة للطلاب الجامعيين. وهذا أتاح لچيم موقعًا متميزًا لرصد ثمار أساليب التربية الحديثة.. يقول چيم: "هذا أول جيل من الصغار يكون آباؤهم وأمهاتهم محامين متأهبين بإفراط للدفاع عن كل التفاصيل الصغيرة. إذا حصل أطفالهم على درجات سيئة، فهذا عيبٌ في المعلِّم. وإذا لم يحصلوا على وقت كافٍ في اللعب، يُلام المدرب. الجميع يظن أن طفله متميز، أو فوق العادي على الأقل، بالرغم أنه يبدو لي أن معظم الصغار لابد أن يكونوا عاديين." بالمناسبة لا يستثني چيم نفسه من هذا الكلام، ويعترف بدون أي تحفُّظ أنه كان يصارع مع هذا الأمر، حتى أنه في بعض الأحيان وقع في نفس الأخطاء التي يرى الآباء والأمهات الآخرين يقعون فيها.

يواصل چيم كلامه: "في هذا الجيل، نحن كوالدين بذلنا جهدًا فظيعًا لنحمي أبناءنا من الألم، ولنتأكد من أنهم سينجحون. مشكلة هذا الأسلوب

تكمن في أن الصغار لا يتعلمون الحكمة، ولا يكتسبون مهارات صُنع القرارات. أنا أؤمن أننا نتعلَّم من الفشل أكثر مما نتعلَّم من النجاح. لكن عندما يمنع الآباء والأمهات أبناءهم من الفشل، فحتمًا سيفتقر الأبناء إلى الحكمة."

يضيف چيم: "الأطفال اليوم يتمتعون بمستوى معيشة مرتفع، ويأكلون في مطاعم فاخرة، ويرتدون ملابس أنيقة، ويركبون سيارات فارهة- سواء كانوا يعملون أو لا. يبدأ الصغار في الظن أن نمط الحياة هذا هو الطبيعي، ولا يدركون أنه عليهم أن يعملوا ليعيشوا هكذا. بهذا المعنى، يعيشون في عالم وهمي لأنهم لا يحتكون أبدًا بواقع الحياة. وبالرغم من أنهم مدربون عقليًا بشكل فائق، كثيرون منهم يفتقرون إلى المهارات العملية التي تُمكِّنهم من معرفة ماذا يفعلون بهذا التدريب."[٤]

في مقال كُتب لعدد أبريل ٢٠٠١ من مجلة «Atlantic Monthly» يُسمي «دافيد بروكس» المواليد بين ١٩٧٩ و١٩٨٢ بـ "بالجيل الأكثر صقلاً وخضوعًا للإشراف في التاريخ الإنساني."[٥] يشرح «دافيد بروكس» كيف يسعى الآباء والأمهات باجتهاد ليعطوا أطفالهم كل الامتيازات والفرص. *الدليل على هذا* نجده في مجموعة من *المقطوعات الموسيقية* تُسمى «WombSong Serenades» صُممت خصيصًا لتنشيط الوظائف المخية لدى الأجنة -وهم لايزالون في رحم أمهاتهم. وإذا غلبك النوم بشكل أو بآخر، ونسيت أن تعطي طفلك الذي ينمو في البطن هذه الفرصة المبكرة، يمكنك أن تحاول تعويض ذلك باستخدام "مقطوعات موتزارت لعقول الأجنة" (والتي تعرض المقطوعة الموسيقية المنفردة بالكمان رقم ٣).

في مثل هذا المجتمع، لا يحتاج أطفالنا إلى الشخصية- بل يحتاجون فقط إلى الأدوية الصحيحة! في الواقع تنتج الولايات المتحدة وتستهلك ما يقرب من ٩٠٪ من عقار "الريتالين" (أشهر أدوية علاج فرط الحركة) في

العالم مع بدائله الأخرى.[٦] وكما يذكر اثنان من الباحثين، لو وُلد اليوم «دينيس المزعج» (شخصية تليفزيونية كثيرة الحركة ومثيرة المتاعب)، لوُصف له الريتالين على الفور؛ ولو وُلد اليوم «تشارلي براون» (شخصية كاريكاتيرية تفشل كثيرًا وغير متميِّزة بشكل واضح) سيوصف له حتمًا عقار "بروزاك" (من مضادات الاكتئاب). (هناك بالطبع أطفال يحتاجون لهذه الأدوية احتياجًا حقيقيًا، لكن جميع مَن يشتغلون بالتعليم تقريبًا سيخبرونك بأن الأدوية تكون في معظم الأحيان الملاذ الأول للطفل العنيد والمتحرك.) هناك إفراط في حماية الصغار، وإفراط في إعطائهم الأدوية، وهناك تدليل لا داعي له.

وهذا أثمر، في بعض القطاعات، عن أطفال مذعنين بشكل ملحوظ، لكن فارغين في أعماقهم. في تقدير «بروكس»: "إنهم يتحملون المسؤولية، إنهم كرماء، إنهم مشرقون. أنهم أصحاب مزاج جيد؛ لكنهم يعيشون في عالم فَقَد بسعيه المحموم وراء السعادة والنجاح إحساسه بالخطية، وأهمية بناء الشخصية من خلال مقاومة الخطية. الشر يُرى كشيء يجب أن يُعالج بتعليم أفضل، أو بالعلاج، أو بعقار البروزاك. وبدلاً من الحديث عن الفضيلة نتحدث عن الإنجاز."[٧]

في اعتقادي إن كل هذا هو ناتج السعي وراء السعادة بدلاً من القداسة. هذا لا يعني أن السعادة والقداسة لا يتقابلان (في الواقع إنهما يتلازمان كثيرًا)، لكننا نواجه إغواءً مستمرًا لنفضِّل حياة خالية من التوتر لأطفالنا عن الخبرات التي تبني شخصياتهم. وأنا لا أستثني نفسي بأي حال من الأحوال.. مؤخرًا اصطحبت ابنتي الصغرى كيلسي وصديقتها لورا في رحلة إلى أورلاندو بولاية فلوريدا. لقد وصلنا مبكرًا، وغادرنا متأخرًا، حتى أننا مع جدول من يوم ونصف من المحاضرات وجدنا وقتًا لنزور "ماچيك كينجدوم" و"سي وورلد" وأستديوهات ديزني. وحتى في اليوم الذي كان

مقررًا فيه أن ألقي محاضرة، قضت كل من كيلسي ولورا ما يقرب من ثلاث ساعات في حمام سباحة في أحد المنتجعات، وشاهدتا فيلمين في غرفة الفندق الفارهة. كنا نتناول وجباتنا في الغرفة، وكانت الغرفة تُنظف مرتين يوميًا بواسطة خادمة تترك مزيدًا من الحلوى للفتاتين.

لكن الرحلة بالطيران من سياتل إلى أورلاندو كانت طويلة؛ لذا اشترينا ليزا وأنا وكذلك والدة لورا بعض الأشياء التي تشغل وقت الرحلة، والتي قالت كيلسي عنها إنه بدونها ما استطاعت "البقاء على قيد الحياة". وعندما قالت ذلك ضحكتُ رغمًا عني.. في أمريكا فقط يظن الآباء والأمهات أن الطفل في طريقه لأحد المنتجعات لقضاء أربعة أيام في الملاهي العملاقة يحتاج إلى ما يساعده على البقاء على قيد الحياة حتى يصل إلى هناك. بالرغم من أنني أعلِّم في الندوات عن أهمية تقبُّل الملل إذا أردنا أن نتعلَّم كيف نصلي، لكن هنا كأب حاولت أن أتأكد أن ابنتي الصغيرة ستظل مشغولة طوال الوقت.

في نفس الأسبوع الذي اصطحبت فيه كيلسي إلى أورلاندو، سافر جراهام ابني إلى معسكر صيفي. أخبرتني ليزا أنه يمكن للوالدين أن يرسلا صندوقًا مليئًا بالأشياء لراحة أبنائهم. لذا دفعت ٤٠ دولارًا في شراء بعض الحلويات، وكتاب قصص كرتونية، وبعض مسدسات الماء، وعلكة (لبان)، وكاميرا رخيصة، وحلوى نعناع، وأشياء أخرى. وبعد أن أحضرت هذه البضائع، ضحكت على نفسي مرة أخرى. الناس يذهبون إلى المعسكر ليقضوا وقتًا مرحًا؛ فلماذا أشعر أنني مضطر إلى إعطاء جراهام صندوقًا لقضاء وقته في حين أنه ذاهب إلى مكان سيلعب فيه ١٨ ساعة يوميًا؟!

وبالرغم من اعتقادي أن الصغار قادرون على تحمُّل القليل من الملل وبعض الصعوبات، لكني مع ذلك أكره أن أرى أطفالي يعانون.. أتألم

أكثر مما أتخيَّل عندما يواجهون صعوبات، وأحزن لإخفاقاتهم ربما أكثر من حزنهم عليها. لازلتُ أبًا ضعيفًا مقارنة بـ «أبيجايل آدمز»، لكني لا أتوقف عن المحاولة. أحاول أن أساعد أطفالي ليدركوا أن هذا العالم يمثل مكانًا قاسيًا، وعليهم أن يكونوا أكثر خشونة ليعيشوا فيه. أريدهم أن يدركوا قيمة قبول المخاطرة، والتغلُّب على التحديات التي تبدو في البداية أكبر من قدرتنا على اجتيازها، وقيمة أن نتعلَّم كيف نقف على أرجلنا مرة أخرى بعد الإخفاق بدون يأس. لماذا؟ لأنهم عندما يتعلَّمون هذا، سيفهمون ضرورة ترتيب الأولويات.

الأهم قبل المهم

إن الميل الطبيعي (ليس بالضرورة ميلاً مقدسًا) لدينا لجعل الحياة سهلة بقدر الإمكان بالنسبة لأبنائنا، عندما يمتزج مع تركيزنا على ما نريدهم فعلاً أن ينجزوه، يعبِّر عن أهم ما نقدِّره في هذه الحياة كوالدين.. فما نهتم به مع أبنائنا يكشف عن شغف قلوبنا الحقيقي.

في رسالة مدهشة تحت عنوان "التربية المؤسسة على الإنجيل"[٨] يحذِّرنا القس «سي. جيه. ماهاني»، من بلدة جايتزبرج بولاية ماريلاند، أننا عندما نبذل معظم طاقتنا في تربية أبناء "ناجحين" وأذكياء ومهذبين، فإن نوايانا الحسنة يمكن أن تخنق حتى المقاصد الجيدة. يسأل القس ماهاني: "ما هو أهم شيء لأبنائنا؟ هل الالتحاق بأكبر الجامعات والكليات؟ هل الوصول إلى عمر الواحد والعشرين بدون جُرح واحد أو مرة انكسر فيها قلبهم؟ هل تربية طفل يقول 'حاضر سيدي'، أو 'لا.. مدام'، ويصبح شابًا مستقلاً ماديًا؟ بالرغم من أن هذه أهداف جيدة، اسأل نفسك سؤالاً: هل الشاب الذي لم يذهب من قبل إلى مستشفى، الذي ينعم بالراحة ويعرف آداب تناول الطعام في مطعم فاخر، وشريك

في شركة كبيرة للاستشارات القانونية -لكن روحه في خطر أبدي- هو فعلاً نوعية الابن أو الابنة التي تود أن تحققها؟"

الكتاب المقدس يقدِّم لنا تحذيرًا قاسيًا في سفر صموئيل الأول.. كان لعالي الكاهن ابنان يرتكبان الفحشاء مع النساء العاملات في الهيكل، وكانا يُتخمان ويسرقان من تقدمات الرب. سمح لهما منصب أبيهما أن يعيشا في رغدٍ مقارنة بالآخرين، وبالرغم من أن عالي احتقر أفعالهما، لكنه لم يردعهما. ربما تقول إنه فضَّل سعادة ابنيه على قداستهما، وعندما فعل هذا جلب غضب الرب عليهما. وبخ الله عالي وقال له: «لماذا... تُكرم بنيك عليَّ؟» (صموئيل الأول ٢: ٢٩). أصبح ابنا عالي عدوين لله، لدرجة أن الكتاب المقدَّس يخبرنا بأن: «الرب شاء أن يميتهم» (صموئيل الأول ٢: ٢٥).

من المرعب أن أتخيّل أطفالي يشعرون بالسعادة بينما هم على وشك أن يَصبّ الله عليهم جام غضبه. لهذا السبب يذكِّرنا القس ماهاني أن "الشيء الأهم" في التربية هو الصلاة والعمل والجهاد من أجل خلاص أبنائنا- وليس فقط خلاصهم، ولكن أن يصبحوا خدّامًا لإنجيل يسوع المسيح. أريد لأبنائي أن يتمثلوا ببولس، الذي دعا نفسه «عبد ليسوع المسيح... المفرز لإنجيل الله» (رومية ١: ١). التربية المقدسة توجِّه أبناءنا إلى احتياجهم لعلاقة مع الله، وتسديد الله الرائع لهذا الاحتياج، بدلاً من السعي إلى مجرد تعديل السلوك. وإذا لم يستشعروا أبدًا هذا الفراغ، فلن يُقدروا أبدًا العلاج الذي يقدّمه الله.

إذا كان السلوك يتعلَّق بتحقيق التوازن الكيميائي الصحيح أكثر من النظر بأمانة إلى داخل قلوبنا الخاطئة، فإن رسالة الإنجيل عن الغفران والتوبة وسكنى الروح القدس الذي يهب القوة تصبح بلا أهمية. يقول ماهاني بعد جرعة من التأديب لأحد أبنائه: "الآن هل ترى كيف أن كلاً

منّا يحتاج إلى مخلِّص؟" هذه هي التربية المقدسة.. إنها تنظر إلى القلب، وتعترف بالإخفاق الحقيقي، وتدرك الحل الحقيقي: الخلاص.

إذا لم يتألم أبناؤنا أبدًا؛ إذا لم يكونوا يخطئون أبدًا بل "يمرضون" فقط؛ إذا لم "يخفقوا" أبدًا لكن "يُخدعون" من مدرب ظالم، أو معلِّم، أو مدير المدرسة، أو غيرهم؛ فلن يستشعروا أبدًا حاجتهم لمخلِّص، وسيتبنوا دائمًا أسلوب آدم الأعوج، أي إلقاء اللوم على شخص آخر عندما يخفقون روحيًا.. وفي النهاية يواجهون غضب الله بسبب هذا.

نعم، نحن نتألم عندما يتألم أبناؤنا، لكن عندما نخفي عنهم احتياجهم لمخلِّص فإننا نحطِّم لديهم المنظور الأبدي. إن أصعب ألم نختبره نحن قد يكون أهم ألم يختبرونه هم. يا لها من خسارة فاجعة إذا كان الألم الذي وفرناه على أنفسنا يكون ثمنه ضياع خلاص أبنائنا!

إن تعليم سي. جيه. ماهاني يُذكِّر هذا الأب بأن يضع الأهم قبل المهم- مبتدئًا برسالة الإنجيل. هذا يعني قبول حقيقة صعبة للغاية لكنها مهمة للغاية، وهي: ملكوت الله يفوق في أهميته راحة أبنائنا الشخصية. بقدر ما أنا مفتون بأبنائي، وبقدر جنوني بهم، فإنني أخونهم إذا وضعت سعادتهم وراحتهم قبل القصد الإلهي العام لحياتهم وعالمهم.

أعترف أن حتى كتابة هذه الكلمات شيء مؤلم! بالطبع أريد لأطفالي أن يكونوا آمنين، وفي حالة صحيّة جيدة، وأن يحققوا كل قدراتهم الكامنة، في التعليم وفي أي جوانب أخرى؛ لكن الأكثر أهمية لي هو أن يقبلوا خلاص الله، وأن يصبحوا خدّامًا لمخلِّصهم. لأنهم إذا رفضوا هذا الإنجيل، فإنهم سيدانون بعدل. والأصعب من ذلك، سيكون عليّ أن أتفق مع هذه الدينونة- وهو ما يعني أنني إذا حاولت اختراع عالم بدون ألم ودون تبعات، فإنا أجعلهم يتعامون عن حقيقة وجود تبعات أبدية، مشتملة على ألم عظيم إذا استمروا في عصيانهم ضد خالقهم.

في إحدى المرات، كان أحد أطفالنا متضايقًا بعد أن طبقنا إجراءً تأديبيًا بسبب سلوك غير لائق تجاهنا. فأخبرته: "انظر، الأمر لا يتعلق فقط بالأسلوب الذي تعاملت به مع أمك أو معي؛ لكن هذا لأجل سلامة روحك بينما تقبل السلطة التي وضعها الرب فوقك. فإذا تغاضيتُ عن هذا السلوك، أنا أخاطر بهلاك نفسك، ومحبتي لك الكبيرة جدًا تمنعني من هذا."

كيف أعرف أنني أضع الأشياء في ترتيبها الصحيح؟ يشجِّع سي. جيه. ماهاني كل أب وأم أن يسألوا أبناءهم سؤالاً في غاية الحكمة: "في رأيكم، ما هو أكثر شيء يهم بابا وماما؟" إذا لم يخطر على ذهنهم رسالة الإنجيل، فربما يستشعرون أننا في الواقع نهتم بتجنُّب الإحراج بسبب سلوكهم، أو نظافة المنزل، أو إلحاقهم بأفضل المدارس، أو الحصول على أعلى الدرجات حتى نتفاخر بها أمام الآخرين.

في كتابي «الزواج المقدَّس» أصف زوجتي بأنها "مرآة الله"[٩].. بنفس الطريقة أعتقد أن الأبناء هم مرآة قلوبنا؛ فطريقة تفاعلنا معهم تكشف فعليًا أكثر الأشياء التي نُقدِّرها في الحياة. كان بولس الرسول لا يستحي بالإنجيل، بل حريصًا بشدة على توصيل رسالة الإنجيل (راجع رومية ١: ١٥ و١٦). ربما يكون صغارنا هم أفضل مَنْ يكشف حقيقة قلوبنا، وهل تعكس مشيئة الله لحياتنا أم لا.

الآب المنسي في الجلجثة

تقودنا التربية المقدسة إلى حقيقة في منتهى القسوة.. تأمل ما سمح الآب السماوي أن يختبره ابنه على الصليب. في يوم الجمعة العظيمة من كل عام، نحتفل بتضحية الرب يسوع البطولية- وحسنًا نفعل هذا. لكن ماذا عن "الآب المنسي" في الجلجثة؟ تخيَّل أنك تشاهد ابنك وهو يتعرض

للإذلال أمام عينيك، ويُجرد من ملابسه، ويُطعن ويُضرب ويُسخر منه، ثم يُصلب. الآن تخيَّل ابنك ينظر في عينيك بينما يتألم، ثم ينطق بكلمات تمزق القلب: "أبي، أبي الحبيب، لماذا تركتني؟"[١٠]

هل أهرطق إذا قلت إن هذه الكلمات التي نطقها يسوع جرحت أبانا السماوي أكثر من المسامير التي جرحت يسوع نفسه؟ لا أعتقد أنني مخطئ، ولا أظن أن أي أب أو أم سيختلف معي في هذا.

لا يوجد أب أحب ابنه مثلما أحب أبونا السماوي الابن يسوع، لكن محبته سمحت بأن يتألم ابنه. بطريقة تصعب على أفهامنا، كان على يسوع الابن، الإنسان الكامل والإله الكامل، أن يتألم من أجل ذاته ومن أجلنا. يشرح كاتب العبرانيين أن المسيح «مع كونه ابنًا تعلَّم الطاعة مما تألم به. وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عبرانيين ٥: ٨ و٩). لو لم يسمح الآب للابن بأن يتألم، لظل يسوع ممجدًا كإله كما هو، لكنه ما كان ليحمل الظفر المجيد الذي أحرزه على الصليب. لا يمكن أن نتحدث عن أن ليسوع مجدًا أقل دون أن نهرطق، لكن من المؤكد أنه لولا الصليب ما كان ليصير يسوع الذي نعرفه.

هذه هي الحقيقة التي تستحق التأمل: إذا كان الله قد سمح لابنه أن يتألم –وهو قدوتنا كأب، بإمكاننا أن نتوقع أوقاتًا سيكون علينا أن نشاهد أبناءنا يتألمون من أجل خير أعظم. وعندما يحدث هذا سنشعر بما شعرت به مريم عندما حذّرها سمعان قائلاً لها: «وأنتِ أيضًا يجوز في نفسكِ سيفٌ» (لو ٢: ٣٥).

لكن من فضلك تذكَّر: الألم ليس نهاية القصة! يبذل البشير لوقا مشقة كبيرة للتعبير عن القصد الواحد للآب والابن بعد دفع ثمن الحكم القاسي للخطية. فالابن نفسه الذي قال: «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» أسلم الروح بهذه الكلمات: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لوقا ٢٣: ٤٦)– وهي

عبارة رنانة تعبِّر عن ثقة مطلقة، وتسليم كامل، ومحبة أبدية. يا له من تعليق رقيق يقوله أي ابن لأبيه!

لذلك أيها الآباء والأمهات تشجعوا.. مشاعر الإحباط من حين لآخر، وحتى الغضب، تدوم فقط للحظات؛ ثم تعبر. لا تتخلوا عن الحقائق الأبدية في مقابل مكاسب وقتية.. تمثلوا بأبيكم السماوي، الذي بشجاعة سمح لابنه أن يتألم، عالمًا أن علاقتهما لن تُصاب بأي أذى.

هذا هو بالحقيقة أصعب ألم على الإطلاق! إذا لم تكن التربية رحلة مقدَّسة، قد يمكننا تفادي هذه الحقيقة، وقد نقضي كل عمرنا محاولين حماية أبنائنا وأنفسنا من الألم. لكن لأن التربية مهمة مقدسة، فالله يدعونا إلى الخضوع إلى مشيئة عُليا تفوق وتعلو عن مشيئتنا- وهي خطة الخالق لنا وللعالم، هذه الخطة التي قد تجعلنا من حين لآخر نجتاز المعاناة والألم.

من منظور الله، هناك قيم تفوق في أهميتها الراحة والسعادة. من الجبن الروحي أن نُحصن أبناءنا ضد الصعاب والمعاناة، وهي الأشياء بعينها التي تصقلنا. تأمل أكثر آية توجز فيْ الكتاب المقدَّس موضوع التشكيل الروحي: «بل نفتخر أيضًا في الضيقات، عالمين أن الضيق ينشيء صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء» (رومية ٥: ٣).. يرى بولس الرسول أن التزكية (أي الشخصية) تُبنى بتعلُّم الصبر والمثابرة خلال الأوقات الصعبة. إذا لم نترك أطفالنا يواجهون أوقاتًا صعبة، فلن يصبحوا أبدًا أقوياء بما يكفي ليصنعوا فرقًا في العالم القاسي المحيط بهم -كما صنع يسوع فرقًا بالنيابة عنا كلنا.

هذا الفهم قد يجعل بعضنا يراجع أكثر الأشياء التي نأسف عليها في أوضاع أبنائنا الحالية. إحدى الأمهات طريحة الفراش بسبب مشكلة مزمنة في عظام الفخذ، كان عليها أن تشاهد أبناءها وهم يقومون بالكثير

من المهام المنزلية. ولم يكن أطفالها يستطيعون المشاركة في الكثير من الأنشطة مثل الأطفال الآخرين، لأن أمهم تحتاج إلى اهتمام، ولا تستطيع أن تتحرك بسهولة تكفي لاصطحابهم إلى مكانين أو ثلاثة كل مساء. وما يزيد من صعوبة الوضع، أنه كان على الأم أن تستند على أحد أبنائها الصبيان بينما تسير متكئة على عصا. بالنسبة للمراهقين مثل هذه الأم يمكن أن تمثل سببًا للشعور بالحرج الشديد.

ومع ذلك، كما تحكي الأم، بدلاً من أن تجعل أبناءها يشعرون بالمرارة، فإن خبرتهم الحياتية مع أم عاجزة تقريبًا حولت هؤلاء الصبيان إلى أشخاص "مهتمين ولطفاء". ولكثرة المهام المنزلية التي عليهم القيام بها، كان عليهم أن يتعلَّموا كيف يعملون معًا. ماذا كانت النتيجة؟ اعتبر كل واحد فيهم الآخر صديقه المقرب. (أين الإخوة الذين يفعلون هذا اليوم؟) ختمت الأم كلامها: "لا أعتقد أن الألم شيء جيد، لكن عندما أنظر إلى أبنائي، أرى أن حياتي جيدة، ولا أتمنى أن أزيل الأجزاء التي كانت صعبة فيها."[١١]

"لا أتمنى أن أزيل الأجزاء التي كانت صعبة فيها".. كان لهذه المرأة قلب أبيجايل آدمز؛ كانت امرأة قوية بما يكفي لتتحمل الألم الذي سيشعر به أبناؤها على المدى القريب من أجل المكافآت الناتجة عن هذا الألم على المدى البعيد.

ليس بمقدورنا أن لا نتأثر عندما نشاهد أبناءنا يتألمون، لكن العيش في عالم ساقط يحتم عليهم أن يتألموا. وبالتالي ما هو البديل؟ نحن كآباء وأمهات يمكن أن نصبح حساسين بإفراط ومهتمين بإفراط حتى أننا دون وعي قد نربي صبيانًا لينين بإفراط وبناتًا مدللات بزيادة. إعفاؤهم من أي ألم حقيقي، وإخفاؤهم عن أية تضحية حقيقية، وإبعادهم عن أي إحساس حقيقي بالخسارة، يجعلهم يكبرون بدون أي إحساس بالوجع

الذي اختبره يسوع على الصليب. وإذا نزعت الصليب من المسيحية، فكل ما سيتبقى منها هو بعض التعاليم الأخلاقية الحكيمة التي لا تختلف كثيرًا عن أية ديانة أخرى.

تحت ذريعة إعفاء أبنائنا من هذه الصعوبات، نحن في الواقع نحاول إعفاء أنفسنا من الألم جراء رؤيتهم وهم يتألمون.. هذا الجبن لا يجب أن يستمر! الأطفال المدللون نادرًا ما يكون لديهم الحماس الكافي لينجحوا. وعندما يحطمهم البعض بالنقد، بدلاً من أن يجعلوا وجوههم كالصوان، فإن هؤلاء المدللين يتراجعون هربًا إلى أقرب ركن وهم يتنهدون في رثاء ذواتهم.

هل فقدنا فهم أبيجايل للألم الذي يطهِّر؟

اثنان من أقرب أصدقائنا، بوني كارلسون وزوجته آني، لاحظا تحولاً كبيرًا في سلوك أبنائهما عندما انتقلوا من الريف إلى إحدى ضواحي المدينة. في الريف تشكِّل المهام المنزلية جزءًا منتظمًا من حياة أطفالهم، لكن عندما انتقلا إلى المدينة مع "فناء بحجم طابع البريد"، بدأ كارلسون وآني يقضيان معظم وقتهما بعد الظهر والأمسيات في التنقل مع أبنائهما إلى مباريات رياضية متنوعة. وعندما عاشوا على قطعة أصغر من الأرض، أصبح لديهم مهام منزلية أقل.

على مدار شهور لاحظت آني أن هذا النمط الحياتي يجعل الأبناء كسالى وأنانيين وأكثر إلحاحًا؛ وبالتالي جلست مع زوجها بوني، واجتهدا في عمل قائمة بمهام منزلية، محاولين بنبل التغلب على الإغراء الهادئ للسكنى في المدينة، الأمر الذي كان يقدِّم لأبنائهما نظرة غير واقعية للحياة.

من المؤسف أن الكثير من الآباء والأمهات يتحركون في الاتجاه

المعاكس، ويقولون: "أطفالي ظروفهم أفضل مني بكثير." لكني أسألهم: "هل الأفضل هذا هو أفضل فعلاً؟" إذا كنتم تقصدون بكلمة "أفضل" غرفهم الخاصة، ونمط حياتهم المترف، وجدول أعمالهم المشغول (الذي يتيح لهم فرصًا أكثر)، أو الأجهزة الرياضية المتقدمة، والمؤتمرات والمعسكرات الرياضية، وهكذا؛ فلابد أن نتوقف ونسأل أنفسنا إذا كان كل هذا يمثل بالفعل مناخًا أفضل لتربية الأبناء! كبر أبي وهو يشارك السرير مع اثنين من إخوته، وكان يعمل ليشتري ملابسه منذ أن كان في الثانية عشرة. حتى فقدان الطفل الصغير لوظيفته كان يؤثر بشكل كبير على العائلة كلها- لدرجة أنه عندما مرضت أخته الأكبر ولم تستطع غسل الأطباق في المطعم الذي تعمل به، تقدَّم أبي من تلقاء نفسه ليعمل مكانها. ضحك صاحب المطعم عندما رأى طفلاً صغيرًا أتى للعمل، وقال له: "لن تصل بطولك هذا إلى الحوض!" وهو ما جعل أبي يسحب دلوًا ويبدأ العمل على الفور، ليعطي المال الذي يتحصل عليه لأخته.

اليوم، مثل هذا الفعل سيكون مخالفًا للقوانين.. القوانين التي تمنع استغلال الأطفال في العمل تمنع أي صبي صغير من العمل بدلاً من أخته الكبرى عند تغيبها عن العمل. من هذا المنظور، من المؤكد أن حاله لم يكن أفضل.. لم يكن له أية امتيازات يتمتع بها معظم الأطفال اليوم (بما فيهم أطفالي). لكن ليت العالم كان فيه ألف رجل مثل أبي! السؤال الذي أسأله بينما أُربي ابني هو: "هل شخصية والدي شيء عارض، أم أنه تعلَّم دروسًا غالية من خلال ما عاناه في حياته؟"

هذا لا يعني أننا نتعمَّد حرمان أطفالنا حتى يصبحوا أقوياء.. فالعالم الذي نعيش فيه سيوفر لهم ما يكفي من المعاناة بدون أن نضطر نحن لاصطناعها. هناك طريقة لبناء عائلة سويّة بدون تدليل مفرط، لكن هذا الكتاب لا يناقش هذا. هذا كتاب يتحدث من منظور

الأبوين، وهو ما يعني لي أنني أحتاج أن أكتسب شجاعة لأسمح لأبنائي بمواجهة بعض الصعاب، وربما الألم والمعاناة أيضًا.. هذه بالحقيقة هي "التربية المقدسة".

يتلخص الأمر في الآتي: هل أُربي أطفالاً يؤمنون بأن بعض الأمور، أعني ملكوت السموات والحياة العائلية، تستحق التضحية لأجلها؟ هل أطفالنا يروننا، زوجتي وأنا، ونحن ننفق وقتنا وجهدنا بتركيز على شيء أكبر من ذواتنا، أكبر حتى من عائلتنا؟ هل سأسمح لابني بأن يضع نفسه في طريق خطر من أجل سبب أكثر أهمية منّا؟

تدعونا التربية المقدسة إلى قبول أصعب ألم على الإطلاق.. من أجل ملكوت الله، ومن أجل نضوج أطفالنا. أحتاج أن أسمح لأطفالي بأن يواجهوا التحديات، والإخفاقات، والرفض، والألم؛ ثم أعلِّمهم أن يستخدموا هذه الأحداث التي تبدو سلبية ظاهريًا لأغذي لديهم الإحساس بالهدف في الحياة، ولتعزيز اعتمادهم على الله.

"التوبة، بخلاف المفهوم الشائع، ليست خطوة أولى بطوليَّة أقوم بها نحو المسيح، وليست شعورًا بالأسف على خطاياي.. إنها عطية إلهية لتعديل المسار نحو الحق."

– ويليام ويليمون

"هناك سر عظيم في التوبة.. وهو أننا قد نطير أسرع إلى البيت بجناح مكسور."

– ويليام سوليفان

« لأن آثامي طَمَت فوق رأسي. كحملٍ ثقيلٍ أثقل مما أحتمل. »

– مزمور ٣٨: ٤

الفصل الثالث

الذنْب المُغلف بالذهب

كيف تُعلمنا التربية
أن نتعامل مع الشعور بالذنب

لا أعرف هل رأيت مشهدًا أكثر غرابة من هذا.. كنتُ أتمشى مع زوجتي، ورأينا طفلاً يبلغ من العمر سنة ونصف تقريبًا يجري في منتصف الشارع. نحن نعيش في نهاية شارع مغلق، لذا لم يكن لدينا زحام مروري، لكننا مع ذلك لم نصدّق أننا لا نرى أي أب أو أم بالقرب من المشهد.

درجة الحرارة تقارب سبع درجات مئوية، ومع ذلك لم يكن الصبي الصغير يرتدي حذاءً أو معطفًا. وبعد ٤٥ دقيقة سيحلُّ الظلام. اتجهتُ على الفور إلى الشارع، وقلتُ له: "إلى أين أنت ذاهب يا صاحبي؟" فجرى مباشرة نحوي مرتميًا بين ذراعيَّ، وابتسم قائلاً: "هاي!"

سألته: "فين ماما؟"

قال: "ماما!"

أدركنا على الفور أننا لن نحصل منه على أي شيء أكثر من جملة من كلمة واحدة.

لم نتعرف عليه؛ لذا أخذناه إلى بيت نعرفه يعيش فيه أطفال صغار، على أمل أن يتعرفوا عليه. لم تره الأم الشابة من قبل، لكنها أقرضتنا بطانية لتدفئة قدميه العاريتين، بينما مشينا ليزا وأنا بين البيوت المجاورة لعلنا نجد منزل الطفل.

اتصل أحد الجيران بالشرطة لإبلاغهم بالعثور على صبي صغير. اعتقدنا ليزا وأنا أنه لابد من وجود أب أو أم مذعور في مكان ما، لذا مشينا هنا وهناك في الممرات نسأل في البيوت التي نعرف ساكنيها.

بعد ١٥ دقيقة رأينا سيارة آتية على الطريق. ورأتنا الأم الشابة من خلال زجاج السيارة، بينما كانت تضع يدها على فمها؛ ثم أوقفت السيارة جانبًا، وهرعت نحونا.

كانت تبكي. واحتضنتنا، ثم قالت: "لا أستطيع أن أصدِّق أنه تاه مني. يا لغباوتي! كيف أضيّع صغيري؟"

وقف أخ وأخت أكبر خلف الأم، وكلٌ منهما يمنع دموعه.. دموع الشعور بالراحة. ثم جاءت الجدة مهرولة على الطريق، كأنها تريد تسجيل رقم قياسي في سباق لكبار السن من السيدات.

ثم تعرَّفت الأم عليَّ؛ لأني كنتُ قد وعظت في كنيستها، فقالت: "الآن ربما تظن أنني امرأة غريبة الأطوار لأنني أضعت طفلي!"

بصدق لم يأتِ على ذهننا هذا الشيء. لقد عرفنا منها أن هذا الصغير خبير في المراوغة والهروب (ومن ابنة صديقة تساعد كجليسة أطفال في غياب الوالدين). ولم يكن لهذه الأم أقل من ثلاثة أقفال على باب بيتها

الخارجي لتمنعه من الخروج، لكن الأب تعجَّل الذهاب إلى المتجر، وتأكَّد من غلق اثنين من الأقفال فقط. وبينما كانت الأم تتحدث مع الجدة في غرفة المعيشة، رأى الطفل الصغير فرصة لنزهته المفضَّلة. وكان قد جرى مسافة ثلاثة مبانٍ عندما وجدناه.

أي أب أو أم يمكن أن يظن أن هذه الأم لا تتمتع بالمسؤولية؟! هذه الأمور تحدث حتمًا. لكن ما أدهشني جدًا هو المشاعر التي انتابتها بعد الشعور الفوري بالارتياح والفرح: الشعور بالذنب الشديد.

عندما عرف أحد أصدقائي أنني شرعت في تأليف هذا الكتاب، قال لي على الفور: "جاري، من فضلك لا تجعلني أشعر بالذنب تجاه تربيتي لأبنائي؛ لأني أشعر بما يكفي من الذنب."

لو كان هذا الكتاب عن "كيف تربي"، لاستطعتُ أن أسكب عليكم طوفانًا من الذنب. ليس صعبًا أن أجعل أي أب أو أم يشعر بالذنب، لأننا نعرف أنه بمقدورنا دائمًا أن نفعل أكثر مما نفعل. نستطيع أن نقضي وقتًا أطول مع الأطفال، ونوفر لهم بيتًا أفضل، وظروفًا معيشية أفضل.. قائمة الأشياء التي نستطيع القيام بها بشكل أفضل لا تنتهي.

لكننا بشر معرضون للخطأ.. نحن نتعب، ويصيبنا الملل، ولا نفكِّر دائمًا قبل أن نتصرف.. نحن لسنا مثاليين بالمرة. والتربية تُسلِّط الأضواء على نقائصنا أكثر من أي شيء آخر.

لقد واجهت مشاعر هائلة بالذنب تجاه دوري في التربية.. كزوج وكأب أكون تقريبًا بلا قيمة بعد التاسعة مساءً. أنا شخص نهاري.. أحب أن أستيقظ مبكرًا، وأعمل باجتهاد على مدار النهار، لكن هذا يعني أنني أكاد أكون جثة هامدة في ساعة مبكرة من الليل. أسمع عن الآباء والأمهات الذين يسهرون ويتحدثون ويتسامرون مع أبنائهم حتى وقت متأخر من الليل، وأشعر بالخجل لأنني كثيرًا ما يغلبني النوم أمام

التليفزيون. وفي يوم إجازة قضيته مع أخي، أتذكّر مشاهدتي له يتحدث مع أبنائه الصبيان على مدار يومهم، مقدمًا لهم دروسًا وصلوات هادفة. فقارنت نفسي بهذا شاعرًا بالذنب؛ فكل ما أقوله: "أحبك.. حبيبي. ربنا يباركك. تصبح على خير."

خلاصة الأمر، أريد لأطفالي أن يعتقدوا أنني أفضل أب في الدنيا، ومن منظور أناني كان هذا هو هدفي لسنوات طويلة. ولكن بينما يكبرون، ويشاهدون آباء آخرين، يدركون أن أباهم مُقصِّر في بعض الجوانب- بل وفي جوانب كثيرة.

لذا عشتُ سنوات كثيرة خائفًا من اليوم المحتم الذي سيصاب فيه أبنائي بخيبة الأمل. في سنواتهم الأولى كانوا يصفونني بانتظام "أفضل أب في الدنيا كلها"، لكني كنت متأكدًا أنها مسألة وقت.

الفهم الصحيح

التربية عملية معقدة.. إننا كآباء وأمهات نتولى مسؤولية سلامة أبنائنا العاطفية والجسدية والعقلية والاجتماعية والروحية، كلها في آن واحد. هذا يجعلنا نقلق بشأن آلاف الأمور يوميًا.

عندما كانت ابنتي آليسون صغيرة، أخبرتها أن تجمع ألعابها. وقد فعلت هذا على أفضل ما يكون بدون تذمُّر وبدون تكرار الطلب. أردتُ أن أشكرها وأكافئها؛ لذا ذهبت إلى دولاب المطبخ لأُخرج بعض قطع الشيكولاته. وقتها سمعت صوتًا يهمس في أذني ويحذرني: "ألم تقرأ كتابًا أو مقالاً يقول إنك لا يجب أن تستخدم الطعام كمكافأة، وإلا فأنت تجعل ابنتك تصاب باضطراب في الشهية؟"

على الفور دخلت في مطاردة ذهنية سريعة جدًا .. فقد أردتُ أن أكافئ ابنتي، لكني لم أرد أن أضع بذور مشكلة مستقبلية تتعلَّق بشهيتها. هل

أتجاهل بسهولة حقيقة أنها فعلت شيئًا أردتُ أن أشجعه، وأتمنى أن عدم وجود استجابة سلبية سيجعلها تتصرف بهذه الطريقة في المستقبل؟ أم هل أكافئها، مع أن بعض الخبراء يقولون إن هذا قد يؤدي إلى كل أنواع التأثيرات السلبية؟ لكن ربما يمكنني أن أكافئها بشيء بخلاف الطعام.. أستطيع أن أخرج معها لنتمشى سويًا، أو يمكننا أن نذهب لنتناول الآيس كريم- عفوًا هذا أيضًا نوع من الطعام.

هذا الجدل الداخلي السخيف انتهى أخيرًا عندما نظرتْ إليَّ ابنتي البالغة من العمر ٣ سنوات، وسألتني: "بابا، هل تنوي المشاركة معي بقطع الشيكولاتة، أم أنك ستقف هناك، وستأكلها كلها بمفردك؟"

فكّرت في نفسي: "عظيم جدًا، الآن ستكبر آليسون ولديها على الأرجح مشاعر بالخوف لأن أباها غير مستقر عقليًا، ولا يستطيع أن يقرر هل يجب أن يعطيها بعض قطع الشيكولاتة الصغيرة لأنها جمعت ألعابها!"

وحيث إن الآباء والأمهات كثيرًا ما يتحملون مسؤولية أي شيء سيئ يفعله أطفالهم، بصرف النظر عن الأسلوب الذي يتبعونه في التربية، فإن بعض العيوب في شخصيات أبنائنا حتمًا نحن مصدرها.. ربما كنّا متزمتين بإفراط، وربما كنّا متساهلين بإفراط.. بعض الخبراء ينصحون بالمكافآت، والبعض الآخر يقولون المكافآت هي شكل من أشكال العقاب. كلهم لديهم شهادات دكتوراه، ونحن ليس لدينا إلا كومة من الحفاضات المتسخة. نريد أن نفعل الصواب- لكن ما هو الصواب؟

ما هي المحصلة النهائية؟

الشعور بالذنب.. الذنب.. الذنب.

أعرف إحدى الأمهات شعرت بالذنب لأنها لم تنتبه للإشارات الأولية المبكرة لإصابة ابنتها الكبرى بمرض نفسي، وهذا بنسبة كبيرة لأن طفلها

الثاني كان بمثابة إعصار من الحركة.. كانت تنفق وقتًا طويلاً وطاقة هائلة في محاولة منع هذا الطفل من حرق المنزل، أو من القفز من فوق مكان مرتفع، لدرجة جعلتها لا تنتبه لإشارات غامضة وضعيفة عن شيء خطير يصيب ابنتها الشديدة الطاعة والهدوء.

أي شخص لديه طفل كهذا يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن يحدث هذا. الأطفال أصحاب الشخصيات شديدة الصعوبة يشبهون حريقًا مستمرًا في غابة- بينما تحاول أن تطفئ ألسنة النيران الأكثر خطورة، فإن النيران غير الظاهرة عادة ما تُهمل. التربية لعبة معقدّة، ربما أكثر صعوبة من الشطرنج؛ لكننا كثيرًا ما نُجبر على اللعب حتى عندما لا نشعر أننا في أفضل حالاتنا.

هذه الحقيقة، التي تشبه الضوء الفضي الذي يظهر في الأفق أثناء شروق الشمس، قد أمدتني باللمحة الأولى لفهم جديد بينما كنتُ أسعى لمواجهة شعوري بالذنب كأب. كان عليَّ أن أقبل حقيقة أن التربية تتطلب مني مهارات لا أملكها، وتتطلب فهمًا وحكمة أفتقر إليهما. كما أنها تضعني، قبل أن أستعد، في موضع المسؤولية ٢٤ ساعة كل يوم أسبوعيًا لمدة ٣٦٥ يومًا في السنة- بل وحتى ٣٦٦ يومًا في السنة الكبيسة.

لعبة عالية السرعة

تخاطب الراباي «نانسي فاكس كريمر» آباء وأمهات كثيرين عندما تقول إنها لا تجد صعوبة كبيرة في أن تسامح أبناءها (بمجرد أن تعبر لحظات الغضب)، بينما تجد صعوبة أكبر في أن تتعلم كيف تسامح نفسها![1]

في رأيي من النافع أن ندرك مدى تكلفة أي وظيفة تتطلب اهتمامًا

٢٤ ساعة في اليوم. لقد جعلت البعض يضحكون عندما ادّعيت بأنني أب رائع عندما أكون مرتاحًا وليس مجهدًا، أنا زوج رائع عندما لا أشعر بالإجهاد وليس لديّ التزامات مرتبطة بمواعيد.. لكنَّ عيد الميلاد يأتي مرة واحدة في السنة، ويُفترض بي أن أكون زوجًا وأبًا رائعًا ٣٦٥ يومًا في العام- هذا معناه أن هناك ٣٦٤ يومًا سيكون أدائي فيها منخفضًا جدًا.

ولكن إذا ظننت أنني أعاني من الشعور بالذنب، عليّ أن أعترف أنني لا أقترب من بعيد أو قريب من الذنب الذي يسكن نفوس الأمهات العاملات.. إذا أردت أن تشاهد مجموعة من الناس يغمرهم الإحساس بالذنب، فقط تحدَّث مع إحداهن! بعض الأمهات يعملن باختيارهن، وأخريات يعملن بسبب الضرورات الاقتصادية؛ لكن معظمهن تقريبًا يعترفن بنوبات منتظمة من وخز الضمير عندما يتعارض العمل مع تربية الأبناء. لماذا؟ تصف الصحفية «ليزا بيلكن» هذا الأمر ببلاغة فائقة: "عندما تكون أبًا أو أمًا عاملاً فهذا يعني أن لديك لحظة على الأقل في اليوم تبعد فيها أبناءك عن ذهنك واهتمامك."[٢]

ولا يمكنك أن تفعل هذا بدون أن تدفع الثمن من عواطفك.. هذا جزء من السبب الذي جعل ليزا بيلكن تبدأ في العمل من المنزل- لكن هذه الخطوة أيضًا لم تخلصها تمامًا من مشاعر الذنب لديها؛ فنشوة ابنها بوجودها في البيت سرعان ما تتبخَّر وتتحوَّل إلى فزع بمجرد أن تغلق باب المكتب لتعمل: "إنه يقف ويبكي خارج الباب، وأنا أقف وأبكي من الداخل."[٣]

لكن حتى الأمهات اللواتي لا يعملن يختبرن مشاعر الذنب أيضًا.. فليس معنى أنكِ في البيت فأنتِ دائمًا في أفضل حال! سمعت زوجتي إحدى النساء تقول في شبه دعابة أنها تتمنى لو وجدت كتابًا بعنوان

"التربية في وقت العادة الشهرية". كيف تعتنين بأطفال في عمر المشي -أو حتى اثنين من المراهقين- بينما تشعرين أنكِ على وشك الانفجار عاطفيًا؟

هذه إحدى مشكلات الكتب التي تتحدث عن أساليب التربية.. فهي تفترض أولاً أنك هادئ، وثانيًا أن لديك الوقت والجهد لترسم جداول للمكافآت، وتكتب عقودًا للتأديب، ثم لا يزال لديك سلام النفس لتطبقها بهدوء وسلام. علاوة على ذلك، إنها تفترض أنك وشريك حياتك متفقان في كل شيء، ولست غارقًا تحت الأعباء المالية، أو لا تشعر بالصداع أو التوتر العصبي، أو لديك التزامات مُلحة في العمل.

في الواقع يمكن تشبيه التربية "برؤيتك للأشياء من شباك القطار وهو بكامل سرعته"! كثيرٌ من الرياضيين الذين يصلون إلى دوري كرة القدم الأمريكي يقولون إن أول شيء يلاحظونه هو سرعة المباراة! كل شيء يحدث بسرعة كبيرة.. لابد أن يترك لاعب الوسط الكرة من يده في غضون ثوانٍ، واللاعب الظهير ليس أمامه سوى جزء من الثانية ليراوغ أو ليخسر دوره تمامًا. إذا نجح أحد اللاعبين أن يُبطئ وتيرة اللعب، لاستطاع أن ينفذ كل الحركات بإتقان شديد- لكن كل شيء يحدث بسرعة كبيرة. إذا لم تصبح لاعبًا ذا قدرة كبيرة على استشعار الفرص بالبديهة، ستصبح لاعبًا سابقًا في فترة وجيزة.. سينتهي الموسم قبل أن تدرك ذلك.

أليست التربية شيئًا مشابهًا لذلك؟ رجال كثيرون يعترفون بأن الصراع الذي يولِّد الذنب يتلخص في محاولة بناء مسيرتهم المهنية بينما في نفس الوقت يريد صغارهم أن يقضوا الوقت معهم. يبدو أن الترتيب الزمني للحياة يعمل ضدنا، وعلينا دائمًا أن نصنع خيارات في كل الأحوال خاسرة. إذا اجتهدنا في وظائفنا نشعر بالذنب؛ لأن أبناءنا لا يجدون

وقتًا يقضونه مع آبائهم. إذا قصَّرنا في العمل، نخشى أن نفقد وظائفنا، ولا نقدر أن نوفر حياة كريمة لأطفالنا.

الرجال والنساء، الآباء والأمهات، كُلنا تقريبًا نتمنى لو استطعنا أن نُبطئ وتيرة الحياة قليلاً.. حتى الإجازات يمكن أن تجعلنا متعجلين! إحدى الأمهات كانت ترثي حالها لأنها أصبحت منهكة للغاية بينما تحاول مساعدة عائلتها للاستعداد لرحلة لمدة أسبوع: "نحن نقضي شهرين لنتأكد من توفير الملابس المناسبة للأطفال، والحقائب المناسبة، والأوراق الصحيحة المطلوبة للسفر، وملايين التفاصيل الأخرى- كل هذا لأسبوع 'نرتاح' فيه. أشعر بالإرهاق الشديد، وسيمضي وقت طويل قبل أن أوافق على الذهاب في إجازة أخرى."

لقد أدركت أنني لست فقط غير مؤهل لكي أربي، بل وعليَّ أن أعترف أنه أحيانًا -بسبب الإعياء أو التشتيت أو أسباب أخرى- لا أستطيع حتى استغلال قدراتي الشخصية. أنا أقل من حالتي المثالية، مع إدراكي أن حالتي المثالية ليست كافية أيضًا!

متلازمة صموئيل

كطفل كنت أحب قراءة قصة النبي صموئيل.. لقد دعاه الله منذ ولادته ليكون نبيًا، وتحدَّث معه وهو صبي صغير. وعندما كبر صموئيل وصار رجلاً ناجحًا، نَصَّب كلاً من شاول وداود كملكين- لكنه لم يكن إنسانًا متملقًا.. عندما استدعى الأمر وبَّخ شاول على تقديمه لذبيحة معيبة، ثم قام صموئيل بشجاعة بما يمكن اعتباره خيانة عظمى عندما مسح داود ملكًا بينما شاول لايزال على قيد الحياة.

بواسطة صموئيل تحوَّلت أمة إسرائيل من مجرد قبيلة يحكمها قاضٍ إلى شعب يحكمه ملك. حقًا كان شخصية صاحبة تأثير كبير في تاريخ

إسرائيل، وبشهادة الجميع خادمًا أمينًا للرب (راجع صموئيل الأول ٢: ٣٥؛ ١٢: ١- ٥). ومع ذلك فقد تمرد ابناه على الله:

> وكان لمّا شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لإسرائيل. وكان اسم البكر يوئيل، واسم ثانيه أبيّا. كانا قاضيين في بئر سبع. ولم يسلك ابناه في طريقه، بل مالا وراء المكسب، وأخذا رشوةً وعوَّجا القضاء. (١صم ٨: ١- ٣)

قرأتُ عددًا من الكتب المسيحيّة الجيدة التي تضع اللوم على صموئيل، وقد افترض مؤلفو هذه الكتب أن صموئيل فشل كأب.. لكن الكتاب المقدس لا يلمِّح لهذا أبدًا؛ بل يقول إن ابنيه صارا في طريق الشر. يُوجَّه الاتهام إلى عالي الكاهن، الذي سبق صموئيل، بوضوح إلى أنه لم يردع ابنيه (١صم ٣: ١٣)، لكن حقيقة صمت الكتاب المقدس على الفشل المزعوم لصموئيل يجعلني أستنتج أن صموئيل لا يمكنه أن يتحمّل ذنب اختيار ابنيه أن يعيشا حياة آثمة.

ومع ذلك هذه هي الحقيقة الصعبة: في النهاية نحن نحمل إخفاقات وذنب أبنائنا، كما لو كانت إخفاقاتنا وذنبنا نحن. لا أقول إننا يجب أن نفعل هذا، أنا فقط أقول إننا نفعل هذا عادةً- ويميل الآخرون إلى تشجيعنا على تحمُّل هذا العبء. نحن نعيش في حقبة "التفكير الخطي".. يُقال لنا: "افعل الصواب، والرب سيباركك، وسيصبح كل أطفالك مؤمنين أتقياء. أمّا إذا عصيت الله، فسوف تأتي اللعنة على أمورك المالية وعلاقاتك ووظيفتك، وأبناؤك سيدمرون حياتهم."

لكن التشبث بالتفكير الخطي فيه تقليل من طبيعتنا كبشر.. أنت لا تربي إنسانًا آليًا؛ بل نحن نرعى حاملي صورة الله الخالق الذين يعيشون بحرية اختيارهم، وإرادتهم الخاصة، ومسؤوليتهم الشخصية.

يبدو لي أننا نميل إلى أن ننسب لأنفسنا تقديرًا مُبالغًا فيه عندما يصبح أبناؤنا صالحين، أو ننسب لأنفسنا الكثير من اللوم عندما يصبح أبناؤنا سيئين!

هل تريد أن تسمع حقيقة قاسية؟ كآباء وأمهات ليس فينا مَنْ يستطيع أن يكون صالحًا بدرجة كافية حتى يجعل الله مرغمًا على أن يخلِّص نفوس أبنائنا. وعلى الجانب المشجع، ليس فينا مَنْ يستطيع أن يفسد جدًا بحيث يصل أبناؤنا لنقطة أبعد من دائرة رحمة الله.

بدأ آسا ملك يهوذا حكمه بمخافة الرب، لكنه سقط من نعمة الله عندما اعتمد على قوى أجنبية بدلاً من الاعتماد على الرب لهزيمة أعدائه. وعندما واجهه النبي وتحدَّث له بالحق الإلهي، ألقاه آسا في السجن! لكن ابنه يهوشافاط كان قصة مختلفة تمامًا: «كان الرب مع يهوشافاط لأنه سار في طرق داود أبيه الأولى» (أخبار الأيام الثاني ١٧: ٣). بفضل رحمة الله لم يتلوث الابن بقدوة أبيه السيئة.

يذكر الكتاب المقدَّس أمثلة لخدام أمناء تجاه الله ربوا أبناءً أشرارًا (صموئيل)، وخدام تركوا الرب لكنهم أنجنبوا نسلاً أمينًا وخائفًا لله (آسا). حتى أنه يحكي بشكل فاضح عن ملوك أشرار (آحاز) كان لديهم أبناء أبطال يخافون الله (حزقيا).

حتى إذا كنتُ أبًا أو أمًا حكيمًا ومثاليًا وفي أفضل حالاته دائمًا، فليس لديّ ضمانة بأن أبنائي سيصنعون دائمًا اختيارات حكيمة. وكذلك ليس لأن فيَّ ضعفات كثيرة فهذا يعني بالضرورة أن أطفالي سيعانون.

لقد أدركتُ حقيقة كانت مخفيّة عني لزمن طويل.. بالرغم أن لديّ والدين رائعين تقيين، لازلت أكبر ومعي بعض الإحباطات التي أريد تصحيحها كأب. خطر ببالي في النهاية أنني كنتُ أطلب من والديّ شيئًا ليس باستطاعتهما: كنتُ أطلب منهما حبًا لا يستطيع أحد سوى الله أن

يهبني إياه! والنتيجة أنني أردت أن أحب أطفالي حُبًا لا يستطيع سوى الله أن يقدمه لهم.

باختصار، إمّا أنني كنت أنصِّب أبنائي بديلاً عن الله، أو أحاول أنا منافسة الله- وكلاهما جهد مُقدَّر له بالفشل. في النهاية وصلتُ إلى مفترق طرق: بدلاً من منافسة الله، أدركتُ أنه دعاني لأركّز جهودي على تعريف أطفالي به، وأركّز جهودي أيضًا على استخدام ضعفاتي وإخفاقاتي كأسباب تقنع أبنائي بضرورة أن يجدوا ملجأهم في الله.

كيف سيكون الحال معك؟ هل ستحاول منافسة الله، أم ستعمل على تعريف أبنائك على الله الواحد الحقيقي؟ ليت الرب يرحم نفسك إذا كنت أبًا أو أمًا متزمتًا وغير مرن؛ وإلا ستكون خائفًا وتعيسًا ومجهدًا ومحبطًا في أوقات كثيرة- والأكثر من ذلك، ستدفن نفسك تحت الشعور بالذنب.

بمقدورنا جميعًا أن ننظر إلى الوراء ونرى الفرص الضائعة في تربيتنا لأبنائنا، وكذلك نرى عيوب شخصياتنا التي انتقلت وربما زادت في أبنائنا.. نحن نفترض أن هذه الفرص الضائعة وعيوبنا الشخصية هي السبب عندما يتمرد أبناؤنا- وأحيانًا يكون علينا أن نعترف أن إخفاقاتنا ظلمت أبناءنا.

إذا كنتِ أمًا مُطلقة وترين ابنك يتصرَّف بأسلوب غير لائق، بالطبع ستفكرين أن الأحوال كانت ستختلف لو الأب يعيش معكم في البيت. لن أكون أمينًا إذا قلت إن الأحوال ما كانت لتختلف، ومع ذلك ربما كنتيجة لطلاقك قد راجعتِ نفسكِ وعالجتِ بعض الجوانب في حياتكِ التي كانت تحتاج إلى تغيير- وقد شهد ابنكِ حدوث هذا، واستفاد من ذلك.

اسمعي "متلازمة صموئيل": من الممكن أن تكون خادمًا (أو خادمة) أمينًا للرب ويفسد واحد أو أكثر من أبنائك. ثم تأملي "متلازمة آحاز" أيضًا: من الممكن أن تكون أبًا (أو أمًا) شريرًا، ويكون نسلك تقيًا جدًا.

لا أقول إن الأبناء لا يمكن أن يضلوا أو حتى يُصابوا بالضرر بسبب عيوب تربيتنا. الكتاب المقدَّس يقول بوضوح إن أبناءنا إن كانوا غير طائعين فهذا قد يَحدُّ الدور الذي يمكن أن نقوم به في الكنيسة (تيموثاوس الأولى ٣: ٤ و٥)؛ لكن فشل الأبناء لا يعني بالضرورة أننا فشلنا كآباء وأمهات، بالرغم من أن هذا يعني شعورنا على الأرجح بذلك. الشعور بالذنب مرتبط بآباء وأمهات ذوي طبيعة ساقطة، مدعوين لتربية أطفال خطاة.. لن نصل أبدًا إلى الكمال كآباء وأمهات.

نحن نجد ملجأنا الوحيد في نعمة الله ورحمته.. لن تكون أبًا أو أمًا بدون أن تشعر من حين لآخر بالذنب- لكن هذا شيء جيد، كما سنرى حالاً.

شعور بالذنب مُغلَّف بالذهب

منذ وقت ليس ببعيد، كانت كلمة "شلل الأطفال" تلقي الرعب في قلوب الآباء والأمهات، الآن تبدو تأثيرات هذا الفيروس واهية جدًا. لماذا حدث هذا الفرق؟ لقد تعلَّم الأطباء كيف يهزمون المرض. بالمثل، منذ جيل أو جيلين كان التشخيص بالسرطان يشبه حُكمًا بالإعدام. اليوم حسب كلام أحد أصدقائي من أطباء الأورام، يستطيع الأطباء بشكل اعتيادي علاج أكثر من ٧٠٪ من حالات مرضى السرطان.

يمثل الشعور بالذنب حقيقة قاسية، حُكمًا أبديًا بالإدانة- لكن الله قدَّم علاجًا له بموت يسوع المسيح وقيامته؛ والشيء الذي كان يومًا مميتًا يمكن أن يساهم الآن بدور إيجابي في حياتنا وقلوبنا ونفوسنا. كما تحدَّث العدَّاء الأوليمبي السابق «مارتي ليكوري» عن "العطايا التي يمكن أن يقدِّمها مرض السرطان"[٢]، كذلك نحن الآباء والأمهات المؤمنين يمكننا أن نتحدث عن أمور إيجابية عديدة يمكن أن يحققها هذا الشعور بالذنب في حياتنا.

(١) الشعور بالذنب يمكن أن يوجهنا إلى الله

نحن كوالدين أحيانًا نحتاج أن نذكِّر أنفسنا ببعض الحقائق الأساسية. أولاً، نحن لسنا الله. بالتأكيد سنفسد الأمور أحيانًا.. سنشعر بالإرهاق، سنرتبك من حين لآخر بسبب إخفاقاتنا وميولنا. في بعض الأحيان ستُشوَّش رؤيتنا كوالدين بسبب احتياجاتنا الصحية، ومشغوليات أعمالنا، وكذلك التزاماتنا في الخدمة. ولأننا كائنات بشرية محدودة، ولها فهم محدود، ونحتاج قدرًا من النوم، لا يمكن أن نأخذ مكانة الله بالنسبة لأولادنا.

آخرون منّا (ولا أضم نفسي لهم؛ لأن الله باركني بأبوين تقيين رائعين) عليهم أن يدركوا أنه ربما لم يعلِّمنا أبونا أو أمنا كيف نربي الأطفال.. ربما لم يكونا والدين عطوفين، أو لم يُظهرا لك معنى الأبوة والأمومة الحقيقية، ولم ترَ أبدًا نموذجًا للتربية الروحية، لذا دخلت إلى عالم التربية مثل ملاكم بلا مدرب. إذا كان هذا يعبِّر عنك، بالطبع سترتكب أخطاءً! ما الذي سيمنعك؟

تحتاج أن تعرف أن الله لديه توقعات مختلفة لكل أب وأم. لقد أوضح الرب يسوع جيّدًا في لوقا ١٢: ٤٨ أنه بالرغم من أننا مذنبون، فإن الله يراعي الخلفيات التي جئنا منها عند إصدار الحكم بالإدانة: «فكلُّ مَنْ أُعطي كثيرًا يُطلبُ منه كثيرٌ، ومَنْ يودعونه كثيرًا يطالبونه بأكثر.»

الجانب الإيجابي لمحدوديتنا هو أن الضعف من جانبنا يمكن أن يصبح نقطة قوة عندما نستخدمه لنحوِّل انحياز أطفالنا لنا إلى انحياز نحو الله. نحن نحتاج لمخلِّص، مثلما يحتاجون هم إلى مخلِّص. بمقدورنا أن نحبهم، لكن الله وحده هو مَنْ أحبهم، ويحبهم، وسيحبهم حبًا كاملاً. يحتاج أبناؤنا أن يعرفوا أنه حتى إذا خذلهم بابا وماما، فالله وحده هو الذي سيكون بجوارهم دائمًا.

إن رغبتي في أن أكون "أعظم أب في الدنيا كلها" تغطيها رغبة دفينة بأن أُعامَل كإله في بيتي. يا له من ضغط هائل تضعه هذه الرغبة عليّ! وما أروع الشعور بالحرية الذي يتولَّد لديّ عندما أعترف لأبنائي: "هل تعرفون يا صغاري، بابا يحتاج إلى مخلِّص، مثلكم تمامًا! كلنا عاجزون بدون نعمة الله." لا يمكنني أن آخذ مكانة الله بالنسبة لأولادي، لكني أستطيع أن أقدم لهم قدوة في الاحتياج لله. الشعور بالذنب منحني هذه العطية!

ما هو الأفضل لملكوت الله.. أن يقول ابني أو ابنتي "لا أستطيع أن أخدم الله مثلما فعل أبي"، أم "إذا استطاع الله أن يستخدم أبي، فهو حتمًا سيستخدمني"؟ لا شك أن العبارة الثانية هي الحقيقة التي تخدم مقاصد الله على المدى البعيد. ودوري كأب (أو أم) تجاه هؤلاء الأبناء هو أن أقدِّم قدوة في احتياجي لرحمة الله، وأظهر لهم كيف يستطيع الله أن يستخدم خطاةً لإتمام مقاصده.

بهذا المعنى، لا ينبغي أن ننظر إلى الشعور بالذنب كجراج وإنما كمغسلة للسيارات! عندما نغوص في مشاعر الذنب، وتدمِّر عزيمتنا، وتجعلنا محبطين، تصبح مشاعر الذنب "جراج"- هذا ليس شيئًا جيدًا. لكن عندما تذكّرنا مشاعر الذنب أننا غير كفاة، وعندما توجهنا عدم كفايتنا لله، وإلى غفرانه وقوة روحه القدوس وتدبير نعمته؛ فإن مشاعر الذنب تصبح "مَغسلة" روحية.. أنت لا تعسكر في مغسلة السيارات، بل تذهب هناك فقط للتنظيف! أنت تدخل إلى مغسلة السيارات وتخرج مرة أخرى بمظهر جديد تمامًا.. هذا أحد الأدوار الصحية التي يمكن لمشاعر الذنب أن تلعبها في حياة الوالدين: توجيهنا وتوجيه أبنائنا إلى الله.

(٢) الشعور بالذنب يمكن أن يحفزنا إلى الأفضل

التربية المقدسة رحلة طويلة جدًا.. من الصعب أن نركّز على مهمة ما لمدة ثماني ساعات، فكم بالأحرى ثماني عشرة سنة. زمن التربية الطويل يعني أنه سيكون هناك ارتفاعات وانخفاضات.. أيام حُلوة وأيام مُرة. نعم، سنخطئ في بعض الأشياء، وكُلنا نستطيع أن نكون أفضل، كلنا نستطيع أن نقدِّم المزيد.

نحن كوالدين نحتاج أن نرسخ هذا التوجُّه القلبي الذي يدوم مدى العمر. لقد تعرَّفتُ على چون أثناء مباراة للجولف.. يلعب چون الجولف سبعة أيام في الأسبوع، إذا سمح الطقس بذلك. وعندما كان أحد اللاعبين يخسر، يقوم آخر بمواساته، ويقول چون: "عندما تلعب كل يوم، لن تقلق كثيرًا بشأن هذا؛ لأنك تعرف أن غدًا سيأتي حتمًا."

هذا ليس شعارًا سيئًا للتربية: "غدًا سيأتي حتمًا". بالطبع غدًا هذا غير مضمون، لكن حتى مع ذلك فالتربية تستمر مع معظمنا لسنوات كثيرة، وليس لأيام. ستمر علينا أيام حُلوة وأيام مُرة أيضًا، لكن عندما نرى التربية كرحلة طويلة لن نُغرق أنفسنا في مشاعر الذنب في الأيام الأقل من مثالية. لن نكون دائمًا في أفضل حالاتنا، لكن ستُتاح لنا غالبًا فرصة أخرى للعمل على التربية في اليوم التالي.

لا تنظر إلى إخفاقاتك بمعزل عن نعمة الله وعنايته. يصبح الذنب حملاً ثقيلاً عندما تغرق في إخفاقاتك، سواء في الماضي أو الحاضر. لكن الشعور بالذنب يمكن أن يتحوّل إلى حافز إيماني عندما نسمع صوت إلهنا يقول: «ولا أنا أدينك. اذهبي (أو اذهب) ولا تخطئي (أو تخطئ) أيضًا» (يوحنا ٨: ١١).

عندما أدرك أنني أصبح جثة هامدة بعد التاسعة مساءً، يمكن أن يحفزني الشعور بالذنب لأكون أكثر مشاركة في السابعة والنصف، قبل

أن تتوقف كهرباء مخي. هذا يعني أن أقضي وقتًا أطول مع أطفالي، وأتناول الطعام مع كل واحد منهم بشكل شخصي، عندما أكون متاحًا أكثر وبكامل طاقتي. أيًا كان السيناريو الخاص بك، دَعْ مشاعر الذنب تقودك لتكون أكثر مشاركة بدلاً من التوقف والانسحاب في إحباط.

بفضل اتساع رحمة الله، يكون لدينا يوم جديد.. فرصة أخرى. وبفضل عمق رحمة الله، لا يمكننا افتقاد نعمته! بمقدورنا أن نتطلع إلى الأمام بثقة، ونستخدم إخفاقاتنا كلحظات تعلُّم، ونستيقظ بنفوس مغتسلة وقلوب متجددة، عالمين أننا تعلَّمنا دروسًا غالية لليوم التالي.

(٣) الشعور بالذنب يمكن أن يذكِّرنا بعناية الله

يمكن لشعورنا بالذنب كآباء وأمهات أن يشجعنا على الاتكال على عناية الله. ليس من المصادفة أننا أنجبنا الأطفال الذين أنجبناهم، بل خلقهم الله ووضعهم تحت رعايتنا. وعندما فعل ذلك، كان يعرف محدوديتنا، لكنه لايزال يأتمننا عليهم. أحب أفكار «كارولين ماهاني» عن هذا الموضوع:

> يمكن أن نستنتج أنه إذا اختار الله بحكمته الإلهية أن يعطي أبناءً خطاة لوالدين خطاة، أن أبناءنا ليسوا ضعفاء للدرجة التي تجعلهم عاجزين عن تحمُّل سلوكنا الشرير... أبناؤنا ليسوا بهذه الدرجة من الهشاشة. ولو كانوا كذلك، لكان الله قد انتظر حتى نتقدم أكثر في عملية النضوج قبل أن يعطيهم لنا؛ لكنه لم يفعل ذلك.[٥]

كمؤمنين نحتاج أن نثق في الله، ونَدع بعض المسؤولية تقع عليه هو. هذا لا يعني أننا نصبح متعجرفين، ونرفض أن نشارك بكل ذواتنا كآباء وأمهات بأقصى ما تتحمَّل قدراتنا. لكن هذا يعني أن لدينا مكانًا لنرتاح

فيه: الثقة في عناية الله وفي كفاية المسيح. كلنا نقصِّر كوالدين، لكن الرب يسوع يعدنا بأن يعوِّض نقائصنا. تُرى أين ستجد نفسك في حالة أكثر أمانًا؟ إذا توقعنا من أنفسنا أن نكون كاملين، سنشعر بالإحباط إلى الأبد- وبشكل غير مباشر سنضع حكمة الله وقصده النهائي لحياتنا في موضع الشك.

(٤) الشعور بالذنب يمكن أن يعلِّمنا أن نحب الرحمة

إحدى العبارات المفضلة عندي للتأمل في الكتاب المقدَّس هي ميخا ٦: ٨، حيث توصينا كلمة الله بأن "نحب الرحمة". لا يخبرنا ميخا بأن "نُظهر" الرحمة فقط، أو "ندرب" أنفسنا على الرحمة؛ لكنه يخبرنا بضرورة أن نقع في حب الرحمة!

الكلمة العبرية المستخدمة للتعبير عن هذا الحب تُستخدم لتصف حب الزوج تجاه زوجته، وتظهر كثيرًا في سفر نشيد الأنشاد. أن "تحب" الرحمة يعني أن تكون مفتونًا بالرحمة. عندما تحب شخصًا، أنت تتحدث عن هذا الشخص. والأب أو الأم الذي يحب الرحمة يشعر بالامتنان الشديد تجاه الرحمة التي أظهرها الله له؛ لدرجة أنه يذكرها كثيرًا للآخرين. مثل هذا الأب أو الأم يعتز بالرحمة جدًا.. مجرد التفكير فيها يمنح الدفء لقلبه، ويرسم ابتسامة على وجهه. الشخص الذي يحب الرحمة فعلاً سيكون لديه انبهار واندهاش الأطفال: "لقد أظهر الله تجاهي الرحمة!"

هؤلاء الأشخاص الذين يحبون الرحمة لا يشكرون فقط على الرحمة التي قبلوها؛ الأكثر من ذلك، مَنْ يحبون الرحمة يكونون شغوفين أيضًا لإظهارها لآخرين. ومثل الله، يحبون أن يغفروا، ويتحمسون للغفران. لن تضطر إلى إقناعهم بإظهار الرحمة؛ لأنهم يحبون إظهارها.. الرحمة هي المبدأ الحاكم لحياتهم.

ما علاقة هذا بمشاعر الذنب؟ التأمل في الطبيعة الرائعة للرحمة قادني إلى حقيقة أذهلتني: يستطيع الله أن يعمِّد شعوري بالذنب، لأنه بدون هذا الشعور لن يكون هناك رحمة! يمثل الذنب حقيقة مرعبة، لكن الرحمة في روعتها أكثر من الذنب في رعبه.. «الرحمة تفتخر على الحكم» (يعقوب ٢: ١٣). بدون الاعتراف بذنبنا لن نستشعر أبدًا الاحتياج للرحمة، وبالتالي لن نقدِّر هذه العطية المجيدة من الله. وبدون ذنب الآخرين، لن نكون قادرين أبدًا على تطبيق الرحمة عليهم. عندما نواجه حقيقة الذنب وجهًا لوجه، وبدون ارتجاف أو إحجام، فإننا نفتح ذواتنا على الحقيقة الأبرع جمالاً لرحمة الله.

ماذا يعني هذا عمليًا؟ حوِّل مشاعر الذنب إلى دعوة للعبادة! اعترف بذنبك، ثم اشكر الله لأنه دبَّر دواءً لذنبك. اعترف أنك مُقصِّر كأب أو أم، لكن بعد ذلك اصرف طاقتك في عبادة الله الذي يغفر والذي سيُظهر الرحمة لك في إخفاقاتك، ثم طبِّق نفس هذه الرحمة على أبنائك ووالديك أيضًا. هل يمكن أن تقبل أن والديك لم يكونا كاملين؟ وأن لوالديك نقائص؟ وأن والديك، بسبب التشتت والإجهاد والتزاماتهم الكثيرة والدائمة، لم يكونا دائمًا في أفضل حالاتهما؟

قد يبدو الأمر جنونيًا، لكن استخدام الذنب كدعوة للعبادة يمكن أن يحوِّل مشاعر الذنب لدى الوالدين إلى مسار نحو الحميمية مع الله.

(٥) الشعور بالذنب لديه "أجندة خفية" إيجابية

أخبرتُ مجموعة من الرجال أنني كنت أتمنى أن أبدأ التربية الآن، وأنا في عمر الواحد والأربعين عامًا. أشعر في هذه المرحلة أنني أكثر نضجًا، وأكثر استقرارًا في مسيرتي المهنية، ولديّ فكرة أفضل للبدء في التربية الآن أكثر من وقت ولادة ابنتي وأنا في عمر الخامسة والعشرين.

جوهر الأمر هو: ما الذي ساعدني لأكون أكثر نضوجًا؟ ما الذي أعطاني هذه الفكرة الأفضل؟ ما الذي طوَّر من شخصيتي على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية؟

الإجابة: تربية أبنائي!

ما كنتُ لأصير الرجل الذي أنا عليه الآن لولا تربيتي لآليسون وجراهام وكيلسي. هذا لا يعني أنني وصلت إلى قمة النضج والحكمة، لكني الآن أكثر نضوجًا، نعم، وأكثر حكمة عمّا كنت شابًا في الخامسة والعشرين. من المؤكد أن الله قادر على إنضاج النفوس بطرق متنوعة، لكن في حياتي الشخصية وفرت التربية لي مسارًا رئيسيًا للبناء الروحي.

نعم، أخفقت كثيرًا في مسيرة التربية- مرات ومرات. لم أكن بالذكاء الكافي، والاهتمام الكافي، والحساسية الكافية. ظللتُ متمركزًا حول نفسي بإفراط.. أحيانًا كنتُ أشعر ببساطة أنني في غاية الإجهاد، أو أفتقر إلى النضج تمامًا.

لكن حقيقة بسيطة ساعدتني لأواجه ذنبي.. لقد غيَّر الله المفاهيم لديَّ رأسًا على عقب عندما وضع هذه الفكرة في رأسي: الله يهتم بنضوجي بقدر ما يهتم بنضوج آليسون وجراهام وكيلسي. من منظوري أريد أن أضحي من أجل أطفالي، وأضعهم أولاً في ترتيب أولوياتي، وأجعل احتياجاتهم أهم من احتياجاتي. لكن من منظور الله، يريد الرب لعملية التربية أن تغيِّرنا جميعًا- بما فيهم أنا وأنت.

لا تفكّر أن الله غير مهتم إلا باحتياج أبنائنا إلى البناء روحيًا، بل هو يعمل فينا كُلنا. كوالدين علينا أن نضحي ونُظهر نضوجًا أعظم، ولكن في عيني الله الجميع يقف على خط واحد عند الصليب، وهو يريدنا جميعًا أن ننضج لنصير أكثر شبهًا به.

في الواقع هذا هو "الذهب الذي يغلِّف الذنب"، وهذه هي "الأجندة

الخفية" له في التربية. الله يهتم بك لدرجة تجعله يخاطر بأن يتركك تربي واحدًا أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر من الأبناء الغاليين، ويعرف مسبقًا أنك سترتكب أخطاءً، ويعرف من البداية أنك لن تكون أبًا أو أمًا كاملاً.. لكنه غيور جدًا تجاه نموك؛ لدرجة تجعله مستعدًا لهذه المخاطرة. الكتاب المقدَّس يذكر بوضوح كيف يحرس الرب هؤلاء الصغار بغيرة قوية؛ ومع ذلك فهو يدعك تعتني ببعض منهم!

رأيت هذا من منظور آخر عندما اصطحبت ابنتي وصديقتها لورا في رحلة عمل إلى أورلاندو (كما ذكرت سابقًا). كنا معًا لمدة ستة أيام، وأتذكر أنني اعتبرت هذا أعلى تقدير من والدي «لورا» عندما ائتمنني على طفلتهما الصغيرة صاحبة العشر سنوات طوال هذه الفترة.

الله يأتمنك على واحد أو أكثر من أبنائه على الأقل لمدة ثماني عشرة سنة.

عندما ننظر إلى التربية بهذه الطريقة، تعطينا فهمًا أفضل، بدلاً من أن تولِّد الشعور بالذنب. لقد خلق الله منظومة الأسرة، ومن خلالها يستطيع أن يشكِّل ويجمِّل كل واحد فينا، بما في ذلك الأب والأم. نحن ندخل هذه المنظومة كأشخاص غير كاملين، ونخطئ في حق أحدنا الآخر من يوم لآخر؛ ومع ذلك عندما نربت على أكتاف بعضنا البعض، ونتعلَّم أن نطلب الغفران ونقدمه، سنخرج كلنا أكثر غنىً بالاشتراك في هذه العملية المؤلمة أحيانًا.

الله يعشق أطفالك، لكنه مفتون بك أنت أيضًا. أنت ابنه العزيز جدًا على قلبه، وأنتِ ابنته المحبوبة جدًا؛ وهو يهتم جدًا برعايتك ونموك الروحي، ويرى أطفالك بمثابة معلِّمين وأنبياء مهمين لتحقيق هذه الغاية.

ومن ثَم ماذا يمكننا أن نقول؟ الشعور بالذنب له مكان. عندما نقصِّر، يجب أن نشعر بالذنب؛ لكن الله عنده الدواء! عندما ننظر إلى الذنب بدون

رؤية الدواء الإلهي فهذا أمر بقدر سخافة القلق بشأن فيروس شلل الأطفال بدون التفكير في التطعيمات التي استخدمها الأطباء في القضاء على هذا الفيروس. إنَّ مشاعر الذنب المبررة، أو غير المبررة، يمكن أن تُحبطنا وتُضعفنا وتُعجزنا؛ لكن الذنب بعد غفرانه وتعميده وحتى تقديسه بعمل المسيح على الصليب يمكن أن يحفزنا ويشجعنا ويحافظ على تركيزنا. بهذا المنظور يمكن للذنب أن يكون خادمًا حقيقيًا لنا بينما نقبل المهمة المقدَّسة للتربية.

أبوان غير كاملين

كان هناك أبٌ يتبع نفس الروتين كل مساء: يذهب إلى المطبخ، ويفتح الخزانة (الدولاب)، ويُخرج كوبًا.[٦] ثم يتمشى إلى جزء آخر، ويُخرج إناء مليئًا بالبسكويت، ويُخرج ثلاث قطع أو أكثر، ويضعها في طبق. ثم يذهب إلى الثلاجة، ويُخرج الحليب، ويصب لنفسه كوبًا كبيرًا. ثم بعد ذلك يدخل إلى غرفة المعيشة، ويستمتع باللبن وقطع البسكويت بينما يجلس على كرسيه المفضل.

في إحدى الأمسيات، بينما كان متوجهًا إلى المطبخ للقيام بطقسه الليلي، لاحظ الأب ابنه ذا الثلاث سنوات وهو يدخل المطبخ أمامه. كان على وجه الصبي نظرة إصرار لفعل شيء ما. وبدلاً من التحرك نحو الصبي، قرر الأب أن يبقى متخفيًا بحيث يشاهد ما أراد ابنه أن يفعله.

سحب الصبي عدة أدراج في الخزانة (الدولاب) ليستخدمها كدرجات سُلَّم يصعد عليها ليصل إلى سطح المطبخ- أمر كان قد مُنع من فعله. ثم مشى على سطح المطبخ (وهو أمر آخر كان قد مُنع من فعله)، وفتح باب الجزء العلوي من دولاب المطبخ، ومَدَّ يده وسحب كوبًا زجاجيًا، بينما أوقع بعض الأكواب الأخرى في سبيل هذا. ثم وضع الصبي الصغير الكوب على سطح المطبخ، وقفز إلى أسفل. ثم أخذ الكوب، ووضعه على

أرضية المطبخ. بعد ذلك توجه إلى الثلاجة وأخرج اللبن، وصبه في الكوب. وكان تدفق الحليب أقوى من يديه الصغيرتين؛ لذا فاض من الكوب. لكنَّ الصبي الصغير مسح الحليب المسكوب بقميصه.

ثم ترك كوب الحليب، ومشى إلى جزء آخر من خزانة المطبخ، وسحب إناء قطع البسكويت.. وكان هذا محظورًا بشدة؛ فقد كان الابن يعرف أنه غير مسموح له بأخذ الحلوى بدون استئذان. لكنه مَدّ يده وأخذ من الإناء بعض القطع، ثم أعاده ومسح الفتات الساقط بقميصه المبتل بالحليب.

تقدَّم الأب ليعترض طريق ابنه، فإذ به يستقبل تحية بابتسامة عريضة: "إليك البسكويت المفضل لك يا بابا. أنا أحبك."

في هذه القصة أريدك أن تضع نفسك في مكان الابن، وليس مكان الأب. نحن هذا الطفل الصغير.. نحن نحاول أن نخدم أبانا السماوي بينما نترك فوضى عارمة وراءنا. لا نستطيع أن نرقى للمستوى الذي نوده؛ لذا نفعل خطوات بديلة لنصل إلى المستوى المطلوب. نوقع العديد من الأكواب، ونسكب الحليب بينما نحاول تجهيز المشروب. وبينما تعوزنا الحكمة جدًا، نبتكر فكرة عظيمة لمسح الفوضى التي نصنعها باستخدام ملابسنا بدلاً من استخدام المنشفة. لكن أي أب لا يتحرك قلبه لمثل هذا العرض والرغبة في الخدمة، مهما كانت الفوضى التي نتجت عنه؟!

لسنا أفضل الآباء والأمهات، حتى الآن.. ليس لدينا كل الحكمة التي نحتاجها، ولا نفهم كيف نضع الأمور في أماكنها معًا. نرتكب أخطاءً، ونترك فوضى عارمة، وقد نفعل كل شيء بطريقة خاطئة- لكن الله ينظر إلينا بعيني أب مملوئتين بالفرح. ما نراه ضعفًا، يراه الله تواضعًا. ما نراه فوضى، يراه الله نية صادقة. ما نراه إخفاقًا، يراه الله حافزًا قويًا.

وهو يبتسم، ويأخذنا بين ذراعيه، ويضحك ضحكة أب مبتهج.

"توقفتُ منذ سنوات عديدة عن محاولة تدبير الأمور بالطريقة التي أريدها؛ وبدأت أصغي لله، وأدعه هو يدبّر كل شيء بطريقته. وإذا فعل رجل مثلك هذا الشيء، ستجد الإجابات، بدلاً من إنفاق حياتك وأنت ترزح تحت عبء المشكلات التي صنعتها لنفسك."

– فرانك بوكمان

«اسمعوا وافهموا.»

– يسوع، متى ١٥: ١٠

الفصل الرابع

ضبط الموجة على السماء

كيف تعلِّمنا تربية الأبناء
أن نصغي إلى الله

ابنتي الصغرى، كيلسي، تتحدث كثيرًا. سألتها إحدى صديقاتها مرةً: "كيلسي، ألا تتوقفين أبدًا عن الكلام؟"

فأجابتها: "لماذا يُفترض بي أن أتوقف؟ التحدُّث هو موهبتي الروحيَّة!"

كما تستطيع أن تفعل ذلك بسرعة.. مرةً سألتني بسرعة خيالية: "ألا-تظن-أن-وظيفة-المذيعة-في-البرامج-الحوارية-هي وظيفة مناسبة لي؟ لأنهم يتكلمون ويتكلمون، هذا كل ما يفعلونه، وأنا سأكون متميزة في هذا."

منذ سنوات سألتني: "لماذا يسألني الجميع دائمًا: هل يؤلمني فمي؟"

وهذا حدث بعد أن قامت صديقة لي بتوصيل كيلسي إلى البيت من الكنيسة. لن أنسى أبدًا بعد أن فتحت الباب لها؛ وإذ بنظرة الإعياء على وجه صديقتنا بعد أن تجاوزت قدرات كيلسي قدرتها على التحمُّل.

قالت صديقتنا: "ياه"، وهذا كل ما استطاعت أن تقوله، مع نظرة من عينيها تفضح إرهاقها.

ذات مرة اتصلتُ بكيلسي تليفونيًا خلال رحلة.. فعندما أشعر بالتعب، أحب أن أتحدث مع كيلسي بشكل خاص؛ لأنها تفعل كل المطلوب تقريبًا. انقطعت المكالمة لضعف الإشارة على تليفوني المحمول؛ لذا عاودت الاتصال مباشرة، لكن وجدت تليفونها مشغولاً. انتظرت لبضع دقائق، واتصلت مرة ثانية، ولم أستطع الوصول إليها. لم تدرك كيلسي ما حدث حتى جاءت "امرأة أخرى" (حسب وصفها) وقالت: "إذا أردت أن تجري اتصالاً، من فضلك ضع السماعة، وحاول الاتصال مرة أخرى."

صرخت كيلسي في التليفون: "بابا؟ هل تسمعني؟"

عندما أغلقت الخط أخيرًا واتصلت أنا مرة أخرى، سألتني كيلسي: "الآن ما هو آخر شيء سمعته مني؟"

وعندما أخبرتها، حزنت، وقالت: "هذا كان منذ ٥ دقائق! لا أستطيع تذكُّر ما قلته، لكن لديّ الكثير لأقوله..."

ذات مرة فعلتُ شيئًا سأندم عليه كثيرًا.. كنّا نسير بالسيارة كعائلة، وجعلتنا كيلسي في صحبة دردشتها، لكن بعد عدد من الساعات في هذه الصحبة أصبح من الصعب الاستمرار هكذا. كان ابني قد بدأ يشعر بالتعب، وكنتُ أحاول أن أركّز على الوصول إلى وجهتنا، كما استطعت أن أرى ابني وقد بدأ يفقد صبره.

فهمست له: "يا جراهام، كل ما عليك أن تفعله هو أن تقول من وقت لآخر: 'نعم.. صحيح.. نعم' كل بضع دقائق، ولن تنتبه هي لشيء."

فيما بعد اكتشفت كيلسي ما قلته، وشعرت بضيق شديد- ولديها حق. أمَّا أنا فشعرتُ بالندم الشديد، وطلبتُ منها أن تسامحني، وتعتبر ذلك ذلة أخرى من أبيها.

عندما تتواجد حول الأطفال -وبالأخص البعض منهم أكثر من غيرهم- فهذا يدعونا لنتعلَّم الإصغاء من جديد. بعض الناس يعتقدون أن الدِّين عبارة عن مجموعة من النواهي والمسموحات، لكني أعتقد أن العلاقة مع الله أول ما يميزها هو الإصغاء. خلال تجلي المسيح بشكل رائع على الجبل، وبعد أن نال كلٌ من بطرس ويعقوب ويوحنا لمحةً مباشرة عن طبيعة يسوع الحقيقية، نبَّه الآب السماوي هؤلاء الثلاثة المختارين بقوله: «*هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا!*» (مرقس ٩: ٧).

الابن يشبه أباه. فالإصغاء فكرة رئيسية متكررة في تعاليم المسيح:

- «اسمعوا وافهموا» (متى ١٥: ١٠).
- «مَنْ له أذنان للسمع، فليسمع» (مرقس ٤: ٩).
- «ثم دعا كُلَّ الجمع وقال لهم: اسمعوا مني كلكم وافهموا» (مرقس ٧: ١٤).
- «فانظروا كيف تسمعون» (لوقا ٨: ١٨).
- «ضعوا أنتم هذا الكلام في آذانكم» (لوقا ٩: ٤٤).
- «خرافي تسمع صوتي» (يوحنا ١٠: ٢٧).

ما الذي يميِّز الشخص المؤمن عن غير المؤمن، أو عن الذين لا يفسحون مكانًا لله في حياتهم؟ المؤمن يصغي لله، بينما العالم يتجاهل الله. أحيانًا نقلل من أهمية الإصغاء، ونُصر على أن الإصغاء بمفرده لا يكفي؛ فالطاعة في النهاية هي الأهم. لكن بكل صراحة عندما يتم تجاهلك أنت تشعر بالإهانة بشكل واضح. نحن نعرف هذا كآباء وأمهات.. هل هناك

شيء يزعجنا أكثر من التحدث لأطفالنا بينما لا ينتبهون إلينا (بالرغم من اعترافي بأنني فعلت نفس الشيء مع ابنتي)؟

لايزال الله يعمل في عالمنا- وهو يتحدث لنا إذا كنا نصغي له:

- «إن السيد الرب لا يصنع أمرًا إلا وهو يُعلن سره لعبيده الأنبياء» (عاموس ٣: ٧).
- «أُدعني فأجيبك وأخبرك بعظائم وعوائص لم تعرفها» (إرميا ٣٣: ٣).
- «فإنه هوذا الذي صنع الجبال وخلق الريح وأخبر الإنسان ما هو فكره... يهوه إله الجنود اسمه» (عاموس ٤: ١٣).
- «سِرُّ الرب لخائفيه» (مزمور ٢٥: ١٤).
- «كل مَنْ سمع من الآب وتعلَّم يُقبل إليَّ» (يوحنا ٦: ٤٥).
- «وكل بنيك تلاميذ الرب» (إشعياء ٥٤: ١٣).

كثيرون منّا لا يتمردون ضد الله بشكل واضح ومباشر؛ فنحن لا نتحداه بشكل واضح، ولا نزدري باسمه.. لكننا نتجاهله كثيرًا- فنحن ننشغل لدرجة تجعلنا لا نسمعه. وهذا يؤلمه بقدر ما يؤلمه رفضنا لإطاعته. يمكننا أن نُسمي هذه السقطة "الإلحاد العملي".. نحن نقول إننا نؤمن بالله، لكن ما فائدة اعتقادنا هذا إذا لم يُترجم في حياتنا اليومية؟ يستطيع العالم أن يستمر بدون ما أسميه في كتاب آخر "المسيحية الخالية من المسيح".

أخطأ بنو إسرائيل بهذه الطريقة في زمن يشوع.. فبعد زيارة من الجبعونيين المخادعين (الذين خدعوا بني إسرائيل لعمل معاهدة معهم، وأقنعوهم بأنهم لا يعيشون في أرض الموعد التي أمر الله شعب إسرائيل بتملكها)، «أخذ الرجال من زادهم، ومن فم الرب لم يسألوا» (يشوع ٩: ١٤). ومثل أب مغرور أو أم متعجرفة نظروا إلى الإشارات الواضحة.. يقول الجبعونيون إنهم أتوا من مكان بعيد، ومظهرهم يبدو كما لو كانوا

مسافرين لمسافات طويلة؛ ففكروا بكبرياء في نفوسهم: "هذا أمر سهل، بمقدورنا التعامل معه. سنوقِّع المعاهدة."

أشعر بالخجل وأنا أعترف أنني كأب فعلت نفس الشيء مرات كثيرة.. تخدعني المظاهر الخارجية. موضوع لا يبدو خطيرًا، أو لا يبدو معقدًا بما يكفي لنُزعج الله به، وبالتالي أصنع خيارات حمقاء مبنية على الجهل. نحن نميل إلى الكبرياء بطبيعتنا، هذا الكبرياء يظل يخبرنا بأننا لا نحتاج إلى تعامل الله مع الموقف الذي نواجهه. لكن الإصغاء إلى الله يضع تواضعنا في اختبار حقيقي.. المتواضعون يصغون، بينما المتكبرون لا يبدو أن لديهم وقتًا لينتظروا الله.

لهذا السبب أرى أن الإصغاء يمثل مكونًا أساسيًا في التربية والحياة الروحية المسيحية. الإصغاء يغيِّر طبيعة إيماننا، ويشكل توجّهاتنا تجاه ما نفعل، وينقلنا من مجرد الطاعة المبنية على إيمان يتمحور حول البشر، أو حول مبادئ عامة، إلى التعاون مع الله بينما يتولى أمور هذا العالم ويتفاعل معها. الإصغاء وسيلة يمكننا بها "ضبط الموجة على السماء"، واستدعاء حضور الله في حياتنا.

معونة عملية

الإصغاء إلى الله يجعل التربية مقدسة.

أصبحت «كاثرين مارشال» أمًا أرملة عندما مات زوجها «بيتر مارشال» دون سابق إنذار. كان بيتر عملاقًا روحيًا، ومؤلفًا واسع الشهرة، وراعي الكنيسة الملحقة بمجلس الشيوخ الأمريكي.. وقد ترك بوفاته فراغًا كبيرًا في حياة ابنه، فراغًا من المستحيل تسديده. وجدت كاثرين عزاءً في الإصغاء إلى الله بشكل يومي: "في حالتي أفضل الاستجابات للشعور بقلة الحيلة والإحباط تأتي من خلال وقت هادئ في كل صباح أصلي فيه

طالبةً إرشاد الله لابني."[1] لم يعد لكاثرين زوج تستطيع أن تناقش معه مشكلات نضوج ابنها، لكن كان لديها إله- إله يتكلَّم.

لقد أثَّر الإصغاء إلى الله بعمق على عائلتي الخاصة أيضًا. بينما كنتُ أكتب هذا الكتاب، قضيتُ وقتًا وأنا أصغي إلى الله. في الصباح الباكر لأحد الأيام، استشعرتُ بوضوح أنه عليَّ أن أتوقف عن العمل لتوصيل آليسون إلى موعد خاص بها- التزام يتطلب أربع ساعات. تفعل زوجتي ليزا هذا الأمر في تسعين بالمائة من الوقت، لكن يبدو أن الله كان مُصرًا أن أتولى أنا الأمر هذه المرة.

ذكرت هذا لليزا على الإفطار، وبدت متضجرة بشدة من هذا الحديث، وهو ما أثار فيَّ ضرورة مراجعة الأمر. في النهاية كان لديّ الكثير من العمل لأنجزه، وإذا كانت ليزا لا تهتم بالأمر... لكن في نهاية اليوم، أصبحت ليزا مجهدة أكثر فأكثر، حتى أنها أخذت قيلولة (وهو شيء نادرًا ما تفعله). ثم جاءها اتصال من أختها التي قررت أن تزورنا في اليوم التالي. لم يسبق أن زارنا أحد من إخوة ليزا في منزلنا الجديد؛ لذا عرفت أن ليزا ستحتاج وقتًا كبيرًا في التنظيف والترتيب.

الفكرة هي أننا لم نعرف ليزا أو أنا مدى الإجهاد الذي تعاني منه؛ لكن الله كان يعرف. لم نعرف أن أختها ستتصل وأنها ستود أن تزورنا؛ لكن الله كان يعرف. وبالإصغاء إلى الله استطعنا ترتيب يومنا لكي نستطيع أن نستعد فعليًا لمستقبل غير معروف لنا (لكنه معروف لله تمامًا.. هذا الإله الذي يعتني بزوجتي، وأراد أن يستخدمني كأداة لإتمام قصده). أعترف أن هذا مثال عادي جدًا؛ وليس حدثًا دراميًا، أو عملاً إعجازيًا.. لكن هذه التوجيهات البسيطة يمكن أن تصنع فرقًا كبيرًا خلال مسيرة العمر. ومن المؤكد أنها يمكن أن تحدث مرات كثيرة لكل المؤمنين، إذا قضينا الوقت كل يوم للإصغاء إلى الله الذي يتكلَّم.

أنا أتساءل: كيف عسى أن يتغيّر زواجنا إذا تعلَّمنا أن نصغي إلى الله نيابةً عن شريك حياتنا؟ تُرى كيف سيشعر الأزواج إذا علمت الزوجة من فم الله أحوال اليوم الذي يمر به زوجها، وبالتالي تقوم بالإعدادات المناسبة لعودته إلى البيت؟ وكيف يمكن للزوجة أن ترتفع معنوياتها وتشعر بالقوة إذا أنفق زوجها بعض الوقت من يومه وهو يسأل: "يارب، ماذا يجب أن أفعل اليوم لأحب زوجتي بشكل أفضل؟" كيف سيجد الصغار قوةً وتحذيرًا وإرشادًا وإلهامًا إذا استمد الآباء والأمهات حكمةً من الله الذي خلق أبناءنا.. من الله الذي يعرف أفكارهم، من الله الذي يعرف صراعاتهم الداخلية، ويسمع كل حوار لهم مع أصدقائهم؟

حياة مُلهَمة

الإصغاء الحقيقي يمثل تدريبًا إيجابيًا، والفشل في الإصغاء لا يُعتبر خطية بقدر ما يُعتبر اختيارًا بأن تعيش حياة مسيحية بلا مصدر للقوة أو الإلهام. ومثلما علينا أن نختار أن نسمع ما يقوله أبناؤنا، علينا أن نختار أن نسمع تلك الهمسات الهادئة للحب والإرشاد الإلهي.

بالطبع التحدي الأعظم هو أن الإصغاء لأبنائنا وإلهنا ليس بالأمر السهل. أحيانًا نسيء فهم أبنائنا، وأحيانًا سنخلط بين مخاوفنا الخاصة وصوت الله. لكن حقيقة أننا سامعون غير كاملين لا تبرر توقفنا عن التدرُّب على الإصغاء، بل هذا ببساطة يعني أننا بحاجة إلى اكتساب عوامل حماية لعملية الإصغاء. نحن نعرف على سبيل المثال أن الله لن يتحدث بشيء يتناقض مع كلمته، ونعرف أنه في معظم الحالات يتبع الله المنطق السليم. ونعرف أن الله قد أعطانا كنيسته -والمؤمنين الآخرين- ليساعدنا على أن نميِّز كلامه.

الله شغوف أن يتحدث، ويستطيع أن يصل إلينا بالرغم من

نقائصنا. وطالما بقينا مصغين متضعين -مستعدين لأن نُخضع سمعنا لتقويمه الحكيم- فإن التدرب على الإصغاء يمكن أن يغيِّر حياتنا وعائلاتنا وعلاقاتنا.

أحد أكثر أوقاتي مع الرب حميمية تحدث عندما يكشف لي الله بعض التحديات في حياة أحد أبنائي، ويحثني على تسديد احتياج معين أو مواجهة أمر ما. في هذه الفترات أشعر أنني شريك لله في العمل، كما لو كُنّا نشترك معًا لنكمِّل عملاً ديناميكيًا في نفس بشرية.

الأهم من ذلك ما يحصل عليه المتلقي. أتذكّر مرة أنني سألت رجلاً سؤالاً جعله يندهش، ويُلح عليَّ: "لماذا سألتني هذا السؤال؟"

"حسنًا، لقد صليتُ اليوم من أجل لقائنا، وظننت أن هذا أمر يجب أن أذكره."

فقال لي: "هذا بالضبط ما كنت أتشاجر فيه مع زوجتي الأسبوعين الماضيين!" وهذا قادنا إلى حوار طويل، لكنه كان في سياق أن هذا الرجل بدأ يفهم أن الله يرى ما في قلبه ويدرك احتياجاته. في النهاية، هذه الحقيقة وحدها تجاوزت بكثير أية نصيحة يمكن أن أقدِّمها له.

إذا سألنا أبانا السماوي -وبنفس القدر من الأهمية انتظرنا استجابته بصبر- فإن الله سيبلغنا في مرات كثيرة بما يجري في قلوب أطفالنا. إن خوفي وعدم نضوجي عادةً ما يجعلاني أركز أكثر على أشياء في حياة أبنائي لا يهتم بها الله كثيرًا، بينما أُهمل الأشياء التي هي الشغل الشاغل لله. بالنسبة لي، الإصغاء ساعدني لأصحح أمورًا في غاية الأهمية.

أي نوع من الحفاضات هذا؟

من الأشياء التي أذهلتني كأب شاب هي قدرة ليزا على سماع الاختلاف في نوبات بكاء آليسون.. فكانت تستطيع أن تميِّز بوضوح بين

بكاء "الحفاض المبتل"، وبكاء "أنا جائعة، أطعميني الآن وإلا سأموت"، وبكاء "أنا أتوجع". ويُحسب لزوجتي أنها استفادت من هذه الموهبة الخاصة إلى أقصى درجة خلال تلك الليالي الطويلة، عندما كان عويل وبكاء طفل رضيع يخترق نومنا الهادئ. حاولت كثيرًا أن أجرب ما يقوله الأزواج عادة: "حبيبتي، الطفل يحتاج إلى رضاعة، وليس لديّ ثديان، لذا أعتقد أنكِ مَنْ يجب أن ينهض ويهتم بالطفل."

وكانت ليزا تُصرُّ: "هذا ليس بكاء بسبب الجوع. هذا البكاء بسبب الحفاض المتسخ، وهذا لا يحتاج إلى ثديين. محاولة جيدة!"

فأنهض متشككًا لأرى بنفسي، وبكل تأكيد تحيطني هذه الرائحة الزكية بمجرد أن أقترب من سريره. لم تخطئ ليزا مرةً واحدة! وبعد تغيير الحفاض، كان رضيعنا يستغرق في النوم مباشرة.

في إحدى المرات كان رأي طبيبنا الخاص أن ليزا تمارس الإصغاء بإفراط، فشرح قائلاً: "الرضع يحتاجون إلى تعلُّم التواصل، وإذا كنتِ تتوقعين مسبقًا كل شيء دائمًا، فهذا قد يعوقهم فعلاً عن تعلُّم كيف يتواصلون بأكثر فاعلية." لكن الله ابتكر وسيلة فعالة ليجعل الأب/الأم البارع في الإصغاء للرضع يتواضع.. إنها تُسمى المراهقة. خلال هذه المرحلة، سيكون عليك أن تتعلَّم لغة جديدة تمامًا. التأوهات، والأنات، والنظرات الجامدة المحملقة، ونوبات التنفس المتوتر- كل هذه السمات تمثل السعي الدؤوب للمراهق ليجعل أبويه يخمنان طوال الوقت ماذا يجري بداخله. تحدثت إحدى الأمهات معي عن أنها سألت ابنتها البالغة من العمر ١٥ عامًا هل انتهت من واجباتها المدرسية أم لا. يبدو هذا سؤالاً بسيطًا، لكنه جعل الفتاة تنفجر غاضبة، وتجري باكية إلى غرفتها.

إذا أراد أي أب أو أم أن يتواصل مع طفله، سيكون عليه أن يتعلَّم

كيف يصغي، ويلتقط الإشارات اللفظية وغير اللفظية. ستكتشف الأم سريعًا أن الطفل الثاني يتحدث بصوت مختلف عن الطفل الأول أو الثالث؛ وسيكون عليها أن تضبط مهارات الإصغاء لديها لتتوافق مع المتكلم بشكل دقيق. بعض الأطفال يكونون هادئين ومذعنين جدًا لدرجة تحتم علينا أن نبادر نحن بالاقتراب منهم لنميِّز ماذا يريدون أن يقولوه؛ بينما آخرون يتحدثون بلا تحفظ. ليس من المبالغة أن نقول إن نصف التربية يتلخص (أو يجب أن) في الإصغاء.

ومع ذلك نحن نميل إلى أن نيأس من الإصغاء عندما يجعله أطفالنا أمرًا صعبًا وعصيبًا. ولأن الإصغاء اختيار إيجابي نابع من الحب، فإن أهم أعدائه هما اللامبالاة والمشغولية. معظمنا لن نؤذي أطفالنا متعمدين، لكننا جميعًا نميل في بعض الأوقات إلى التوقف عن الإصغاء لهم، حتى وإن كان الإصغاء هو القوة الدافعة للحب. دعني أكون صريحًا معك: أن تتوقف عن الإصغاء يعني أن تتوقف عن الحب. الحب لا يتعلق بما تفعله، وإنما يتحدد بتحركك نحو الآخر. وعكس الحب ليس الكراهية، بل اللامبالاة.

الرائع أن هذا التدرُّب على الإصغاء، مع أهميته في فن التربية، يوفر تدريبًا روحيًا هامًا لممارسة حياة الصلاة. نعم، هذا صحيح. إن تربية الصغار يمكن أن تعلِّمنا كيف نصلي.

الدخول إلى القلعة الداخلية

عندما كان ابني جراهام صغيرًا تحدثنا يومًا عن السماء، وأخبرته بينما جاء ليقترب مني: "ليس هناك مكان أفضل يا جراهام.. لا بكاء، لا مرض، لا مضايقات من أحد. الفتيات لا يوجد في شعرهن قمل، ولا وجود لوحوش تحت السرير- بالإضافة إلى أننا سنكون كلنا معًا!"

فهز جراهام رأسه، وقال: "لا أطيق الانتظار حتى أجلس في حِضن الله- وحِضنك أنت أيضًا."

لا يوجد مكان أكثر أمانًا في العالم، روحيًا، من حِضن الأب أو الأم. خُذ أكثر الأطفال رعبًا، أو خُذ فتاة صغيرة جُرحت ركبتها، أو صبيًا يتعرض لمضايقات مستمرة من أحد زملائه.. دع ضربات قلوبهم ترتفع إلى مائة ضربة في الدقيقة، ودع دموعهم تنهمر من عيونهم.. ثم ضع الطفل في حِضن أبيه أو أمه الذي يحيطه من كل الجوانب.. فجأة ستهبط ضربات القلب إلى النصف، وسوف يتوقف انهمار الدموع؛ وسيشعر الطفل بالأمان.

حِضن الأب أو الأم هو أكثر ملاذ آمن، وهو من اختراع الله. حتى نحن ككبار، نضمر سرًا في داخلنا رغبة في أن نطرح أنفسنا في حِضن روحاني- هو حِضن الله. في الواقع أحد أسماء الله في اللغة العبرية يعني "المكان"، وكل المتصوفين عبر العصور سعوا للوصول إلى هذا المكان، الذي يمثل ملاذًا روحيًا هادئًا في عالم لا يتوقف عن الصخب. إن مهمة تربية الأبناء تشير إلى هناك، والإصغاء الروحي الحقيقي يتركز حول التسلق إلى حِضن الله الهادئ والآمن، وسماع كلمات حُبه العذبة، ومديحه، وتأديبه، وتشجيعه.

التغيُّر الأكبر في صلاتي حدث في الأغلب كنتيجة لقراءتي عن شخصين مختلفين: القديسة تريزا من أفيلا، وفرانك بوكمان. كنت أتعامل في الماضي مع الصلاة مثل عدّاء مسافات طويلة في المدرسة الثانوية.. رغبة مستمرة في تحقيق أرقام قياسية جديدة ومسافات أكبر من السابقة. ظننت أنني إذا أردت أن أصبح عدّاء أفضل، عليّ أن أجري ستين ميلاً في الأسبوع بدلاً من خمسين، ثم سبعين وهكذا.

بنفس الطريقة، ظننتُ أنه لكي أحسِّن وقتي في الصلاة، عليّ أن أتلو

صلوات أطول. وبالتالي أردت أن أقضي ساعة، ثم ساعتين، ثم ثلاث ساعات في الصلاة. ثم كان عليَّ أن أقضي الليل بطوله، وكذلك خلوتين للصلاة في نهاية الأسبوع مرتين في السنة.

لم تحدد القديسة تريزا الصلاة بالوقت أو بعدد المرات، وإنما بمقدار حميميتها. وبالرغم أن هذا قد يبدو بديهيًا لكثيرين منكم، لكنّه غيّر مسار الصلاة في حياتي. يرسم كتاب القديسة تريزا "القلعة الداخلية" (The Interior Castle) تقدُّم النفس في مستويات التعلُّق الحميم- بدءًا من صلاة التأمل، والتحرك نحو صلاة التذكُّر، ثم صلاة الهدوء، ثم صلاة الاتحاد، وفي النهاية "القلعة الداخلية"، التي تصفها بأنها "ملء الزيجة الروحيَّة".

جمود طبيعتي الذكورية منعني من الوصول إلا لمرحلة معينة؛ لكني استفدت من امرأة متبصرة علَّمتني كيف أقترب من الله بسلاسة أكثر، وعلَّمتني أن جوهر الصلاة هو التسلق للوصول إلى حِضن الله والتمتع بالراحة فيه. ثم قرأت عددًا من الكتب عن فرانك بوكمان (المتوفي عام ١٩٦١، في نفس سنة مولدي)، والذي أسس حركة قوية تُعرف بـ «إعادة التسليح الأخلاقي»، أو ما يُسمى بـ «مجموعة أكسفورد». كان فرانك بوكمان يحث المؤمنين على قضاء وقت كل يوم في الإصغاء لله لكي يتكلَّم لنا. في عام ١٩٣٥، وفي كلمة أمام عشرة آلاف شخص اجتمعوا بقلعة هامليت بالدانمارك، قدّم بوكمان هذا التصريح:

> نحن نقبل صوت رجل يُحمل عبر المذياع إلى أقصى أقطار الأرض كأمر اعتيادي، فلماذا لا نعتبر كذلك صوت الله الحي كقوة فعّالة وخلاقة في كل بيت وكل عمل وكل برلمان؟...
>
> الروح القدس هو أذكى مصدر للمعلومات في العالم

> اليوم، ولديه إجابة لكل المشكلات. وفي كل مكان يسمح الناس له، سيعلِّمهم كيف يعيشون... الإرشاد الإلهي لابد أن يصبح الخبرة العادية للرجال والنساء العاديين. كل إنسان بمقدوره أن يلتقط الرسالة الإلهية إذا ضبط جهاز استقباله، والمعلومات الدقيقة والكافية والمحددة يمكن أن تأتي من عقل الله إلى عقول الناس.. هذه هي الصلاة العادية.[٢]

ممارسة الإصغاء إلى الله هذه أثرت في أعلى المستويات في كثير من الحكومات، وصنعت تأثيرًا هائلاً في حياة ملايين الأفراد. يصرُّ بوكمان على أن المسيحية تبدأ بالإصغاء.. أعلن بوكمان أمام مجموعة من خمسة وعشرين ألف شخص في برمنجهام (في بريطانيا العظمى) أن "أهم درس يحتاج إليه العالم هو فن الإصغاء إلى الله... لقد أعطى الله للإنسان أذنين وفمًا واحدًا؛ فلماذا لا تصغون بضعف ما تتحدثون؟ هذه إمكانية متاحة يوميًا لكل أحد- أن نصغي إلى الله، ونتعرف على خطته لكل يوم."[٣]

كثيرون منا سيتمتعون بفاعلية أكثر جدًا في خدمتهم إذا فعلوا أقل وأصغوا أكثر.. بكل صراحة هذا الدرس لا أزال أتعلَّمه حتى الآن. كُتبي الخمسة السابقة ربما كان أكثر ما يميزها هو الدراسة، لكن هذا الكتاب -أكثر من أي كتاب آخر- وُلد حرفيًا في الصلاة.. هذه الفصول لم تجتمع معًا حتى جلستُ أمام الله، سائلاً إياه أن يُظهر لي أهم فكرة في كل فصل. إنه تغيير مبهج- وكان يجب أن أتعلَّم هذا من سنين!

نحن نقف على أرض خطرة إذا جعلنا خدمة الله تزحم وقتنا بحيث لا نجد فرصة للإصغاء له. يكتب جوردون سميث في كتابه الرائع «على الطريق» (On the Way) بلغة صريحة: "من غير المعقول أن نظن أن الله

سيعطينا الكثير لنفعله بحيث لا يمكننا أن نقضي معه المزيد من الوقت."[٤] الإصغاء لا ينتقص من خدمتنا، بل يقويها.

في إحدى المرات كنت أتحدث في مؤتمر «الزواج المقدَّس» في منطقة إيست كوست، وكنت قد حاضرت بهذا المحتوى عدة مرات من قبل، لكني أحب أن أصلي مسبقًا لأرى إذا كان الله يريدني أن أصنع بعض التغييرات في المحتوى بما يناسب المستمعين. في هذه المرة ركَّزت -لأول مرة في حياتي- على فكرة أن زيجات المشاركين تمثل شيئًا غاليًا جدًا بالنسبة لله، حتى إذا لم تعد غالية بالنسبة لهم. وظلت كلمة "غالية" تتردد مرة بعد الأخرى.. لم تكن الكلمة موجودة في المذكرات التي دونتها، لكن ببساطة شعرت أن الله أرادني أن أؤكد على هذه الفكرة.

بعد ذلك جاءتني زوجة شابة بدموع في عينيها، وبدأت تقول لي: "ما قلته عن أن زيجاتنا غالية لدى الله..." ثم توقفت، واستجمعت عزيمتها، وأضافت: "اسمي 'غالية'.. لا أستطيع أن أخبرك كم أثَّر هذا فيَّ."

يا لها من "مصادفة"! كم شخصًا قابلته من قبل اسمه "غالي" أو "غالية"؟

لكن هذه هي الفكرة. لم أكن أحاول تحقيق المصادفة، بل كنت أصغي والله يتكلَّم، فأصاب ذلك امرأة واحدة على الأقل على مستوى عميق جدًا.

نفس الشيء كان يحدث مع فرانك بوكمان طوال الوقت.. في إحدى الأمسيات، وهو يمشي في الشارع، فكّر أن يتحدث مع الرجل الذي يمشي أمامه. في البداية تردَّد بوكمان، لكن الله بدا مُصرًا. في النهاية نادى على الرجل قائلاً: "شعرت أنني يجب أن أتحدث إليك. ظننتُ أنك ربما تحتاج إلى شيء."

أجاب الرجل: "فعلاً أنا أحتاج لشيء.. لابد أن الله قد أرسلك إليّ."

كانت أم الرجل تحتضر في المستشفى، وظل إخوته بجوار سريرها، وهو خرج ليتدبر أمره، ولم يكن واثقًا تمامًا ماذا يجب أن يفعل. عاد فرانك معه إلى المستشفى، وقدَّم خدمة قوية. لكن لأن الخدمة كانت نتيجة عمل الإصغاء لم يشعر في نفسه بأي استحقاق. تأثر أحد رؤساء الوزراء في اليابان بإنجازات فرانك، وقال له ذات مرة: "لابد أن تشعر بالفخر الشديد تجاه كل هذا!" فأجاب فرانك: "لا أشعر بهذا على الإطلاق. لم يكن هناك شيء يتعلَّق بي في كل هذا؛ فقد فعل الله كل شيء. أنا فقط أطيع وأفعل ما يقوله هو."[٥]

كذلك الأب أو الأم الذي يصغي إلى الله من أجل سلامة أبنائه سيكتسب نفس مشاعر الاتضاع هذه. في بعض الأحيان كان الله يبلغني بشيء نسيته عن أحد أطفالي؛ وآخر شيء ينتج عن هذه الإعلانات هو أن تجعلني أشعر بالفخر، بل على النقيض أشعر بالاتضاع أنني نسيت ما بدا بعد ذلك واضحًا. الإصغاء يذكِّرني بأنني أعتمد بالكامل على الله في إتمام مهمة التربية، وأنني كنت لأضيع تمامًا بدون إرشاده وحكمته.

أحيانًا يكون الإصغاء مؤلمًا- بطريقة جيدة. لقد وجدت أنه في أحيانٍ كثيرة سيقوِّمني الله من خلال سؤال.. في إحدى المرات كان السؤال كالتالي: "هل ستنفق طاقة عاطفية أكثر هذا الصيف في التعرف على ما يجري في قلب ابنتك المراهقة، أم في تحسين مهاراتك في رياضة الجولف؟" لم يقل "وقتًا"، ولم يقل "مالاً" (أستطيع أن أدافع عن هذين الأمرين)؛ لكن أرادني الله أن أراجع نفسي بشأن ما أركِّز عليه طاقتي العاطفية- ما الشيء الذي وجدت نفسي أفكر فيه وأتحدث عنه؟

من المفارقات العجيبة أنني وجدت هذا التحدي الرقيق مصدر تعزية عظيمة.. أنت تحصل على طمأنينة وارتياح عندما تسير بالثقة أن الله سيخبرك بهدوء عندما تبدأ في الخروج عن المسار. لن تشعر أنك وحيد،

أو بلا حماية، أو بلا إنذار. إنه مكان آمن جدًا، بينما ترتاح في رعاية الله واهتمامه، وتصغي إلى صوته.

صديقتي «آني كارلسون» لديها أربعة أبناء (واحد منهم تبنَّته هي وزوجها)، ولها وجهة نظر رائعة عن هذا الأمر. قالت آني: "عادة ما ننشغل بالبحث عن مشيئة الله في القرارات الحياتية الكبرى، لكننا إذا كنا نراجع أمورنا باستمرار مع الله بشكل يومي فإننا نعتاد على الإصغاء له، ولن نفزع أمام القرارات الكبرى." بكلمات أخرى، نحن نتعلَّم أن نميِّز صوت الله أمام القرارات الحياتية الكبرى بالطلب المستمر لإرشاده في القرارات اليومية عندما نجعل الإصغاء لله جزءًا منتظمًا من حياتنا. إن تربية الصغار تعني أننا نحتاج إلى إرشاد الله يومًا بعد يوم، إن لم يكن ساعة بعد الأخرى!

أكثر من أي شيء آخر، تربية الأطفال تدفعني إلى وضعية الإصغاء. في كبريائي كأب، أشعر بالميل إلى التحدث أكثر من الإصغاء، لكني وجدت أن التحدث بدون إصغاء هي طريقة قبيحة لبناء العلاقات مع الأبناء. ومِن ثَم فإن تربية الصغار قد أعادت تشكيل طريقتي في العلاقات بالكامل، سواء مع الله، أو مع الآخرين: أصغِ، أصغِ، أصغِ!

بالرغم من أننا نحتاج دائمًا أن نشارك احتياجاتنا مع الله، إلا أن المصلي الناضج يجب أن يقضي ضِعف الوقت في الإصغاء والانتظار عنه في التحدث. هل تريد أن تعرف شيئًا بديعًا عن الإصغاء الروحي؟ الله يغيِّر اللغات. أحيانًا يتحدث من خلال الكتاب المقدَّس.. آية واحدة يمكن أن تفتح قلبك، وتشرق بحقها في جوانب حياتك المظلمة، وتهزك بقوة روحية مذهلة. وفي أحيان أخرى، فإن منظر شجرة سيدفعك إلى السجود على ركبتيك، بينما تنهال عليك آلاف العظات دُفعة واحدة من أغصانها وأوراقها. بينما في أوقات أخرى سيُسكتك صمت الله، وسيفعل

عمله على جذورك الروحيَّة. صمت الله يمكن أن يصبح أعلى صوتًا من رعود عاصفة ثلجية بينما يأخذك في شتاء روحي بارد. أحيانًا يتكلَّم الله من خلال الأحلام، أو صخب الأطفال (القديس أغسطينوس تغيّرت حياته من خلال سماعه صوت طفل يناديه "خُذ هذا واقرأ")، أو عمل فني رائع، أو مقطوعة موسيقية بديعة، أو ظروف معينة تمر بها في الحياة.

في كل الأحوال، نفس المهارات التي نحتاجها لنسمع الأطفال على مدار مراحل نموهم المختلفة في الحياة -كرُضع، وفي سن المشي، ومراهقين، وبالغين- هي نفسها المهارات التي تشحذ أحاسيسنا الروحيّة تجاه الله.

يوم غير عادي.. عادي

قمت بتأليف كتاب «Sacred Pathways» (أو «السبل المقدسة») عندما كان جراهام ابني في سن الخامسة أو السادسة، وفي أحد الأيام كنت أعمل على الفصل الخاص بالأشخاص التأمليين في هذا الكتاب. وبالرغم أنني لا أميل إلى حياة التأمل والصوفية، فإنني أُعجب بهؤلاء الإخوة والأخوات الذين يخصصون حجرة بسيطة ويزينونها بشكل روحي ليجعلوها قطعةً من السماء، ويأخذون دقائق زمنية عادية ومُجهدة ويدمجونها في حيز الأبدية. أشد ما يذهلني في الصلاة المسيحية للتأمليين (الصوفيين) أنهم يفعلون ما يريدون أن يفعلوه، وسيقومون بفعله بعد خمسة بلايين سنة من الآن- ممسكين بيد حبيبهم الله في عشق المُحبين.

ربما يكون جراهام من هؤلاء الصوفيين- أو على الأقل لَعِب في ذلك اليوم بالتحديد دورًا صوفيًا في حياتي. وقد صرَّح هو قائلاً: "كان هذا أفضل يوم في حياتي."

حتى تلك اللحظة، اعتبرت اليوم مُحبِطًا بشدة.. أولاً كنتُ منشغلاً جدًا.

قبلها بأسبوعين، أرسلتُ مسودة كتاب عن الأطفال لإحدى دور النشر، ولأسباب عديدة كنتُ أعتبر هذا الكتاب مهمًا جدًا بالنسبة لي، لكني لم أحصل إلا على الصمت من الناشر، وهذا الصمت هو أكبر إهانة يمكن أن يحصل عليها مؤلف. صندوق البريد الفارغ للكاتب يشبه حفلاً بلا حضور للموسيقار، ومتجرًا بلا حركة لصاحب مشروع صغير، أو كنيسة فارغة بالنسبة لراعٍ.

وأنا كشخص أحمق نرجسيّ، قمت بتلوين يومي بناءً على إحباطاتي. وفي نفس الوقت كان ابني يملأ اليوم بالأمل.

"أفضل يوم في حياته؟!" نظرت إلى الساعات الثماني الماضية، وحاولت أن أرى الأمور من خلال عينيه.

بدأ اليوم بزيارة بصحبة جراهام إلى الملاعب الرياضية في مدينة مانساس بولاية فيرجينيا؛ لأسجِّل له في تدريب كرة القدم. لم يكن جراهام قد لعب في أية رياضة منظمة من قبل -وهذا سيكون أول موسم له؛ لذا توقفنا لنشاهد مباراة. وعندما رجعنا البيت، رقدت بجوار جراهام قبل أن يأخذ قيلولة. وبمجرد أن استغرق في النوم، قمت وقرأت كتابًا. وعندما استيقظ، جاء ووقف أمامي، وحضنته لبضع دقائق قبل تناولنا للغداء.

كان على ليزا أن تصطحب آليسون لحضور حفلة عيد ميلاد، لذا بقيت مع جراهام وكيلسي بعد ظهر هذا اليوم لنفعل ما يحلو لنا. وبينما نامت كيلسي، قمتُ مع جراهام بتزيين مدخل بيتنا، وثبتنا رفًا تحت الحوض. وبينما كنا نقوم بهذه الأعمال المنزلية تحدّثنا عن: هل يمكن لسهم واحد أن يقتل خمسة رعاة بقر؟ كنتُ أشك في ذلك، لكن جراهام أكد لي أن أحد الهنود من شخصياته البلاستيكية أنجز هذا العمل البطولي في هذا اليوم.

عندما استيقظت كيلسي، وفَّر الغداء الذي جهّزته لها تسلية لمدة دقيقتين تقريبًا، ثم بقيت هي وجراهام هادئين مع برطمان من زبدة الفول السوداني وكيسًا من المقرمشات المُملحة لمدة ما يقرب من ثلاثين دقيقة. ثم حرصت على تنظيف المكان من آثار الدمار الحادث، وبعد هذا كنا كلنا مستعدين لنؤدي بعض المهام.

أول محطة توقفنا فيها كانت مكتب البريد، حيث ظَلَّ صندوق بريدي فارغًا، وهو ما أثار جنوني. في هذه المرحلة حدَّد صندوق بريدي شكل يومي بشكل غير منطقي.

بعد ذلك توجهنا إلى محل «باسكين روبينز» للآيس كريم. وكان لديّ بعض الكوبونات التي أتاحت لي أن أحصل على بسكويتة وكوبين بسعر كوب واحد فقط.. أعطيت كيلسي البسكويتة حتى تستطيع أن تهدأ وتجلس، بينما كانت الفتاة تعد الكوبين لجراهام ولي. وعندما رجعت ومعي الآيس كريم، سلمتني كيلسي البسكويتة المحطمة وأخذت على الفور الكوب الجاهز من يدي.

يقع محل «باسكين روبينز» بجوار متجر لأفلام الفيديو مباشرة؛ لذا أخبرت جراهام أنه يستطيع أن يذهب مسرعًا ويؤجر لنا فيلم «Speed Racer». فجرى إلى المبنى المجاور، وعندما لحقنا به كيلسي وأنا، كانت الهدية المرغوب فيها ترقد بأمان بين يديه.

وفي طريق العودة إلى البيت بالسيارة، تحت سماء رمادية غير معتادة في شهر يونيو (بالنسبة لولاية فيرجينيا)، قال جراهام عبارته الهامة: "كان هذا أفضل يوم في حياتي كلها."

أذهلني تعليقه هذا، حتى أنني أوشكت على الانحراف عن الطريق الرئيسي. قبل تقييم جراهام، ربما أعطيت اليوم تقدير «ضعيف»، لكن تقييمه كان بتقدير «امتياز». فتأملت بعمق: "ما هو الشيء المميز في

عمل بعض المهام؟ عدم وجود أخبار عن مشروع الكتاب الجديد؟ والقيام بأمور عادية حول المنزل؟"

لكن جراهام المتأمل الصوفي رأى الثماني ساعات الماضية بمنظور مختلف تمامًا.. فقد نظر إلى التسجيل في تمرين كرة القدم كوعد مستقبلي؛ والقيلولة بجوار أبيه كلحظات مقدَّسة؛ ووضع بعض الزينة أمام المنزل "كأمر ممتع وشيق"؛ كما استطاع أن يأكل كوب الآيس كريم بدون الذعر من السعرات الحرارية أو كمية الدهون. واستطاع أن يعلِّمني أن الحضن الرقيق والعميق بين الأب وابنه بينما يخرجان من متجر لتأجير أفلام الفيديو يعني أكثر من كل صناديق البريد المملوءة في العالم.

استطاعت أذناه أن تسمع أغنية لم أتمكن من سماعها لشدة انشغالي- حتى أصغيت بشكل حقيقي إلى تقديره المملوء بهجة لما بدا لي في لحظة ما أنه يوم عادي.

"أهم شيء يمكن للكنيسة أن تقوم به من أجل الشباب هو مساعدتهم على الضحك. كنائسنا وبيوتنا يمكن أن تكون أماكن بهجة، وستكون هكذا إذا تعلَّمنا نحن سر البهجة."

– القس چون ياتس

«كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك.»

– (إشعياء ٦٢: ٥)

الفصل الخامس

الفرح!

كيف تساعدنا تربية الأبناء
على التمتع بالفرح الإلهي

فبراير ٢٠٠٢

شعرت «سارة هيوز»، البالغة من العمر السادسة عشرة، بالتوتر الشديد. فمنذ أن كانت في عمر الخامسة وهي تحلم بالفوز بميدالية ذهبية في بطولة الألعاب الأوليمبية الشتوية، لكن المركز الرابع في المسابقة الصغيرة بمدينة «سولت ليك» يعني أنها ستكون راضية وسعيدة بميدالية من أي نوع.

خلال ساعتين كانت سارة على وشك التزلج في أهم عرض للباليه على الثلج في حياتها. لم تستطع التخلص من القلق؛ لذا استدعت أخاها الأكبر «ماثيو». اعتاد ماثيو أن يلعب دور مهرج العائلة في بيت آل هيوز.

قالت سارة: "ماثيو، قُل لي نكتة!"

وبدون تردد، حكى الأخ الأكبر عن جرادة دخلت إلى مطبعة للصحف، فأسرع العامل ليخبر مديره؛ فإذ به يقول: "لا تقلق، دعنا نُصدرها مع 'جرائد' الغد!"

ضحكت سارة، وشعرت بالاسترخاء، ثم تزلجت في أهم عرض للباليه في حياتها. ولم تحصل على ميدالية فقط، بل تقدمت بعد التراجع في واحد من أندر السيناريوهات في عالم الرياضة لتفوز بالذهب في النهاية، مما دعا ماثيو أن يستفسر: "الآن بعد أن أصبحت هي بطلة أوليمبية، هل عليَّ أن أُنزل غطاء التواليت بعد استخدامه؟"[1]

يقول المعلق الرياضي «ريك رايلي» إن الميدالية الذهبية التي فازت بها سارة في الأولمبياد هي "أحلى قصة في عالم الرياضة هذا القرن". من المؤكد أن والدي سارة قد سلكا طريقًا وعرة حتى تصل إلى هذه المكانة. قبل هذا الوقت بأربع سنوات في مدينة "ناجانو" باليابان، فازت فتاة مراهقة أخرى بميدالية ذهبية، ولكن بتكلفة باهظة جدًا. فلكي تتمرن «تارا ليبنسكي» مع مدرب مرموق، كان عليها أن تتغرب عن والدها بعد أن بلغت العاشرة من عمرها. كذلك «تيم جوبل» الذي حصل على ميدالية برونزية في «سولت ليك» ترك أباه بعد أن أكمل الحادية عشرة لكي يكمل تدريبه. رياضة التزلج ليست اللعبة الوحيدة التي يسافر فيها الموهوبون إلى أماكن بعيدة؛ فالنجوم الواعدون في لعبة التنس اعتادوا على السفر نحو الجنوب للتدرب مع المدرب «نيك بوليتيري». كما تحصل أكاديمية «دافيد ليدبتر» على ما يقرب من أربعين إلى خمسين ألف دولار سنويًا لإقامة وتدريب وتغذية نجوم الجولف الصاعدين.

لكن والدا سارة جعلا ابنتهما في البيت، وحافظا على تماسك الأسرة، وقد باركهما الله كثيرًا بسبب هذا. لقد أطلقت والدة سارة، «إيمي هيوز»،

على ابنتها ذات مرة لقب «دكتورة سارة» بسبب تأثيرها عليها عندما كانت تتعالج من سرطان الثدي. كان من الطبيعي أن يؤدي العلاج الكيماوي والإشعاع وزراعة الخلايا الجذعية إلى إنهاك هذه الأم، لكن الأطفال كانوا على مستوى الحدث. الابنة الكبرى «ريبيكا» كانت تدرس بجامعة هارفارد، لكنها ترجع بالطائرة في العطلات الأسبوعية لتهتم بإخوتها الصغار. الابن الأكبر دافيد كان يتبرع بصفائحه الدموية إلى والدته، وچون يسافر مع سارة في منافسات التزلج التي لم تستطع والدتها حضورها لأنها ترقد على سرير مرضها. وكان چون يتصل بها تليفونيًا لتسمع صوت الموسيقى بينما كانت سارة تتزلج، ثم تسمع التصفيق المتواصل بعد ذلك. العجيب أن إيمي في هذه الأوقات تمكنت من تقبُّل المزيد من الصفائح الدموية أكثر من المعتاد.[٢]

ما اختبرته إيمي وزوجها چون كان غير عادي من ناحية أن قليلين منّا اختبروا نشوة مشاهدة ابن أو ابنة يفوز بميدالية ذهبية في الأولمبياد؛ لكن ما أروعها فرحة عندما يجتمع أبناؤك في موقف عصيب، والجميع يمدون يد العون! لا توجد أشياء كثيرة على الأرض تضاهي بهجة العائلة.

نعم، قد يستنفذ الصغار كل ما لدينا من طاقة، ومن المؤكد أن هناك لحظات مؤلمة أشد الألم تمثل علامات فارقة في مسيرة الوالدين، ويبدو الإجهاد كرفيق دائم، وفي بعض الأيام أشعر أنني أكثر الآباء فشلاً على الأرض.. لكن دعنا ألا ننسى الأوقات التي يستطيع فيها الصغار المتعِبون أن يصعدوا ليكشفوا لنا حُجب السماء، ويُظهروا لنا معنى الحب والسعادة الحقيقية.

بالنسبة لمعظمنا قد تبدو لنا هذه الومضات السمائية غير ظاهرة تمامًا مقارنة بالفوز ببطولة أوليمبية، والأمر يستعصي على الفهم لَمَنْ هم من خارج الدائرة. أتذكر أنني شاهدت ابني يضع ذراعه على أخته

الأصغر ليساعدها على اجتياز موقف صعب، ويوجهها برفق، ويساعدها، ويشجعها. وقد قمت بتنبيه زوجتي ليزا حتى لا يفوتها هذا المشهد، وهو ما جعل وجهها ينفرج عن أكبر ابتسامة رأيتها في حياتي. لو مَرّت عائلة أخرى على هذا المشهد، ما كانت لتدرك المعجزة التي حدثت للتو -عندما يكون الأبناء ليسوا أبناءك، فأنت لا تلاحظ الأمر، وبالأحرى لن تشعر به؛ لكن في هذه الليلة ذهبتُ بصحبة زوجتي إلى الفراش ونحن ممتلئان بالرضا والشبع النفسي.

في أوقات أخرى، توفر التربية استمتاعًا كبيرًا لكل من الأب أو الأم. مؤخرًا، طلبت مني كيلسي أن أسمح لصديقة لها بقضاء ليلة السبت معنا. عائلة هذه الصديقة غير مواظبة على حضور الكنيسة، وكانت كيلسي مهتمة بأن تحكي معها عن مدارس الأحد. ولأن كيلسي بدت مُرهقة، رفضنا هذا الطلب، وهو ما اعترضت عليه: "لكن يا ماما، هذه مسألة روحية مهمة!"

لم يُنفَّذ طلب كيلسي، لكننا ضحكنا كثيرًا بسبب هذه العبارة. نحن نقدِّم تضحيات كوالدين، لكننا أيضًا نحصد فرحة خالصة. ياله من إله صالح يسمح لنا باختبار هذه المتعة الرائعة!

مريم المبتهجة

إن تربية طفل رضيع خبرة مليئة بالوعود، وهي كذلك على مدار قرون، وهكذا كانت بالأخص وقت ولادة يسوع- بقدر ما كانت أي أم يهودية ترجو أن يكبر ابنها ليصير المسيَّا.

لسنا مضطرين لتخيُّل ابتهاج العذراء مريم عندما سمعت بالأخبار السارة التي تقول إن ابنها هو بالفعل المسيَّا؛ لأن الكتاب المقدس يخبرنا عن ابتهاجها بوضوح؛ فقد فاضت مريم بالتهلل:

«تعظِّم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي،
لأنه نظر إلى اتضاع أمته.
فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني،
لأن القدير صنع بي عظائم، واسمه قدوس.» (لوقا ١: ٤٦- ٤٩)

من الطبيعي أن تجلب أخبار الحمل بيسوع وولادته الفرح إلى مريم، بالرغم من التحذيرات المحزنة التي أُعطيت لها (راجع لوقا ٢: ٣٤ و٣٥). هذه الفرحة استمرت لسنوات كثيرة، وأظن أنها رجعت بقوتها مع اقتراب عيد ميلاد المسيح الثلاثين.. لقد ساعدت العذراء مريم في ترتيب حفل زفاف حدث به موقف محرج: لقد نفذ الخمر (راجع يوحنا ٢: ١- ١١).

خلال السنوات المبكرة لأبنائك أنت تقدِّم الكثير والكثير، ولكن عندما يكبرون تعلم أنك تستطيع الاعتماد عليهم أيضًا.. هذا ما حدث هنا. لم تنزعج العذراء مريم من نفاذ الخمر، لكنها تقدمت لابنها وقالت له: "ليس لهم خمر."

في البداية بدا يسوع مترددًا، وذكَّر أمه بأن ساعته لم تأتِ بعد. لكنَّ مريم كان لديها تفاؤل الأم، فأمرت الخدّام وقالت لهم: "مهما قال لكم فافعلوه!" ثم اعتنى يسوع بالأمر.

تقدِّم العذراء مريم مثالاً جيدًا؛ لأن رحلتها كأم تضمنت لحظات لا مثيل لها من البهجة، وكذلك لحظات لا مثيل لها من العذاب والألم. وسارت من ذروة ميلاد مخلص كل مَنْ يؤمن، حتى غاصت بعد ثلاثة عقود إلى الأعماق وهي تشاهد بنفسها كل انتفاضة من جسد ابنها بينما تخترق المسامير جسده، وتشاهد الدم والماء يتدفقان بعد أن اخترقت الحربة جنبه. أوقات الوجع كانت تنتظرها، لكن هنا في عُرس قانا الجليل استطاعت مريم أن تراقب برضا الأم وفخرها بينما نجح ابنها في التعامل مع المشكلة.

إلا أن البهجة قد تعني أيضًا المرح، وأحيانًا لا يوجد مرح يضاهي ذلك الناتج عن وجود الأطفال حولك. انفصلت «كارول بيرسون» عن زوجها لتربي أطفالها بمفردها؛ حيث إنه كان يصارع مع هُويته الجنسية. وقد تُوفي بعد ذلك بفترة متأثرًا بإصابته بمرض الإيدز. من المؤكد أنها اختبرت مع أطفالها نصيبًا كبيرًا من الأحزان، لكن كارول تتذكر على ما يبدو الأفراح فقط. في مذكراتها الدافئة بعنوان «على الأرجوحة» (On the Seesaw)، تحكي كارول عن وقت كانت تتناول فيه القهوة مع بعض صديقاتها عندما دخل ابنها چون البالغ من العمر ١٠ سنوات الغرفة ليعلن: "ماما، من واجبي أن أخبركِ أن رجل الشرطة سيصل هنا بعد دقيقتين."

فسألت: "مَنْ اتصل بالشرطة؟"

أجاب چون: "أنا!"

يبدو أن چون رأى أن أخاه آرون "يدمر البيئة"، لأنه كان يقفز من فوق مواسير المياه على ارتفاع ستة أقدام في البحيرة، خاصة أن آرون وضع ألواحًا خشبية فوق أعواد النباتات حتى يحمي نفسه من الاصطدام بقوة عندما يقفز. شعر چون بالإهانة بسبب هذا التصرف "الشنيع"، وشعر بالالتزام الأدبي بإبلاغ السلطات. جاء الشرطي، وضحك كثيرًا، ثم شرح لچون متى يجب على الفرد استدعاء الشرطة.[٣]

بعد عدة سنوات، عرف چون أن أمه تريد بشدة أن تحضر مع صديقتها حفلاً موسيقيًا لـ «ليزا مينلي»؛ فادخر خمسين دولارًا لشراء تذكرتين. تأثرت جدًا هذه الأم التي تربي أبناءها بمفردها بمشاعر وتضحية ابنها. بالرغم من أننا لا نستطيع كلنا أن نربي شخصيات على مثال المسيًا، فإن الصبيان العاديين من وقت لآخر يجلبون ابتسامة ملائكية على وجه أم مجهدة.

الفرح الكتابي هو الفرح الذي يتشاركه الأخوة معًا. قال الرب يسوع: «كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويُكمَل فرحكم» (يوحنا ١٥: ١١). كما كتب الرسول يوحنا رسالته الأولى إلى أحبائه: «لكي يكون فرحكم كاملاً» (يوحنا الأولى ١: ٤)؛ ويخبر «السيدة المختارة» (ربما تكون تجسيدًا أنثويًا للكنيسة) في رسالته الثانية بأنه "يرجو" أن يأتي إليهم ويتكلم معهم فمًا لفم (راجع يوحنا الثانية ١٢)، وفي رسالته الثالثة كان يوحنا واضحًا لأبعد مدى: «ليس لي فرح أعظم من هذا: أن أسمع عن أولادي أنهم يسلكون بالحق» (يوحنا الثالثة ٤).

وبالرغم من أن الرب يسوع ويوحنا لم يخاطبا أقرباءهما بالجسد عندما تحدثا عن الفرح، لكن العلاقات التي أشارا إليها من المؤكد أنها تنتمي إلى العائلة، بالمعنى الروحي. العديد من الدراسات أظهرت أن المتزوجين يشعرون في المعتاد بسعادة أكثر من غير المتزوجين.. لقد شكّل الله نفوسنا بطريقة ما ليجعلنا أكثر اكتمالاً في حياة الشركة. الخطية عادة ما تؤدي إلى الانعزالية- سواء كانت خطية تعاطي المخدرات (تخيَّل مدمنة وحيدة وهي تهرب لتتعاطى المخدر)، أو متابعة الميديا الإباحية (تخيَّل رجلاً بمفرده أمام الكمبيوتر)، أو حتى أكثر الخطايا إيلامًا مثل القتل (الإنكار الأعظم لحياة الشركة). في المقابل يحركنا روح الله نحو الآخرين؛ وهذا التحرك بالرغم من أنه يكون موجعًا في أحيان كثيرة، إلا أنه يحوي قدرة على إطلاق فرحة لا تعرفها أية خبرة بشرية أخرى. حتى الشخص المنطوي مثلي يجد سعادته الحقيقية وشبعه الأكيد في العيش المشترك.

المحبة والبهجة

معظم الآباء والأمهات يتبنون منهجًا من صلاتين تجاه أبنائهم،

ولازلت أجد نفسي أنزلق بشكل مستمر في شبكتهما.. صلاتنا الأولى هي: "يارب، احمِهم!" وصلاتنا الثانية هي: "يارب، غيِّرهم!"

ألا يسير الأمر هكذا؟ ألا تندرج معظم صلوات الآباء والأمهات تحت هاتين المظلتين: "يارب، احفظهم حتى لا يفعلوا شيئًا غبيًا"، و"يارب، ابعد الأغبياء عنهم"؟

ليس هناك خطأ في هاتين الصلاتين، لكني وجدت بهجة أكبر في تربيتي لأبنائي عندما عرَّفني الله بصلاة ثالثة، وحثني على أن أقدِّمها أضعاف الصلاتين الأخرتين. الصلاة الثالثة هي: "يارب، أشكرك لأنك تعمل في حياة ابنتي. أشكرك لأني أراك تقدِّس ابني. أشكرك من أجل البهجة التي تغمرني وأنا أعيش بين أبنائي. أشكرك لأجل امتياز أن أقضي حياتي معهم."

أضافت صلوات الشكر بُعدًا جديدًا في رحلة تربيتي لأبنائي.. أحاول أن أشكر الله من أجلهم أكثر مما أطلب من الله أن يغيّرهم. وأصلي بامتنان لظهور نعمة الله في حياتهم، وأسرد السمات الشخصية التي أودعها فيهم والتي أشعر بالامتنان نحوها. هذه الممارسة أعطتني منظورًا جديدًا.. عندما أصلي فقط من أجل حمايتهم، يكون عليَّ أن أحارب الخوف. وعندما أصلي فقط من أجل أن يغيِّرهم الله، أتغافل عن نقاط قوتهم. لكن عندما أشكر الله من أجلهم، وعندما أتأمل في الصفات التي يتسمون بها في حياتهم وأشعر بالامتنان نحوها، فهذا يمنحني تقديرًا أعظم لامتياز العيش مع هؤلاء الأبناء.

كما أثَّر ذلك على أسلوب تربيتي.. احتفل ابني مؤخرًا بعيد ميلاده الثالث عشر. وفي يوم الجمعة من ذلك الأسبوع قضيت معه الصباح في لعب الجولف، ثم ذهبنا لتناول الغذاء في مطعم من اختياره. وخلال أحد حواراتنا، ذكرت له طرقًا كثيرة رأيت الله يتحرك في حياته من خلالها،

وذكَّرته: "لقد طلبت من الرب يسوع أن يدخل قلبك، وقد استجاب لطلبي. انظر كيف يعمل فيك ويغيِّرك!"

ومع ذلك كان هناك أمر رغبنا ليزا وأنا أن ينمو فيه ابننا جراهام؛ لذا أكدت على الفضيلة المقابلة التي ستحل مكان السلوك السلبي.. تحدثت معه كيف نرى هذه الفضيلة في الرب يسوع، وكيف أثرت هذه الفضيلة على حياتي أنا شخصيًا، وكيف أرى أنها ستكون نافعة لحياته هو أيضًا؛ ثم قلت له: "جراهام، اقتنِ هذه الفضيلة هذا العام! بمعونة الله، اجعلها جزءًا من حياتك!"

ولو كنت أصلي فقط من أجل ضعفات ابني، لما فكرت في كل الأمور الإيجابية التي يفعلها الله في حياته. وبدلاً من سرد كل دلالات نعمة الله، ربما كنت سأسرد كل "التعهدات" التي يجب عليه أن يقطعها على نفسه من أجل العام القادم (عيد ميلاد جراهام في شهر ديسمبر)؛ وبذلك أكون قد أكّدت على نقائصه. لكن صلوات الشكر تُذكرني بانتظام بأمانة الله في رعاية أبنائي، الذين وضعوا ثقتهم فيه؛ فلا يمنحني هذا فرحًا متزايدًا بهم فحسب، ولكن أيضًا يمنحني فرحًا متزايدًا بالله. أقول مثل الرسول يوحنا: «ليس لي فرح أعظم من هذا: أن أسمع عن أولادي أنهم يسلكون بالحق.»

صلوات الشكر منحتني أساسًا أكثر استقرارًا لأبني عليه علاقة مع أبنائي، وبالأخص بينما يكبرون. فكّر في الأمر: إذا صليت في كل مرة إلى الله ووجدته خائفًا على سلامتك بشكل عصبي، ثم قضى كل الوقت يتصيد لك كل عيب محتمل وكل غياب للسلوكيات اللائقة في حياتك، هل ستحب أن تصلي دائمًا؟ ليس كثيرًا! إذا كان أبونا السماوي لا يقدِّم قدوة في رعايته بإظهار الخوف المبالغ فيه علينا، ولا يتحدث كثيرًا عن إخفاقاتنا، فلماذا نبني علاقتنا مع أبنائنا على

مثل هذا الأساس الباطل؟ وكم سيكون أفضل إذا اتبعنا قدوة أبينا السماوي وابتهجنا بأبنائنا؟!

أريد أن يفكِّر أبنائي فيّ كأكثر شخص يشجعهم، بعد الروح القدس. وأريدهم أن يعرفوا، بغض النظر عن نظرة العالم لهم، أن هناك شخصين على الأقل: أباهم وأمهم، سيبتهجان بهم دائمًا. أصلي أن يصدقوا دون ذرة شك أن تربيتهم كانت ولاتزال واحدة من أعظم البركات التي منحنا الله إياها.

تعلَّمت هذا التوجه القلبي من الرسول بولس، الذي اختبر فرحًا لا يوصف عندما أحب المؤمنين الذين كانوا غير سَلِسين أبدًا في بعض الأوقات. ربما كانوا "أبناءه الروحيين"، لكن محبتَه لهم ازدادت حرارة وقوة أكثر من شعور أي شخص تجاه أبنائه باللحم والدم. أصغِ لبولس وهو يتحدث مع أبنائه وبناته في الرب:

«أفرح أنا بكم.» (رومية ١٦: ١٩)

«لي ثقة كثيرة بكم. لي افتخار كثير من جهتكم. قد امتلأت تعزيةً وازددتُ فرحًا جدًا في جميع ضيقاتنا.» (كورنثوس الثانية ٧: ٤)

«أشكر إلهي عند كل ذكري إياكم دائمًا في كل أدعيتي، مقدمًا الطلبة لأجل جميعكم بفرح.» (فيلبي ١: ٣ و٤)

- «لأنكم أنتم مجدنا وفرحنا.» (تسالونيكي الأولى ٢: ٢٠)
- «لأن لنا فرحًا كثيرًا وتعزيةً بسبب محبتك.» (فليمون ٧)

أتساءل لو جاء أحد ليجري مقابلة مع أطفالنا وسألهم: "هل يجد آباؤكم وأمهاتكم فرحًا عظيمًا في محبتكم؟" ما عساهم أن يقولوا؟ هل يشعر أطفالنا بالحب والاعتزاز اللذين شعر بهما أبناء بولس الروحيون؟ أم يشعرون أنهم عبء وليس بركة؟ من أعظم الهدايا التي يمكن لأي أب

أو أم أن يقدِّمها لأبنائه هو أن يستمتع بهم، ويعتز بهم، ويضحك معهم، ويمنحهم الشعور بالرضا لامتنانهم بصحبة الحياة معهم.

ضع في الاعتبار أن الناس الذين اهتم بهم بولس لم يكن من السهل محبتهم.. كان الكورنثيون يتشاجرون حول كل شيء، وارتكبوا زنا المحارم، وبعضهم كانوا مخادعين، وبعضهم كانوا يقاضون أحدهما الآخر في المحاكم. والغلاطيون تركوا إنجيل النعمة واتجهوا نحو الحرفية والناموسية. وكان على بولس أن يحل بين أهل فيلبي خلافات شخصية (أفودية وسنتيخي)، مثل أب يحكم في شجار بين اثنين من الإخوة. كذلك عدد من أهل تسالونيكي أصبحوا كسالى بشكل ملحوظ، وكان على الرسول بولس الذي عانى طويلاً أن يوبخهم مرات كثيرة ليتركوا البطالة وراء ظهورهم. ومع ذلك، بالرغم من هذه الصراعات والإخفاقات داخل هذه الكنائس، وجد بولس فرحًا عظيمًا في محبتهم.

مع المحبة الحقيقية يأتي الفرح الحقيقي.. مهما كانت صعوبة الشخص أو الكنيسة، عندما يمنحنا الله تعاطفًا كتابيًا تجاههم، فإنه سيمنح أيضًا الفرح الكتابي. أنت لا تحصل على أحدهما دون الآخر، على الأقل ليس بطريقة الكتاب المقدس. ألا يجسِّد هذا جمال الحياة في المسيح؟ قد يدعونا الله لنضحي من أجل أطفالنا، وقد نفعل هذا. وقد يدعونا الله لندرِّب أنفسنا نيابةً عن ذريتنا، وقد نطيع. ولكن ما أعظم البركة التي نكون فيها عندما يخبرنا الله بأن نستمتع بأبنائنا! يا لها من وصية غنية!

فيما يلي فكرة صادمة: إذا استوعب أبناؤنا بوضوح تقصيرهم في تحقيق توقعاتنا أكثر مما يرون كيف تغيِّرهم نعمة الله، إذا اعتقدوا أننا نشعر بأنهم عبء علينا ولسنا شاكرين من أجلهم؛ فربما هذا يرجع إلى أنهم تربوا على يد فريسيين. بمقدورهم أيضًا أن يتحدوا ميلنا إلى ما يشير إليه الفيلسوف «سورين كيركيجارد» بتعبير "الجدية بغباوة."[٤]

الجدية بغباوة

وفقًا لدرسة حديثة لمركز أبحاث بارنا، لا يتمتع المسيحيون بالولايات المتحدة بشعبية كبيرة. وعندما طُلب من المشاركين في الاستطلاع أن يقيموا استحسانهم لمجموعات مختلفة من الناس، جاء المسيحيون في المرتبة العاشرة بفاصل اثنين عن المرتبة الأخيرة، بعد السحاقيات والمحامين، ومتفوقين على الداعرات! يذكر الباحث چورچ بارنا أن ثلثًا فقط ممَنْ ليس لهم علاقة بالمسيحية لديهم انطباع في صالح المسيحيين المؤمنين، وأكثر من الخمس بقليل يشعرون بمشاعر إيجابية نحو المسيحيين.[٥]

لا أقصد مطلقًا أننا يجب أن نشغل أنفسنا بفوز سباق في الشعبية– لكن من الحكمة دائمًا أن نبقى منفتحين للنقد البنّاء. هناك فارق بين أن نبعد الناس عنّا لأن رسالتنا غير مألوفة، وأن نبعد الناس عنّا لأننا نقدِّم هذه الرسالة بطريقة مُنفرة. في ظل رغبتنا في "تصحيح الأمور"، فإن تحذير كيركجارد من أن نصبح جادين بغباوة يمثل التهمة الأولى التي تستهدف المسيحيين المؤمنين على الأرجح.

حضرتُ مرة اجتماعًا للمؤمنين، وقد توتر اللقاء جدًا. عندئذ قال أحدهم شيئًا طريفًا، وبدأنا كلنا نضحك، الأمر الذي كان له تأثير سحري على إزالة التوتر– حتى توقفت امرأة شديدة التدين وقالت بصوت مسموع: "أنا آمر روح الضحك بأن تُربط." من الواضح أن هذه المرأة المسيحية اعتبرت الضحك بمثابة خادم لإبليس، بينما في هذا الموقف أنا مقتنع تمامًا أنه يرقى ليكون نعمة من الله. البعض يظنون أن الله جاد طوال الوقت؛ لذا يرون الضحك نتيجة للسقوط.

قد يعبِّر الضحك والهزار بلا توقف عن السطحية، لكنه قد يكشف أيضًا عن عمق حقيقي. في كتاب «الإيمان القويم»، يزعم «چي. كيه. تشستيرتون» أن المسيحية تسدد أعمق احتياجات الإنسان لأنها تجعلنا

نركّز على المباهج التي لا تخبو أكثر من الحزن الحتمي وإن كان سطحيًا ومؤقتًا.[٦] وبدلاً من أن تغمرنا جدية العالم الساقط، فإن الإيمان بيسوع المسيح يمنحنا القدرة على الضحك والتمتع، والراحة في المباهج والمتع الأبدية التي وعدنا بها الله.

على مدار التاريخ، حتى أكثر المؤمنين الغيورين والمشغولين دائمًا بالإرساليات عاشوا في حالة من الفرح والغبطة. القديس فرنسيس الأسيزي وأتباعه تعرضوا للتوبيخ في الكنيسة بسبب حالة الفرح التي تنتابهم أثناء عبادة الله. الجيل الأول من الميثوديست نالوا انتقادات مستمرة بسبب "حماسهم المفرط". والقادة الأوائل في جيش الخلاص اختبروا مثل هذه البهجة؛ حتى أنهم نادرًا ما كانوا يتمالكون أنفسهم. وعندما كان أحدهم يخبر عازف الدرامز ألا يضرب على الطبول بقوة، كان يقول: "يا سيدي، أنا سعيد جدًا لدرجة تجعلني أفجِّر هذه الطبلة المباركة!"[٧]

أحد الكُتَّاب المفضلين لي، وهو «إيلتون تروبلاد»، يتجاوز هذا بكثير ليؤكد على الأمر بقوله:

> أي مسيحية مزعومة تخفق في التعبير عن نفسها في الفرح والمرح هي بدرجة ما مسيحية مزيفة. المؤمن مبتهج، ليس لأنه يتعامى عن المظالم والمعاناة، ولكن لأنه مقتنع أنها في ضوء السلطان الإلهي ليست نهائية.. حتى وإن شعر بالحزن، وكثيرًا ما شعر بالارتباك، لكن الهموم لا تغلبه أبدًا. روح الدعابة التي يشتهر بها المؤمنون ليست وسيلة لإنكار الدموع، لكنها وسيلة للتأكيد على شيء أعمق من الدموع.[٨]

بكلمات أخرى، عندما تكون جادًا بغباوة فهذه علامة على أنك كثير النسيان بغباوة.. نحن نركز على صراعات ومشكلات مؤقتة، ونخاطر

بنسيان بركات أبدية. وحتى عندما أسقط في أي إغواء، فبمقدوري بعد التوبة أن أجد الفرح عندما أعرف أن الله لا يعاملني كما تستحق خطاياي. رسالة الإنجيل من بدايتها وحتى نهايتها هي أخبار سارة تبعث على البهجة.

الأكثر من ذلك أن الجدية بغباوة هي علامة على العصيان. يوصينا العهد الجديد (ليس أقل من ٧٠ مرة) بأن نفرح! المؤمنون غير الفرحين فَقَدوا القدرة على رؤية الأخبار السارة للإنجيل: بأن الله خلقنا وأحبنا وافتدانا من خطايانا، وأعدَّ لنا مكانًا في المجد الذي لا يتصوره عقل لنتمتع به طوال الأبدية.

لكن انظر حولك.. راقب الناس على الطائرة، أو في المتجر، أو حتى في ديزني لاند؛ لترى أن قليلين فقط هم مَنْ يُظهرون أقل إمارات الفرح. بمقدور الأطفال أن يوقظوا بداخلنا هذا الولع بالفرح الذي منحنا الله إياه. بالأخص في الأوقات الصعبة في الحياة، يستطيع الأبناء أن يكونوا مصدر تشجيع كبير لنا.

الأطفال انتعاشة للنفوس الجريحة

في وقت ميلاد آليسون، مررتُ بوقت عصيب.. كنتُ أعمل في شركة حكومية لقراءة العدادات الكهربائية، بينما حاولت الانتهاء من رسالة الماجستير بجامعة ريجنت. شعرتُ بالغيرة من أحد زملاء الدراسة لأنه يحضر الكلية في كل المحاضرات لينتهي من درجة الماجستير، وليس هذا فقط بل قام بالتسجيل في أحد البرامج ليحصل على درجة الدكتوراه، الأمر الذي أردته من كل قلبي. وعرض عليّ دكتور «چيه. آي. بيكر» أن يكتب لي خطاب تزكية ليساعدني في الالتحاق بجامعة كامبريدج؛ ولكن مع ولادة مولود جديد لم تسمح لي الإمكانيات المادية من الالتحاق

بدراسات تحتاج إلى تفرغ في إنجلترا. وبدلاً من هذا، واصلتُ العمل كقارئ عدادات في ليندن بولاية واشنطن- حيث العشرات من مزارع الألبان.. وكنتُ أقضي جزءًا من يومي في تتبع عدادات الري في حقول بعد وضع السماد فيها، أو في الغوص في حظائر روث الحيوانات لمعمل ألبان آخر. في أول يوم في العمل، قالت لي إحدى الزميلات: "أظن أنني أخبرتك بارتداء حذاء طويل."

قلت: "هذا حذاء طويل"، مشيرًا إلى حذائي الذي يصل إلى ما بعد الكعب بقليل.

قالت: "حسنًا، هذا الحذاء سيمتلئ بعد نصف ساعة على هذا الطريق."

وكانت على حق. لم يكن لديّ أية فكرة أن وحل الحظائر في معامل الألبان يمكن أن يصل إلى آخر الساق.

ولأنني أسافر كثيرًا لمسافات طويلة في القرى؛ كان عليّ أن أُحضر غذائي معي، وأتركه في سيارتي. لا أعرف كم مرة تناولت سندويتشات زبدة الفول السوداني بتغصب ورائحة السماد تملأ أنفي، لكني أتذكر أنني قلتُ لليزا: "عندما أحصل على وظيفة أخرى، لن أتناول سندويتشات زبدة الفول السوداني مرة أخرى أبدًا."

شعرت بالإحباط الشديد.. فقد أردت أن أكون شخصًا أكاديميًا ومُعلِّمًا؛ لكني وجدت نفسي أجري هربًا من الكلاب، وأشق طريقي بصعوبة بين المزارع بسبب الأمطار، وأشم روث الحيوانات طوال اليوم، بدون أي شيء يثيرني عقليًا- وبعد ذلك أحاول أن أنهي رسالة الماجستير ليلاً وفي العطلات الأسبوعية. خطر ببالي يومًا أنني كنت أقرأ العدادات في الصيف السابق لتخرجي من المرحلة الثانوية، وكنت أقرأ العدادات بعد تخرجي من المدرسة الثانوية، وكنت أقرأ العدادات أثناء شهور الصيف

في الدراسة الجامعية، وكنت أقرأ العدادات بعد التخرج من الجامعة، ولازلت أقرأ العدادات بعد الانتهاء من الدراسة المطلوبة للحصول على درجة الماجستير. هناك خطأ فادح في هذه المعادلة!

كنتُ أعود إلى البيت بعد العمل، وأريد أن أبكي.. لا شيء يسير حسبما أريد! والتعزية الوحيدة التي كانت لي هي أن آخذ آليسون، وهي في عمر ستة أشهر (حتى اليوم لا تزال آليسون أجمل طفلة رأيتها في حياتي)، وأرقد محتضنًا إياها ومسندًا رأسها على صدري. أتذكر أنني كنتُ أصلي: "يارب، لا أستحق أن يكون لديّ طفلة بهذا الجمال." وكنتُ أعني ما أقول! بدت آليسون بالنسبة لي نعمة لا أستحقها؛ فقد شعرت بالدونية، وبدا لي تقريبًا كما لو أن الله أرسل آليسون إلى العنوان الخطأ.

كانت آليسون سر بهجتي في نهاية اليوم. ورجاءً لا تسيئوا فهمي.. أنا لا أساوي بين الجمال والقيمة، بل هي بهجة حقيقية أن تحب طفلاً حتى وإن بدا غير جذاب (وكلنا اختبرنا الأمر بدرجات متفاوتة). كانت آليسون تملك شيئًا بدا من عالم آخر؛ حتى إن احتضانها كان يذيب الكثير من إحباطاتي، والفرحة الخالصة عندما أحملها ساعدتني على الاستمرار في حالة لا تُحتمل من المعاناة في بعض الأوقات.

وحتى اليوم يقدِّم لي أطفالي انتعاشة وتقوية في جدول مواعيدي المزدحم.. فابنة مثل كيلسي تدفعني إلى الإبطاء؛ لأنها تشعر بالاحتياج إلى التحدث في كل شيء. تعلمت أن سؤالاً من خمس كلمات يمكن أن يؤدي إلى إجابة من ثلاثة آلاف كلمة، وأندهش من قدرتها على مواصلة الحديث لفترة طويلة بدون أن تلفظ أنفاسها. لن أنسى أبدًا الأول من نوفمبر حين نظرت إليّ كيلسي بمنتهى الجدية، وكانت تبلغ من العمر تسع سنوات آنذاك..

وسألتني: "بابا، ماذا يجب أن أكون في عيد الهالوين القادم؟ فكرت

أن أرتدي شخصية الفتاة المتفوقة، لكني فعلت ذلك منذ عامين، وأعرف أنه في حفلة الحصاد لابد أن أكون شخصية إيجابية؛ لذا ربما عليّ أن أبحث عن شخصية من شخصيات الكتاب المقدس، لكني..."

فقاطعتها؛ لأني شعرت أن الوقت مبكر جدًا في الصباح للدخول في حديث كهذا. ثم قلت لها: "كيلسي، لقد انتهى الهالوين من اثنتي عشرة ساعة فقط، وأمامك ٣٦٤ يومًا لتفكري في أي زي سترتدينه العام القادم. هل تظنين فعلاً أنكِ مضطرة للتخطيط لهذا الأمر الآن؟"

في صباح هذا اليوم، وبينما أكتب في هذا الفصل، جاءت كيلسي إلى مكتبي لتستعلم عما إذا كنت أحتفظ ببعض البالونات في مكتبي لأنها أرادت أن تقترض واحدة.

فسألت: "لماذا يُفترض بي أن أحتفظ ببالونات في مكتبي؟"

فضحكت قائلة: "لأنها من الأشياء المفضلة لديك"، ثم صححت قولها: "بالطبع بعد البنات اللواتي في عُمر العاشرة." (بينما أكتب هذا الكتاب، كيلسي في عمر العاشرة.)

بالرغم أننا قد نميل إلى الظن بأن هذه الفواصل تقطع تركيزنا، لكنها أقرب إلى الاستراحات الروحيّة. لا شيء مثل الأطفال يمكن أن نعود إليه عندما يصبح العمل شاقًا. بمقدور أبنائنا أن يعلّمونا أن نصبح أقل مشغولية لنستمتع بالحياة أكثر فأكثر.

الإصغاء إلى أصوات الصغار

في الماضي عندما عملت في مكتب يبعد كثيرًا عن بيتي، كنتُ أتلقى مكالمة تليفونية من ليزا بعد الغداء، وعادةً تطلعني على ثلاثة مستجدات عما يجري في البيت.

قالت ليزا: "أتمنى أن تأتي لترى ابنك الآن!" كان ابننا جراهام ذو الأربع سنوات يشغل وقته. وكنتُ قد أعطيته قبعة فريق «بالتيمور أوريولينز»، وقد كان حتى في هذا العمر مُغرمًا بالبيسبول. عندما اصطحبته للمرة الثانية لمباراة بيسبول، نظر من النافذة، ورأى الملعب من بعيد وصاح قائلاً: "يا حبي الكبير!"

في هذا اليوم بالتحديد، شمال فيرجينيا، وقبل موسم البيسبول كانت الثلوج تتساقط- لكن جراهام ارتدى قبعته، وأخذ يضرب الكرة من على قمة تل صغير، ثم يهبط ليعيد الكرة، ثم يصعد ثانية، ويبدأ الأمر من جديد.

أردت بشدة العودة إلى البيت لأشاهده، وفكرت في نفسي: "في المرة القادمة عندما يأتيني اتصال كهذا سأعود إلى البيت فورًا."

بعد شهرين تقريبًا جاءت هذه المكالمة، وعندما أجبت على ليزا قالت: "دقيقة من فضلك، جراهام يريد أن يتحدث إليك."

فوصلني صوت طفولي عبر الهاتف: "بابا؟"

"مرحبًا يا بطل."

"مرحبًا.. كنت أتساءل، هل يمكنك أن تعود إلى البيت مبكرًا، وتلعب الكرة معي اليوم؟"

لقد حصل جراهام لأول مرة على زي كرة القدم الخاص به، وكان متحمسًا جدًا لارتدائه. وعندما فكّرت في كل العمل الذي على مكتبي تنهدتُ؛ فلابد إذًا أن أغادر العمل مبكرًا، حوالي الساعة الرابعة، لكي أصل البيت في الوقت المناسب لنلحق ببعض من ضوء النهار خارج البيت.

ثم أخذت نفسًا عميقًا آخر.. قد وصلت إلى العمل في السابعة صباحًا، ولم أخطط لترك العمل قبل الخامسة مساءً على الأقل. في البداية رأيت

أن هذا الأمر يجب عليَّ فعله أكثر من كونه شيئًا أريد أن أفعله، لكن بعد ذلك تذكرت المكالمة التي قيل لي فيها إنه يضرب كرة البيسبول ثم يهبط من التل ليعيدها من جديد.. لقد فاتني هذا الحدث، وندمتُ أنني لم أكن موجودًا.

فقلت: "حسنًا.. كن جاهزًا بالزي!"

فهمس جراهام: "هل يمكنني أن أخبرك سرًا؟"

"بالتأكيد. ما هو؟"

"لقد ارتديته بالفعل!"

بعد بضع ساعات تسمرت في مكاني عندما تخيلت منظر جراهام وهو يرتدي زي كرة القدم، مرتديًا خوذة أكبر من رأسه مرتين أو ثلاث، وهو يركض عبر الملعب، وملتفتًا إلى الوراء ليتأكد من أنني لا أزال أتتبعه.

في ذلك الوقت كان لديّ نظرة نفعية إلى حد ما عن ممارسة الرياضة.. أردتُ أن أعلِّم جراهام شيئًا، لذا تحدثنا عن كيف يمسك بالكرة بحيث لا يتعثر عندما أراوغه. وعندما أجده لا يمسك الكرة جيدًا، كنت أسقطها من يده حتى يتعثر ويرتبك. وبينما كنتُ أتتبعه في إحدى الممرات، أتذكر أنني قلتُ في نفسي: "على الأرجح لن يتذكر هذا؛ فهو لم يتجاوز الأربع سنوات."

لكن تبع ذلك فكرة أخرى أربكتني لقوتها: "كم يبدو جراهام وسيمًا!" إذا لم تشاهد طفلاً في الرابعة يرتدي زي كرة القدم الأمريكية، فقد فاتك شيء. ثم قفزت في رأسي فكرة أخرى: "هذا من أجلك أنت يا جاري." وبينما مددتُ يدي لأمسك جراهام، أدركت أنه لا يوجد أفضل من هذا المكان لأتواجد فيه.. بينما كانت آليسون تقوم بالتشجيع على الخط الجانبي: "اجرِ يا جراهام، سيمسك بك!" وجراهام يلتفت برأسه يمينًا ويسارًا محاولاً استكشاف من أي اتجاه ستكون هجمتي التالية. كان

بالكاد يرى من خوذته المتسعة على رأسه، وهذا عمليًا يجبره أن يتوقف ليستجمع توازنه. كان الأمر مثيرًا للضحك جدًا!

نادرًا جدًا ما تجد شيئًا صائبًا جدًا ومشبعًا جدًا حتى تشعر أنك لا يجب أن تفعل أي شيء آخر. لمدة ساعة في ذلك اليوم لم أشعر أنني أحب العمل أو الكتابة أو حتى الأكل، لم أُرِد شيئًا سوى تتبع لاعب كرة قدم طوله ٦٠ سنتيمترًا وأشاهده وهو يجري.

خلال فترة الاستراحة بين الشوطين رقدنا على ظهورنا على العشب. ولو كنت تأخرت في العمل، لصارعت مع الزحام المروري على الطريق السريع، وأشد الطرق زحامًا في البلاد من واشنطن العاصمة إلى شمالي فيرجينيا. لكن بدلاً من الاستماع إلى أخبار الطقس والنشرة المرورية على الراديو، استلقيت بجسدي في مكان على بعد خطوات صغيرة من السماء يُسمى الرضا- ليس نتيجة لمكالمة أحد الناشرين، أو ترقية في الوظيفة، أو زيادة في المرتب، ولكن بسبب طفل في الرابعة لديه طلب صغير: "بابا، هل يمكنك العودة مبكرًا إلى البيت لتلعب الكرة معي؟"

تبدأ العائلات في التفكك -وكذلك الزيجات- عندما نتوقف عن الاستمتاع ببعضنا البعض. هناك وقت للتأديب، للتضحية، للالتزام، وللمثابرة؛ لكن بنفس القدر من الأهمية هناك وقت للاستمتاع. أما هؤلاء الذين لا يقضون وقتًا للاستمتاع بعائلاتهم يفوتهم واحدة من أعمق الخبرات السحرية التي يمنحنا الله إياها. مثل هؤلاء الناس ربما كل هدفهم هو الخدمة، والتضحية، والبذل- لكنهم أيضًا عالقون في فخ يجعلهم يبدون بلا فرح، وفارغين، وبؤساء للغاية. هذا النوع من الحياة لا يمثل بما يكفي شخصية الله خالقنا؛ بل ويبدو قريبًا جدًا لتدين الفريسيين أكثر من الإيمان بيسوع المسيح.

فرح أثناء الرحلة

خلال رحلة طويلة بالسيارة من بيلنجهام في واشنطن إلى بورتلاند في أوريجون، استمعتُ إلى واحدة من أفضل وأجمل السلاسل من شرائط الكاسيت التي سمعتها في حياتي. الشريط الأول مُسجل عليه عظة للقس «سي. چيه. ماهاني» من كنيسة «Covenant Life» في جيترسبرج في ماريلاند. (بمقدوري أن أستمع إلى شرائط سي. جيه. ماهاني طوال اليوم بدون أية مشكلة.)

الشريط الثاني كان من «كارولين ماهاني» زوجة «سي. چيه». وقد استخدمت بعضًا من الآيات التي اقتبسها هو في عظته، لكنها تحدثت عن التربية من منظور الأم. شعرتُ بالإلهام والتحدي عندما رأيت كيف لزوج وزوجة أن يعملا جنبًا إلى جنب، ويربطا بين إيمانهما وعائلتهما.

لكن ما جعل السلسلة رائعة هو الشريط الثالث، والذي سجله بنات «سي. چيه.» الثلاث (في وقت التسجيل، كانت أصغرهن في العشرين من عمرها). إن شهادة هؤلاء الشابات الثلاث عن تربيتهن في مخافة الله وعن قدوة والديهن قادرة على تحريك دموع أكثر المستمعين من ذوي القلوب القاسية.[٩]

أوقفت الشرائط مرات كثيرة لأتأمل فيما يُقال، وفي لحظات الصمت اجتاحتني فكرة واحدة: "هذه العائلة استطاعت أن تدفع عنها الفوضى." إن عالمنا يعاني من فوضى التمرد، واختلاط الأدوار، والفرص الضائعة. عالمنا يدفع الناس ليختاروا نمطًا خاصًا لحياتهم دون أدنى تفكير في توابع هذه الاختيارات.. الشباب يتزوجون بدون التحدث عن الأدوار التي يخططون أن يلعبوها. ونحن لا نريد أن نضايق أحدًا، لذا نترك المتزوجين حديثًا ليجدوا طريقهم الخاص- وكثير من العائلات تُفقد بينما تحاول.

لكن هنا توجد عائلة صممت على العيش وفقًا لنموذج كتابي محدد الملامح، والفرح الذي تشاركوا فيه بسبب اتباعهم لما رسمه الله أصبح ظاهرًا لكل مَنْ يستمع إليهم. البنات يحببن التواجد معًا، وكلهن يعتبرن أمهن صاحبة التأثير الأعظم في حياتهن. يعمل «سي. چيه. ماهاني» في خدمة قوية وعميقة بشكل غير عادي، ويزداد تأثيرها يومًا بعد الآخر على مستوى دولي، لكنه وصل لهذا بدون التضحية بعائلته على مذبح دعوته الشخصية. لقد تذوقت الفرح في عائلته كما لو كانت فرحتي أنا.. الجمال هو الجمال، أيًا كان الإطار الذي يحويه.

كان لكارولين حوار حزين مع سيدة أثناء سفرهما بالطائرة.. لقد لاحظت السيدة وهي تكتب عناوين على المظاريف، وشرحت السيدة أنها ترسل دعوات لحفل التخرج لإحدى بناتها، ودعوات لحفل زفاف ابنتها الأخرى. وبينما همَّت كارولين لتهنئتها، قالت المرأة شيئًا جعل قلب كارولين يؤلمها كثيرًا: "من الرائع أن أتخلص من كلتيهما في وقت واحد."

شيء مؤسف، لكن هذا في الواقع يمثل نظرة بعض الناس إلى أبنائهم.. عبئًا لابد أن يتحملوه، ثم كائنات متطفلة يجب أن تُطرد من البيت. من المفارقة أنني وجدت أن مثل هؤلاء الآباء والأمهات الذين يتحدثون هكذا لم يقدِّموا سوى تضحيات قليلة من أجل أطفالهم. من المبادئ الأساسية في الحياة أننا كلما أنفقنا وقتًا وجهدًا وطاقة في عائلتنا، ازداد اعتزازنا بها.

تحتاج التربية عملاً شاقًا.. هذا حقيقي؛ وتتطلب بالطبع قدرًا هائلاً من تواجدنا، وتحتاج منا عمل تضحيات كثيرة. لكن عندما نقدِّم هذه التضحيات ويوشك العمل على الانتهاء، لن توجد أشياء محببة كثيرة لنعتز بها أكثر من العائلة التي تحب الرب. وهذه الفرحة تفيض من هذا الاختبار العائلي لتصل حتى إلى الشخص المراقب العادي.

لكن لا يعني هذا أن عائلة ماهاني لم تواجه تحديات.. على العكس، إحدى البنات اعترفت أنها احتقرت في وقت ما اختيارات أمها في الحياة، هذا الشعور تسميه هذه الابنة الآن "الخطية العظمى". لكن بمرور الوقت، اجتاز الحب كل الصعاب، وبَنت العائلة المتمركزة حول الإنجيل أساساتها على الصخر، وكل أفرادها يحصدون الآن مكافآت مجيدة.

لا يوجد فرح مثل الفرح الإلهي، ولا توجد عائلة مثل عائلة الله.

"سنراهن في السماء"

عمل «برادي بوبنك» راعيًا لكنيسة لأكثر من ثلاثين عامًا. وقد استضاف عددًا هائلاً لا يستطيع حصره من مؤتمرات «ألفا للشباب الجامعي» والتي يشار إليها بالاختصار «SALT». لكنه استمتع بشيء خاص جدًا في أحد المؤتمرات في سبتمبر ١٩٩٥؛ عندما حضر معه لأول مرة أبناؤه الأربعة وزوجته شيرلي.

كان ابنه الأصغر، «سيث»، البالغ من العمر ثلاث سنوات، قد توقف عن استخدام الحفاضات، الأمر الذي جعل السفر أكثر سهولة. والابنة الكبرى، «ستيفاني»، كانت مخطوبة وستتزوج في الصيف التالي.. مما جعل هذا المؤتمر رحلة العائلة الأخيرة التي تجمع كل أفراد العائلة معًا. كان برادي لا يطيق الانتظار!

ومع ذلك سرعان ما وجد أن السفر مع العائلة بأكملها يمنحه خبرة مختلفة تمامًا عما إذا سافر بمفرده- وكانت خبرة مبهجة للغاية. وبعد أن أنهى محاضرته عن العبادة، أخبره ابنه «ميكا» أنهم خططوا للذهاب جميعًا إلى النهر ليلقوا الحجارة، وليلعبوا مباراة مصغرة من الجولف، ثم يذهبوا لتناول الغذاء، وبعد ذلك سيذهبون للسباحة.

سأل برادي: "مَنْ قرر كلَّ هذا؟" متظاهرًا بالإحباط، لكنه في قرارة نفسه كان فرحًا باليوم الذي ينتظره.

شرح ميكا: "ماما، وسيث، وأنا صوَّتنا بالموافقة. وحتى إذا كان تصويتك بخلاف ذلك، ستكون النتيجة ثلاثة إلى واحد!"

سأل برادي: "ما الذي حدث للحُكم الأبوي، ميكا؟" محاولاً أن يستفيد أقصى استفادة من الموقف، ثم أضاف: "هل تعرف متى كان الأب هو الذي يتخذ القرارات؟"

قال ميكا: "قُل يا أبي، هيا."

"كان هذا في السبعينيات."

استمتع برادي جدًا في هذا اليوم مع أولاده الصبيان- لكن بناته جعلنه يذرف الدموع في نهاية هذا الأسبوع.

اشترك كل من شيرلي وبرادي في فترة تعبدية، وقامت كلتا الفتاتين ستيفاني وستاسي بقيادة الصلاة. وعندما وجد نفسه محاطًا بكل الأشخاص الذين يحبهم حبًا جمًا، وهو يصلي لله الذي يحبه أكثر من كل شيء، تفجرت المشاعر في قلب برادي.. هل يمكن أن تكون الحياة أجمل من هذا؟ بالنسبة لأب يبني عائلته على الإنجيل، لا يمكن!

وقد غمرته مشاعر البهجة والشكر؛ لأن بناته اللواتي كُنَّ صغارًا في يوم من الأيام قد كبرن وأصبحن نساء تقيات مملوءات من الإيمان، امتلأ قلبه بالطمأنينة على أنهن سيعِشن طوال حياتهن بهذا الإيمان.. ثم التفت إلى شيرلي وأشار إلى البنات وقال بصوت مختنق: "سنراهن في السماء!" وابتدأت شيرلي تبكي.

"الشخصية بدون شجاعة تكون فارغة.. الشجاعة هي التي تمكننا من التصرف وفقًا لقناعاتنا."

– سوزان ياتس

الفصل السادس

الانكشاف البغيض

كيف تواجه التربية جُبننا وتُكسبنا الشجاعة

تخيَّل أنك تعبر الصحراء، ويحيط بك مئات الأشخاص الآخرين، في بحث عن حياة أفضل. ومع كل يوم يمر، يقل مخزونك من الماء. وبالرغم من اجتهادك الشديد في الحفاظ على كل نقطة ماء غالية، ينضب مخزون الماء في النهاية؛ وتشعر بطعم الرمال في حلقك، وتشعر بالألم لجفاف لسانك- لكن ليس بصعوبة أو ألم النظر إلى ابنتك الصغيرة التي تحتضر من العطش.

يبدو وجهها شاحبًا، وقد تشققت شفتاها، وتورَّم لسانها. تشعر بالحر الشديد والعطش الشديد لدرجة تجعلها عاجزة عن فتح عينيها بينما تزحف ببطء في الرمال.

ما مقدار الشجاعة التي تشعر بها الآن في نفسك؟ ما مدى حبك للمغامرة؟ إحساسك بالأمل؟ ما مدى شعورك بأنك مَحل ثقة؟

في سنوات شبابي دائمًا كنتُ أنظر إلى شعب العبرانيين بقيادة موسى من جانب واحد فقط: كانوا زمرة من الجبناء الجاحدين المتذمرين والضعفاء. في الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، يظهر الله مهددًا في مرات كثيرة بمحو شعبه المختار، لكنَّ موسى يتدخل وينجو هذا الشعب بتذمره المزمن.

أمَّا كأب فأنظر إلى بليتهم بشكل مختلف قليلاً.. بالنسبة لي عندما أعطش فهذا شيء يمكن تفهمه، لكني الآن أحاول أن أتخيَّل رَد فعلي لو رأيت ابنتي تذبل أمامي بسبب عدم وجود ماء، وحلقها جاف لدرجة تجعلها عاجزة إلا عن النطق بكلمات هذيلة: "بابا، ماء، من فضلك." وإذا كنت لا أستطيع أن أجيب طلبها بكوب ماء، فليس من الصعب أن أتخيّل كيف كنت سأنضم إلى هؤلاء المتذمرين لأقول معهم صائحًا: "كان يوجد هناك ماء في مصر، ابنتي تموت هنا، لابد أن نرجع- الآن!"

أو لو كنت سمعت يشوع وكالب، بعد عودتهما من استطلاع الأرض الجديدة، وهما يتفاخران بغناها؛ ثم سمعت العشرة جواسيس الآخرين يحذرون من أن شعب هذه الأرض يشبهون الجبابرة (سفر العدد ١٣: ٣٢ و٣٣)، وأنهم قد يأخذون نساءنا وأطفالنا غنيمة (سفر العدد ١٤: ٣)؛ فغالبًا كنتُ سأنضم على الفور إلى جمهور التائهين في البرية. هل سأتحلى بالجرأة لأشارك في حرب إذا علمت قبلها أن الهزيمة تعني أن رجلاً آخر (أو ربما عدة رجال) قد يغتصبون زوجتي ويخطفون أطفالي ويحولونهم إلى عبيد؟!

من السهل أن تتحلى بالشجاعة إذا كانت المجازفة ليست كبيرة؛ لكن

كلما زاد ما تضطر لخسارته، تصبح الشجاعة في أعلى أسعارها. لهذا السبب كوننا آباء وأمهات يدفعنا جميعًا إلى أن نصير جبناء!

أسوأ شيء في جُبن الوالدين هو أننا نجرح أبناءنا تحت ذريعة حمايتهم! عندما غضب الله من بني إسرائيل بسبب عدم إيمانهم، أعادهم نحو البحر الأحمر قائلاً لهم: «وأما أطفالكم الذين قُلتم يكونون غنيمةً فإني سأُدخلهم، فيعرفون الأرض التي احتقرتموها. فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر. وبنوكم يكونون رعاة في هذا القفر أربعين سنةً، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر.» (سفر العدد ١٤: ٣١- ٣٣).

من المفارقة، ومن المحزن في نفس الوقت، أنه بسبب خوف بني إسرائيل على سلامة أبنائهم، عانى هؤلاء الأبناء على أيدي آبائهم وأمهاتهم وليس على يد أمة غريبة.

يعاني الأطفال اليوم نفس المصير.. لقد شاهدنا كلنا صغارًا يتحملون أبًا أو أمًا مفرطًا في الحماية لا يدعهم يأكلون الهوت دوج (فقد يختنقون)، ولا يتسلقون شجرة (فقد يسقطون)، ولا يذهبون إلى أحد المؤتمرات (فقد يتم التحرش بهم)، ولا يتزلجون (فربما تنكسر أرجلهم). وبذريعة حمايتهم، يحرم هؤلاء الآباء والأمهات أبناءهم؛ بل ويؤذونهم.

الجُبن يظهر بشكل غير مباشر.. فهو يختفي وراء مخاوف مشروعة، لكنه يدفع هذه المخاوف إلى درجة متطرفة؛ فتصبح سلامة الأبناء هي الأولوية المطلقة. لديّ بعض الأصدقاء الرائعين الذين يصطحبون ابنتي الصغرى في رحلة تزلج كل عام. تحب كيلسي هذه الرحلات، لكنها ترعبني أنا. في إحدى السنين عرفتُ أن كيلسي -وكانت في عمر التاسعة- ستذهب في مصعد التزلج (Ski Lift) إلى قمة جبل جليدي، بصحبة صديقتها التي في نفس عمرها فقط. استخدام مصعد التزلج

بدون الوالدين يعتبر العلامة الأخيرة على أنك أصبحت متزلجًا "حقيقيًا"؛ ولهذا كانت كيلسي ولورا صديقتها شغوفتين لخوض هذه التجربة. وبالطبع كانت كيلسي تنوي التزلج أسفل الجبل باستخدام لوحين. لابد أنني صليت عشر مرات في اليوم أثناء فترة غيابها، وكنتُ أقفز في كل مرة أسمع جرس الهاتف، خائفًا من حدوث كارثة.

مما زاد الأمر سوءًا، حدث زلزال ضخم هَزّ منطقة سياتل في إحدى السنين حين كانت كيلسي تتزلج هذا الجبل. انعصر قلبي بسبب خوفي من حدوث انزلاق جليدي في هذه المنطقة. ثم قدت سيارتي إلي المنتجع لكي أحضرها (كنا قد قررنا مسبقًا أنني سأصطحبها)، وحاولت أن أمنع عقلي من التفكير في الأسوأ. عندما وصلت رأيت ابنتي الصغيرة في شقلبة على المنحدرات، تقفز في الهواء، وعندما رأتني ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها.

سألت تيم، والد لورا، إذا كان قد شعر بالزلزال؛ فقال متعجبًا: "زلزال؟ لا. لكن لابد أن هذا هو السبب وراء إيقافهم المصاعد لفترة من الوقت لمراجعتها."

شعرت بالذعر مع زوجتي ليزا لمجرد التفكير في أن كيلسي تتزلج على الجبال بينما عانت المنطقة من زلزال ضخم. لكن إذا تحكم الخوف من زلزال محتمل في حياتنا (الأمر في منطقة سياتل يتعلق بمتى سيحدث الزلزال الأكبر، وليس إذا حدث؛ لأنه أمر متكرر)، فإن أطفالنا سيعانون بسبب خوفنا أكثر مما يعانون من زلزال حقيقي. بكل صراحة، أول شخص يسعى الجُبن أن يحميه هو الشخص الجبان. الجُبن ينتج عن الأنانية: "لا أريد أن أفقد أبنائي"، "لا أريد أن أخوض الألم الناتج عن رؤية شيء رديء يحدث لهم."

أعتقد أن هذا الجزء من خطة الله للتربية يهدف إلى مواجهة هذا الميل

الأناني بداخلنا. في كل مراحل الحياة سنقابل أشياء تتحدى شجاعتنا.. عندما يكون أطفالنا في مرحلة الرضاعة، نقلق بشأن أي مكروه قد يصيبهم فجأة، ونقلق من آثار ارتفاع درجة الحرارة. وعندما يصبحون في سن المشي، نخشى أن يبلعوا شيئًا أو يخرجوا إلى الشارع، أو يسقطوا من أعلى السُّلم. وعندما يكون لدينا أبناء في المرحلة الابتدائية، لا نريدهم أن يدخلوا حمامات عامة بمفردهم، أو نخشى أن يتعرضوا للخطف إذا تجولوا بمفردهم داخل متجر كبير أو في مكان مفتوح. وفي المراهقة يأتي الخوف من تعاطي المخدرات، أو الحمل الناتج عن ممارسة غير شرعية للجنس، أو الخوف من الأصدقاء السيئين. ربما كلام تشارلز باركلي، وهو لاعب كرة سلة سابق تحوَّل إلى معلِّق رياضي، يجد صداه عند الكثيرين؛ إذ سُئل مرةً عن كيف يتعامل مع المحبين الذين يتوددون إلى ابنته التي صارت مراهقة.. قال باركلي: "أظن أنني إذا قتلت أول واحد منهم.. سيعرف الجميع ما حدث."[1]

وبمجرد أن ينضج أبناؤنا، ونظن أننا تخلصنا من خوف الوالدين هذا، يأتي الأحفاد...

ضعفاء

يُولد جُبن الوالدين في خليط غريب من السلطة الأبوية.. عملية التربية تفعل شيئين متزامنين ولكن متناقضين: إنها تمدنا بقوة لا مثيل لها، بينما تكشفنا من الداخل.

الأم الشابة التي تكتشف أنها حبلى تمسك بمعنى الكلمة بقوة الحياة والموت في يديها.. فالقرارات التي ستفعلها سيكون لها تأثير هائل على عمر الطفل، ونموه، وتعليمه، وصحته. هذه قوة مذهلة في يد شابة صغيرة!

ولكن يأتي مع هذه القوة شعور فوري بالضعف.. عندما يُعرف فجأة أن طفلاً ينمو بداخلكِ، وتعرفين أنكِ على "موعد مع القدر" بعد تسعة أشهر، يخلق هذا كل أنواع المخاوف التي لم تُختبر من قبل. النساء المستقلات المتفاخرات ربما لأول مرة على مدار سنوات سيبحثن عن شخص آخر ليعتني بهن- على الأقل طبيبة أو خادمة. الحمل بطفل وتربية طفل لم يقصد لهما أبدًا أن يكونا مشروعًا فرديًا.

خُذ بطلة أوليمبية في بداية العشرينات، ثم ضعها في زلزال، في الأغلب ستجد وسيلةً لتخرج سالمة. الآن خُذ نفس المرأة في نهاية العشرينات من عمرها، ودعها تحبل لمدة سبعة أشهر -أو تحبل ومعها طفل آخر في عمر المشي؛ ستجدها تواجه نفس الزلزال ولكن بمشاعر ومخاوف مختلفة تمامًا. اعترف الرب يسوع بهذه المحنة عندما تحدث عن دمار أورشليم وهو يرثيها: «ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام» (لو ٢١: ٢٣). لكي ينمو طفل بداخل جسمك، ثم تلدينه وتعودين به إلى المنزل، فهذا معناه أن تجعلي نفسك ضعيفة في مواجهة مخاطر عدة- عاطفيًا وجسديًا وماديًا.

قامت الكاتبة والمحاضرة «أيريس كراسناو» بمقابلة مع «باربرا بوش» (زوجة الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو. بوش) في أوائل التسعينيات. وخلال المقابلة، انفجرت باربرا في البكاء بينما كانت تحكي عن فقدان ابنتها بسبب مرض سرطان الدم وهي في عمر الثالثة- في عام ١٩٥٣. مَر أكثر من أربعين عامًا، لكن وخز وألم هذا الفقدان لاتزال تشعر به في قلبها كما لو كان حديثًا. وبالرغم من أنها تتحدث بعد هذا الحدث بأربعين عامًا، لكنها لم تنفض بعد عن نفسها الحزن الذي يمزق النفس الناتج عن فقدان ابنة صغيرة. أدركت «كراسناو» ما يستطيع أي أب أو أم فَقَد طفلاً أن يؤكده: "ليس لديَّ أطفال بعد،

لكني عرفت وقتها أنه حين تفقد طفلاً لن تستطيع أن تكون سعيدًا بشكل كامل مرة أخرى."[٢]

أعتقد أن أيريس كراسناو على حق.. إذا سبقني أحد أبنائي إلى السماء، أعتقد أنني سأشعر دائمًا بمسحة من الحزن، وجُرح في أعماقي لن يلتئم تمامًا في هذه الحياة. نعم قد أختبر لحظات من الفرح أو الضحك- لكن كل مرة أقابل شخصًا له اسم طفلي، أو أمر بشيء يُذكرني به، لا أعتقد أنه سيأتي وقت سأصبح فيه متقسيًا ومحصنًا ضد هذا الألم. ولن أرغب أن أصبح هكذا- وهذا هو الأهم.

في كلمة بعنوان "رحم الزواج" يتحدث المشير «كيث يودر» عن صديق له من أيام المدرسة الثانوية، سأل أمه سؤالاً ذكيًا جدًا: "يا أمي، أيهما كان أكثر إيلامًا لكِ.. يوم ولدتني، أم اليوم الذي سافرتُ فيه لأدرس بالجامعة في مدينة أخرى؟"

بدون تردد، أجابت الأم: "اليوم الذي سافرتَ فيه لتدرس في مدينة أخرى."

لن يترك الضعف نفس أي أب أو أم بشكل كامل. من نواحي كثيرة، يتطلب الأمر شجاعة هائلة لتصبح أبًا أو أمًا، وتعرِّض نفسك لمثل هذا الوجع.

الآباء الذين يربون أبناء زوجاتهم (أو العكس) يحتاجون إلى شجاعة المحاربين لمواجهة المهمة العصيبة لمزج عائلتين معًا. وعليهم أن يعترفوا بأمانة أن التوتر الحتمي سينال من زواجهم الجديد خلال مراحله الأولى الأكثر صعوبة. الأبناء لوالدين مُطلقين هم خطاة بقدر الأبناء الذين لوالدين لم ينفصلا أبدًا- وقد يحتالون على مخاوف الأبوين وشعورهم بالذنب والجُرح، في محاولة للاستخفاف بهذه المشاعر. إن تحمُّل هذا التحدي- أي تربية ابن شخص آخر على أنقاض زواج سابق فاشل؛

والاتفاق على التفاوض في عملية التربية، يمثلان تحديًا مرهقًا بشكل لا يمكن تخيُّله أبدًا.

المؤلف والإذاعي «دينيس ريناي» يشير إلى احتياج الأب والأم الذي يربي أبناءه بمفرده قائلاً: "أنا منبهر جدًا من شجاعة وصلابة الكثير من الآباء والأمهات الذين يربون أبناءهم بدون شريك الحياة. هناك مكافآت عظيمة جدًا في السماء تنتظر خصيصًا أولئك الأمهات أو الآباء والذين يواجهون معوقات ثقيلة، لكنهم مع ذلك يجاهدون جهاد الإيمان، ويكملون المهام التربوية المطلوبة منهم على نحو جيد."[٣]

أنا شخصيًا أشعر بكل أنواع المخاوف عندما أفكّر كيف سيتعامل أبنائي مع ظروف الحياة في عالم ساقط وشرير. أتذكّر عندما كانت ابنتي الصغرى كيلسي في عمر سنة ونصف؛ وكنّا نلعب بالمكعبات في محاولة لبناء برج، وكررت إحدى الكلمات التي أثارتني بشكل ملحوظ.

قلت لها: "حسنًا!" بينما كانت تثبت مكعبًا أصفر على مكعب أحمر.

صاحت كيلسي: "حسنًا!" ومدت يدها لتمسك بمكعب آخر.

لسبب أو آخر، كنت مفتونًا بكلمة "حسنًا" التي كررتها كيلسي.

فبالرغم من كوني أبًا شابًا وقتها، لكني عرفت ما يكفي لإدراك أن "حسنًا" عند البنات سرعان ما تتحول إلى "سيئ". أنا غير متأكد في أي سن تبدأ هذه الظاهرة، لكني سمعت فتيات ونساء كثيرات جدًا يعبِّرن عن ذلك:

"شعر سيئ!"

"جسم سيئ! أنا سمينة جدًا!"

"رسمة سيئة! لا شيء فيها جيد!"

- "أنا غبية جدًا!"
- "سيئ، سيئ، سيئ!"

شعرت بالرغبة الشديدة بأن أحافظ على كلمة "حسنًا" التي تقولها كيلسي لأطول فترة ممكنة. شعرتُ بالخوف من سقوطها في نفس الفخ، وكذلك شعرتُ بالذنب بسبب أفعالي كشاب، التي بلا شك ساهمت في تبني شابات أخريات لرؤى "سيئة".

قلت بصوت أعلى قليلاً: "حسنًا كيلسي!"

فردت بابتسامة: "حسنًا!"

قلتُ ثانية "حسنًا!"، وتمنيتُ من كل قلبي أن أغرس هذه الكلمة إلى الأبد في نفسها.

لنتقدم سنة ونصف بعد ذلك.. أصبحت كيلسي الآن في عمر الثالثة، وأصبحت مؤهلة لنلعب بـ "البلي". وضعتُ واحدة في منتصف الغرفة، وألقت كيلسي ما يقرب من ١٢ تسديدة على هذه "البلية" في محاولة لإصابتها، لكن هذه "البلية" ظلت في أمان بشكل عجيب. والآن هناك عدد كبير من "البلي" يملأ الأرضية، بحيث أصبحنا غير قادرين على تمييز "البلية" الأساسية.

قلت: "أنا مُعجب بكِ يا كيلسي." لا أعرف لماذا قلت هذا، لكن هذا ما خرج مني.

أجابت كيلسي: "أنا غالية!" مرددة بذلك اسم التدليل الذي اعتدت أن أناديها به "أخبِرني أنني غالية."

قلتُ: "أنتِ غالية."

ابتسمت كيلسي، والتقطت "بلية"، وضربت بها الموجودة في منتصف الغرفة.

لنتقدَّم مرة أخرى سبع سنوات أخرى.. كانت كيلسي مُحطمة بسبب تعليق إحدى صديقاتها التي قالت لها إن مظهرها العام يبدو "عريضًا بزيادة". لستُ متأكدًا ما المقصود تحديدًا بهذه العبارة، لكن كيلسي

البالغة من العمر الآن عشر سنوات تشعر بالانهيار لدرجة الدموع. كأب، لا أستطيع أن أحمي أطفالي من كل جُرح، وكل إهانة، وكل انتقاد.

وهذا الشيء يخيفني جدًا

في الواقع، بعض المتزوجين يستخدمون هذا الخوف كذريعة لعدم الإنجاب، ويقولون إنه من المستحيل أن يرغبوا في إنجاب طفل في هذا العالم. لكني عندما أفكّر فيما كنا سنخسره ليزا وأنا -ثلاثة أشخاص، كل منهم غالٍ في عيني الله، وله أهمية أبدية- أدرك أنني لا أستطيع أن أسمح للخوفً أن يملي عليَّ تصرفاتي؛ لأن تكلفته باهظة جدًا.

لو كنا اتخذنا هذا الطريق، ما كانت كيلسي ستبكي أبدًا على بنطالها "العريض بزيادة"- لكن العالم كان سيخسر ضحكتها المعدية، وحماسها الذي لا يتوقف؛ ما كان العالم سيعرف قلب جراهام الحسّاس، وأحيانًا عقله النافذ بلا كلل؛ وستخسر الدنيا الوجدان الشاعري والروح الهادئة لآليسون.

هذا ما ينجم عن الخوف: إنه يجعلنا قلقين من الشر الذي قد يحدث، وعندما نركز عليه، نفقد القدرة على رؤية الخير العظيم الذي قد ينتج من ذلك. الأمر ليس قصر نظر فقط، بل نظرة تشاؤمية أيضًا- بمعنى رؤية مغطاة بالقلق، ومشوشة بالخوف.

بينما يقر الكتاب المقدس صراحة بالمخاطر الحقيقية التي نواجهها في الحياة، فإنه بنفس القدر من القوة يوصينا بألا ننجرف بالخوف من هذه المخاطر.

لا تخف

مثلما يبقى الجُبن إغواءً دائمًا للآباء والأمهات المهتمين بالروحيات،

فإنه يغوي أي أحد مدعوًا لخدمة الرب. فقط تأمل عدد المرات التي يسبق الله، أو يسوع، أو الملاك فيها دعوة للخدمة بالكلمات "لا تخف":

• لشخص ينتظر من الله أن يعطيه ابنًا: «لا تخف يا أبرام، أنا تُرسٌ لك. أجرك كثيرٌ جدًا.» (تكوين ١٥: ١)

• لزوجة وأم شابة تخلى عنها والد طفلها: «نادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لكِ يا هاجر؟ لا تخافي.» (تكوين ٢١: ١٧)

• لرجل على وشك أن يكون أبًا لطفل يواجه خطرًا على حياته: «إذا ملاكُ الرب قد ظهر له في حُلم قائلاً: يا يوسف ابن داود، لا تخف...» (متى ١: ٢٠)

بشكل متكرر يحث الله شخصيات كتابية على ألا يخافوا:

• «فظهر له الرب في تلك الليلة وقال: أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف...»

• «فقال الرب ليشوع: لا تخف...» (يشوع ٨: ١)

• «فقال له الرب (لجدعون): السلام لك، لا تخف.» (قضاة ٦: ٢٣)

• «فقال ملاك الرب لإيليا: ... لا تخف.» (ملوك الثاني ١: ١٥)

• «فقال الرب لي: ... لا تخف.» (إرميا ١: ٧ و٨)

• «أمَّا أنت (يا حزقيال)... فلا تخف منهم، ومن كلامهم لا تخف، لأنهم قريسٌ وسُلّاء (عُليق وشوك) لديك، وأنت ساكن بين العقارب.» (حزقيال ٢: ٦)

• «فقال لي: لا تخف يا دانيال، لأنه من اليوم الأول الذي فيه جعلت قلبك للفهم ولإذلال نفسك قدّام إلهك، سُمع كلامك، وأنا أتيتُ لأجل كلامك.» (دانيال ١٠: ١٢)

• «فللوقت كلمهم يسوع قائلاً: تشجَّعوا! أنا هو. لا تخافوا.» (متى ١٤: ٢٧)

• «فأجاب الملاك وقال للمرأتين: لا تخافا...» (متى ٢٨: ٥)

• «فوضع يده اليمنى عليَّ (يوحنا) قائلاً لي: لا تخف، أنا هو الأول والآخر.» (رؤيا ١: ١٧)

هل ترى سمات مشتركة هنا؟ يبدو أن كل مَنْ يتعامل الله معه يحتاج إلى هذه المقدمة "الآن لا تخف؛ هذا ما أنا فاعله". لو كان هذا الكتاب عن أساليب التربية، لقدمت خمسة مبادئ للتغلب على الخوف في حياتك- لكن هل تعلم؟ الكتاب المقدّس لا يقدِّم هذه المبادئ الخمسة، على الأقل في النصوص التي أوردناها للتو؛ بل في كل حالة تقريبًا يظهر درس وحيد.. افعل ما تعرف أنه الصواب بغض النظر عن مدى شعورك بالخوف. كوالدين لا نستطيع دائمًا أن نتحكم في المخاوف التي تحيط بنا، لكن بمقدورنا أن نختار هل نستمع لها أم لا.

بصراحة إذا أمكننا أن نتعلَّم أن نفعل هذا مع أطفالنا، فلن يوقفنا شيء عندما يتعلق الأمر بالعمل من أجل امتداد ملكوت الله. إن أكبر مخاوفي في الحياة -بدون استثناء- أن يحدث مكروه لأحد أبنائي؛ فإذا تغلبت على الخوف الأكبر، ما الذي سيوقفني بعد هذا؟

مثلما يختار بعض المتزوجين ألا ينجبوا أطفالاً لخوفهم من حدوث أي مكروه لأبنائهم، هناك مؤمنون كثيرون يختارون أن "يتزلجوا" في الحياة لأنهم يخافون من تبعات "الوقوف" بثبات.. ماذا لو حاولوا أن يبدأوا في خدمة في كنيستهم وفشلوا؟ كان الأفضل ألا يحاولوا أصلاً. ماذا لو شاركوا بإيمانهم مع زميل في العمل وتعرضوا للسخرية؟ كان الأفضل أن يموت هذا الزميل في خطاياه. ماذا لو تعهدوا بمبلغ من المال اعتقدوا أن الله يأمرهم به، ثم تعرضوا بعد ذلك لضائقة مالية لم يستطيعوا تجاوزها؟ كان الأفضل ألا يصغوا إلى الله.

لا أقول إننا يجب أن نتصرف بتهور، أو نتخلى عن فضيلة التمييز؛

لكني أقول الخوف من "ماذا لو" قد جمَّد أعمالاً صالحة أكثر من الفساد الأخلاقي. الخوف لا يؤدي إلى فضائح تتصدر عناوين الأخبار، كما يحدث مع الفساد الأخلاقي، لكنه بنفس القدر يؤذي عمل الله على الأرض بشكل كبير.

خلاصة الأمر: لا تُكافأ الشجاعة دائمًا بالنجاح، وبعض المخاوف تصبح حقيقة. أنا لا أمانع أن أحسب المخاطرة عندما يتعلَّق الأمر بسلامتي الشخصية، لكن عندما يتعلق الأمر بأطفالي، لا أريد لعبة الاحتمالات التي تقول إن الآلاف من الأطفال في عمر كيلسي يتزلجون كل عام بدون حوادث خطيرة.. أريد أن ألغي الاحتمالات، ولا أريد أية مخاطرة. ولكن في عالم ساقط، هذا طلب لا يلبيه الله.

من خلال التربية المقدسة نتعلّم أن نتصرف بشجاعة، بغض النظر عن مدى شعورنا بالخوف. وعندما نخطو بإيمان، نسمح لله أن يشكّل نفوسنا بطريقة ستنمينا أكثر بكثير مما يفعله الدور التربوي في حياتنا.

في مفترق الطرق هذا، تبني التربية المقدّسة فينا السمة الشخصية التي نحتاجها بشدة لنحقق دعوة الله في حياتنا. مَنْ يقول إنه من السهل أن تبدأ خدمة من أي نوع؟ قد تُستنفذ أموالنا، قد نفتقر إلى المهارات الضرورية، وقد نفعل كل شيء بالطريقة الصحيحة. ولكن نفشل في النهاية. أتذكر جيدًا عندما تركت وظيفة مستقرة براتب جيد، وبدأت أتفرغ للتأليف وإقامة المحاضرات، كيف كنتُ مرتعبًا. لقد نشأت في عائلة لم تقم بشيء من هذا القبيل.. التحق أبي بوظيفة بعد تخرجه من الجامعة في قطاع حكومي، وبقي فيها لأكثر من ٢٠ عامًا تالية. المخاطرة بالعمل الحر لم تكن في جيناتي الوراثية- لكنها كانت جزءًا من دعوة الله لأتشجَّع في الحياة.

ما هي الأشياء التي لم تنجزها بسبب افتقارك للشجاعة؟ مَنْ هم

الأشخاص الذين تجنَّبت الحديث معهم؟ ما هي الخطوات التي رفضت أن تخطوها؟ في أي مرحلة كان الخوف هو الذي يوجهك وليس إيمانك؟ تعلِّمنا التربية كيف نتغلب على مثل هذه المخاوف. دعونا نكون أمناء مع أنفسنا.. الآباء والأمهات لديهم مئات الأمور التي تسبب لهم الخوف: الخطف، الكوارث الطبيعية، الأمراض التي تصيب الأطفال، الإصابات الجسدية، القرارات الأخلاقية السيئة- والقائمة لا تنتهي أبدًا.. لكن لا شيء بين هذه الاحتمالات يمكن أن يقف أمام عناية الله. كاتب سفر الأمثال يقول بوضوح:

«لا تخشى من خوف باغت،
ولا من خراب الأشرار إذا جاء.
لأن الرب يكون معتمدك،
ويصون رجلك من أن تؤخذ.» (أمثال ٣: ٢٥ و٢٦)

بالطبع هذا لا يعني أن المؤمنين التائبين لن يفقدوا أبدًا أبناءهم، سواء في حادث مروري، أو أحد الأمراض المستعصية؛ لكن هذا يعني أن أبناءهم لن يهلكوا أبدًا بعيدًا عن عين الله الحارسة، أو بدون نعمة الله التي تشملهم. العالم ليس حفرة كبيرة تنتظر حادثًا، لكنه عالم محكوم بإله صالح وكريم يملك زمام الأمور في كل وقت، ويدعونا دائمًا بأن نثق فيه:

«على الله توكلتُ فلا أخاف.» (مزمور ٥٦: ٤)

«هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب.» (إشعياء ١٢: ٢)

«الآن هكذا يقول الرب، خالقك يا يعقوب وجابلك يا إسرائيل:
لا تخف لأني فديتك.
دعوتك باسمك أنت لي.
إذا اجتزت في المياه فأنا معك،

وفي الأنهار فلا تغمرك.
إذا مشيت في النار فلا تلدغ،
واللهيبُ لا يحرقك...
لا تخف فإني معك.
من المشرق آتي بنسلك،
ومن المغرب أجمعك.
أقول للشَّمال: أعطِ، وللجنوب: لا تمنع.
اِيتِ ببنيَّ من بعيد، وببناتي من أقصى الأرض.»
(إشعياء ٤٣: ١ و٢؛ ٥ و٦).

تمسَّك بهذه الآيات لفائدة روحك، وبدلاً من الاستماع لمخاوفك تحدث إلى نفسك! نصحني أحد الرعاة بهذا التدريب، وقد استفدتُ منه جدًا. بدلاً من الإصغاء لنفسك، تحدَّث إلى نفسك. المشاعر قد تفترسنا إذا لم تمسك أذهاننا بزمام الأمور ونقاوم. لسنا مضطرين أن ندع أنفسنا "تصغي" إلى الشكوك والمخاوف؛ نستطيع أن نرد على أنفسنا، ونستطيع أن نبني أرواحنا بالكتاب المقدَّس. اقتبس هذه الآيات لقلبك الخائف، واستخدم هذا التدريب كمسار لاختيار الشجاعة. إذا تعلَّمت كيف تتغلَّب على مخاوفك كأب أو أم، فلن يوجد ما يوقف عمل الله فيك من أجل ملكوته.

أؤمن أنه، من أجل الملكوت، علينا أن نكره اللامبالاة أكثر من خوفنا من الفشل. لا أعرف شخصًا ناشطًا واحدًا لم يحرج نفسه في موقف واحد على الأقل افتقر فيه إلى التمييز وضبط النفس؛ لكن إخفاقهم في بعض المواقف يبدو مجيدًا مقارنة بالصمت المدوي لحشود من الجماهير الذين بسبب خوفهم لم يتركوا أبدًا مخادعهم الروحيَّة. وبينما لا أعتبر نفسي ناشطًا، فقد أحرجتُ نفسي مرات لا أستطيع حصرها بسبب سوء الفهم الذي أحدثه بكلماتي أثناء المؤتمرات واللقاءات- لكن في كل

أسبوع تقريبًا أتلقى بريدًا إلكترونيًا من شخص لمسه الله خلال إحدى محاضراتي غير المثالية.

لكي تصبح أبًا أو أمًا من الناحية الجسدية، نحتاج أن نساهم فقط إمّا بحيوان منويّ أو بويضة؛ لكن لكي تصبح أبًا أو أمًا وتمارس التربية المقدسة، نحتاج للشجاعة.. نفس الشجاعة التي جعلت هاجر لا تترك ابنها في الصحراء؛ نفس الشجاعة التي ملأت نفس يوسف ليتحدى مرسوم هيرودس، ويأخذ الصبي يسوع إلى مصر؛ نفس الشجاعة التي تقود رجالاً ونساءً كل يوم يتقدمون ويخاطرون من أجل ملكوت الله.

"إنها تحمَّلت غضبي"

انفصل والدا الممثل العالمي «آل باتشينو» في سنوات طفولته المبكرة، وعاش كطفل وحيد في منطقة «ساوث برونكس» في غرفة واحدة مع أمه وجده وجدته. بحسب كلماته يقول: "كنا فقراء جدًا."

في مساء أحد الأيام، كان آل في عمر العاشرة تقريبًا، وقد جلس متجمدًا في الطابق العلوي من المنزل حيث يبدو أن الحرارة لا تصعد إلى هناك أبدًا. كان سيذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، لكن مجموعة من أصدقائه نادوا عليه من أسفل، وكانوا يريدون أن يشربوا الكحوليات و"يستمتعوا بوقتهم".

بالطبع أراد آل الانضمام إليهم، لكن أمه رفضت ذلك: "لم تدعني أمي أن أذهب، وأتذكَّر أنني كنتُ غاضبًا جدًا منها." ولم يُرد أن يهدأ؛ بل ألحَّ، وتوسَّل، وهدَّد، وصاحَ؛ وحاول بأقصى استطاعته استنفاذ طاقتها. وهو يعترف: "لقد صرخت في وجهها كثيرًا، لكنها تحمَّلت غضبي. وقد أنقذت حياتي."

كان استعدادها لتحمل نوبة غضب وقتية هو ما أدى إلى حماية

مستقبل آل باتشينو، وهو يعترف: "هذه الشلة في تلك المنطقة لم يبقَ منهم أحد الآن. لا أفكر في الأمر كثيرًا، لكنه يلمسني الآن بينما أتحدث عنه. لم تُرد أمي أن أخرج ليلاً في الشوارع، بل كان عليّ أن أقوم بواجباتي المدرسيَّة. وأنا أجلس هنا الآن بفضل ذلك. الأمر في منتهى البساطة، أليس كذلك؟"[٤]

للأسف ماتت والدة آل قبل أن تتمكن من رؤية نجاح ابنها. أفكّر دائمًا في هذه الأم المطلقة والمجهدة والمعدمة ماليًا، وبين يديها طفل متمرد يصرخ في وجهها، وينعتها بألفاظ مهينة، ويريد أن يعرف لماذا لا تسمح له أن يخرج ويتسبب في المتاعب في وقت متأخر من الليل مثل الصبية الآخرين. وكل كلمة يتفوه بها تجرحها بعمق.. لابد أنه كان أمرًا مؤلمًا جدًا أن تمتص سُمّه وكراهيته.

لكنها احتفظت بثباتها، حتى وإن لم يفهمها ابنها- وقد أنقذت حياة ابنها أثناء ذلك. هؤلاء الصبية السكارى كلهم اختفوا؛ بينما حقق آل باتشينو مستويات عالية من النجاح، وهو ينسب ذلك، على الأقل في جزء منه، إلى أمه التي كانت لها الشجاعة لتتحمَّل عنفوان غضبه في شبابه. لم تُفهم في البداية، لكنها الآن تستحق المدح والإشادة العالية منه.

هناك جانب قاسٍ من التربية: عندما نقدم التضحيات لصغار لا يقدرون أن يفهموا مكاسب ما ينالونه منّا، ونسير في أوقات عَبر "وادي ظل الموت"، ونُنعت بكل الأوصاف بينما نسعى لتربية أبناء يخافون الله، ونصلِب ميلنا لإرضاء الناس.. أثناء ذلك نتبارك، ونتغير، ونُدعى للدخول إلى خدمة المسيح ذاته؛ وننضم له في مواجهته الشُّجاعة لعالم ساقط وشرير.

"لقد صمم الله الغضب وباركه ليستحث شفقنا لندمر الخطية."

– دان ألندر وتريمبر لونجمان الثالث

الفصل السابع

الحب الملتهب

كيف تعلِّمنا التربية أن نتعامل مع الغضب

قرر أحد الرعاة أن يقدم عظةً عن الغضب، وبعد العظة دعا أعضاء الكنيسة ممَنْ يحتاجون إلى طلبة خاصة بخصوص صراعاتهم مع هذا النوع من الانفعالات أن يتقدموا للأمام.. فاستجاب لدعوته تسعة عشر شخصًا.

كلهم كانوا أمهات لأطفال صغار!

تربية الأبناء كثيرًا ما تؤدي إلى بعض الأخطار الروحية. بين حين وآخر، جعلني أبنائي أضحك بقوة، وبشكل يختلف عن كل المرات التي ضحكت فيها في حياتي. لكن في أحيان أخرى، أصبحت غاضبًا منهم بشكل مخيف، لدرجة أنني تقريبًا شعرت بأني شخص آخر.

الجانب الروحي للتربية يعني أننا لا نستطيع فيما بعد مواصلة

الاختفاء في دائرة الإنكار المريحة؛ فالتربية تُخرج مشاعر حقيقية على السطح- مشاعر قوية للغاية بحيث لا يمكن تجاهلها أو إنكارها. ليس بمقدورك أن تتصرف كأب أو أم دون أن تشعر، في أوقات مختلفة، بالفرح، الحزن، الغضب، وتشكيلة من المشاعر البشرية الأخرى. التربية تدفعنا نحو المزيد من النضوج في التعامل مع بعض العواطف الخادعة، وبصفة خاصة الغضب.

بخلاف الرأي السائد، الغضب في حد ذاته ليس خطية؛ لأن الكتاب المقدس كثيرًا ما يشير إلى غضب الله (مزمور ٦: ١؛ ٣٨: ١؛ إشعياء ١٢: ١؛ ميخا ٧: ٢٩)، وكذلك حتى حضوره في شخص ما قد يولِّد الغضب: «فحَلَّ روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام وحَمي غضبه جدًا.» (صموئيل الأول ١١: ٦)

تأمل الأسلوب الشديد الذي يصف به الكتاب المقدس غضب الله ذاته: «هوذا اسم الرب يأتي من بعيد. غضبه مشتعل والحريق عظيم. شفتاه ممتلئتان سخطًا، ولسانه كنار آكلة» (إشعياء ٣٠: ٢٧). الأمر ليس مجرد انزعاج، بل غضب ملتهب وقوي جدًا.

لكن غضب الله يختلف عما يختبره معظمنا.. غضبه، بحسب كلمات أغسطينوس، ليس "مشاعر مضطربة كالتي توجد في ذهن إنسان غاضب، بل هو استياء ورفض للخطية."[1]

هذا يعني أن الدافع هو أهم شيء عندما يتعلق الأمر بالغضب.. الفرق بين الغضب المقدَّس والغضب غير المقدَّس يتلخص في النهاية في سبب الغضب، وموضوع الغضب، وتعاملنا مع الغضب.

يقدِّم نحميا قدوة جيدة في هذا الأمر.. عندما سمع أن بعضًا من شعبه يستغلون الفقراء، لم يهز كتفيه، ولم يقدِّم رأيًا متفلسفًا عن الطبيعة البشرية، ولم يتجاهل الموقف؛ وإنما تملَّكه غضبٌ مقدَّسٌ: «فغضبتُ جدًا

حين سمعتُ صراخهم وهذا الكلام. فشاورت قلبي فيَّ، وبكَّتُّ العظماء والولاة.» (نحميا ٥: ٦ و٧)

أصبح نحميا غاضبًا، لكنه توقف للحظات ليتأمل رد فعله تجاه مشاعر الغضب. وبعد دراسة الأسباب والتأكد من أن لديه سببًا وجيهًا ليتضايق، ذهب إلى مرحلة الفعل، وواجه النبلاء والولاة، وطالبهم بأن يغيِّروا موقفهم. لم ينكر انفعاله، ولم يتجاهله، أو يكبته؛ بل على العكس استخدم غضبه كحافز، وأخضعه للحكمة والتفكير العقلاني، ثم اتخذ إجراءً. حسنًا نحميا!

أما موسى فيعتبر مثالاً معقدًا؛ إذ نال مديحًا وأيضًا عقابًا بسبب الدور الذي لعبه الغضب في حياته. عندما نزل موسى من فوق جبل سيناء حاملاً لوحي الوصايا العشر، رأى احتفالاً وثنيًا في المحلة أسفل الجبل؛ إذ كان الشعب يعبدون العجل الذهبي. وبحسب ما جاء في سفر الخروج: «حميَ غضب موسى» (خروج ٣٢: ١٩).

عندما رأى هارون موسى وهو يطرح اللوحين، جاءه إعلان إلهي: "أنا في ورطة كبيرة." أُشبه رد فعل هارون برد فعل زوج عادت زوجته للتو إلى البيت بعد خروجها طوال الظهيرة. وعرف الزوج أن البيت أصبح غير مرتب تمامًا، وأراد فعلاً أن يرتبه وينظفه- لكنه لم يبدأ أبدًا في عمل ذلك. وبعد أن عادت زوجته، رأى البيت من خلال عينيها، وأدرك في النهاية مدى الفوضى.. ولكن بعد فوات الأوان!

لقد ترك موسى لهارون موقع القيادة، ومن المؤكد أن هارون يعرف أن عبادة عجل لا تتفق مع تعليمات موسى. لا داعي لوصف فداحة الغناء، والصخب، والعربدة، والسلوكيات المشينة التي صاحبت هذا- لكن عندما عاد أخوه موسى، بعدما جلس في محضر الله لعدة أيام، استفاق هارون من غفلته، وانفتحت عيناه: "لابد أن هذا يبدو سيئًا جدًا!"

صُدم موسى، وسأل هارون: «ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة؟» (خروج ٣٢: ٢١).

فيهوِّن هارون عليه في واحد من أكثر النصوص الكتابية التي يمكن اعتبارها مضحكة جدًا: «لا يَحمَ غضبُ سيدي» (خروج ٣٢: ٢٢).

لا يَحم غضبك؟ لا يَحم غضبك؟! وكيف لا يحمى غضب موسى؟ هذا يشبه طالبًا في المرحلة الثانوية وقد صدم سيارة العائلة لتوه في شجرة، ويقول لوالده: "على الأرجح أنت غاضب جدًا، أليس كذلك؟ هل هذا يعني أنك ستمنعني من الخروج يوم الجمعة؟"

عيَّن موسى على الفور لاويين أمناء بدأوا بمعاقبة الآثمين غير التائبين بالسيف، وقد أيَّد الله هذا الفعل بعد ذلك بقتل عدد أكبر من بني إسرائيل بواسطة الوبأ (خروج ٣٢: ٣٥). في هذه الحالة، عَكَس غضب موسى بشكل ملائم رَد فعل الله تجاه الخطية.

لكن في مناسبة أخرى غضب موسى أوقعه في متاعب كبيرة.. اشتكى بنو إسرائيل من عدم وجود الماء، ثم بدأوا يتحسرون ويقولون إنهم كانوا يفضلون أن يبقوا عبيدًا في مصر بدلاً من الموت عطشًا كأحرار في البرية. وفَقَد موسى أعصابه.. لقد فاض به الكيل بسبب مشاكساتهم، وتذمرهم، وجحودهم؛ لذا صرخ فيهم قائلاً: «اسمعوا أيها المردة، أمِن هذه الصخرة نُخرج لكم ماءً؟» (عدد ٢٠: ١٠)، ثم ضرب الصخرة مرتين وتدفقت المياه.

بعد ذلك مباشرة أصدر الله حكمه ضد موسى.. لقد أمر الله موسى بأن يتحدث إلى الصخرة، لكنه ضربها (كما فعل في مناسبة سابقة وردت في خروج ١٧: ٦)، وبفعله هذا لم يكرم الله القدوس (انظر عدد ٢٠: ١٢). لقد تصرَّف موسى كما لو كان هو شخصيًا مَنْ سيوفر الماء: «اسمعوا أيها المردة، أمن هذه الصخرة نُخرج (بصيغة الجمع) لكم ماءً؟»

لماذا تصرف موسى هكذا؟ كان غاضبًا -المشاعر المشروعة جدًا، لكن في هذه الحالة غاضبًا لأسباب خاطئة! كان الأمر كله متعلقًا به هو، وليس بكراهية الله القدوس للخطية؛ واستخدم سلطته ونفوذه ليُظهر سخطه هو شخصيًا. لقد فاض به الكيل بسبب تذمرهم وشكواهم، وسمح لانفعاله أن يقوده ليفعل الشيء الصواب بالطريقة الخطأ.. وقد كلفه ذلك ضياع تذكرة دخوله إلى أرض الموعد.

هل اختبرت هذا من قبل؟ ربما احتاج طفلك للعقاب.. سواء للتوبيخ، أو للتقويم، أو ربما حتى الضرب. وقد فعلت الصواب، لكن بالطريقة الخطأ.. فلم تأخذ وقتك لتهدأ، وتصلي، وتطلب مشورة الله في الأمر، بل مثل موسى استخدمت سلطتك الأبوية واندفعت لمعاقبة أطفالك لأنهم أزعجوك أو أحرجوك أو أحبطوك، بدلاً من تثقيفهم وتدريبهم لأجل صالحهم ولأجل مجد الله. لقد أخطأت، وجعلت خطيتك -بدلاً من مخافة الله- أن تقود تصرفاتك. بالرغم من نواياك الصادقة، فعلت ما فعله موسى.. وأدركت إلى أي مدى قد تجعلك عملية التربية محبطًا.

السير بالقرب من الجانب المظلم

تكتب المؤلفة «ريتشل كاسك» عن ابنتها الرضيعة التي بكت لساعات في إحدى المرات.. في صباح أحد الأيام، وبعد ليلة طويلة وصاخبة وبلا نوم، أرضعت ريتشل طفلتها "ربما للمرة العشرين في ١٠ ساعات"، ثم وضعت الرضيعة في سريرها على أمل أن تنام أخيرًا:

> لا أطلب فترة راحة كاملة، أحتاج فقط بضع دقائق لنفسي لأتحسس بعض أجزاء من وجهي، وأقول أشياءً بصوت مسموع أمام المرآة لأتأكد إن كنت قد جننت بالفعل. في هذه اللحظة لا أتمنى أن تنام فقط، بل عليها أن تنام؛ وإلا

لا أعرف ماذا سيحدث. موقفي أصبح الآن منطقيًا، وبائسًا جدًا، وغير قابل للتفاوض.[٢]

بعد أن وضعت ابنتها في سريرها، تسللت إلى حمامها لتنعم ببعض لحظات الصمت الغالية.. وللأسف، كانت لحظات قصيرة.

سرعان ما بكت الطفلة.. وبدأت ريتشل بعدما تملَّكها التعب والإعياء، تفقد صوابها وتصيح:

لا أعرف بالتحديد بماذا أصيح.. هناك ظلم في الأمر، شيء من الواضح أنه غير معقول تمامًا أن أريد خمس دقائق لأقضيها بمفردي. "نامي.. نامي!" أصرخ وأنا واقفة فوق سريرها مباشرة! أصرخ ليس لأنني أظن أنها ربما تطيعني، لكن لأني مدركة لرغبتي في أن ألقيها من النافذة. نظرت إليَّ الطفلة في رعب شديد.. هذه أول ملامح انفعالية تُظهرها لي في حياتها. ولم يكن ذلك فعلاً ما أتمناه![٣]

وبمجرد أن غاصت الرضيعة في النوم، شعرت ريتشل بالفزع الشديد مما حدث؛ فاتصلت بعدد من الأصدقاء: "لقد صرختُ في وجهها.. أعترف بهذا. في النهاية اعترفت بهذا لعدد من الأشخاص المختلفين، ولم يعطني أي منهم التبرئة التي كنت أبحث عنها؛ بل قالوا: يا حبيبتي، مسكينة! إنهم لا يقصدونني أنا!"[٤]

لأنني شخصيًا ربيت طفلاً كثير المغص، بمقدوري أن أتعاطف مع قصة ريتشل. الطفل صعب الإرضاء يمكن أن يصيبك بالإعياء الشديد؛ وقد تكتم غضبك لأيام، ثم تنفجر في ثورة هائلة. وحتى بينما تفعل هذا، تجد شيئًا يقول لك: "هذا فظيع، هذا مروع! ماذا حدث لي؟" ثم تتعهد بألا تغضب هكذا مرة أخرى، لكن هذا التعهد يسبب مشكلة أخرى فيما بعد.

الغضب تجاه الأطفال الرضع يتعلق في أغلب الأحيان بكيف يمكن أن ننزعج كآباء وأمهات. في وقت لاحق، وبينما يكبر أطفالنا، يكون الغضب هو رد الفعل الطبيعي للتعدي الأخلاقي، وهو ما يضعنا في مواقف إذا لم نغضب فيها قد نكون أقل من بشر، ومن المؤكد أقل من مؤمنين. يعلِّق سي. إس. لويس: "إن غياب الغضب... يمكن، في رأيي، أن يكون علامة مزعجة جدًا... إن كان اليهود يلعنون بمرارة أشد من الوثنيين، فأعتقد أن هذا يرجع جزئيًا إلى أنهم كانوا أكثر جدية في نظرتهم لما هو صائب وما هو خطأ."[٥] ومع ذلك عندما تغضب فهذا معناه أنك تسير على خط رفيع كثيرًا ما يستنكره الكتاب المقدس تمامًا:

- «كُف عن الغضب، واترك السخط» (مزمور ٣٧: ٨).
- «ليُرفع من بينكم كل... غضب» (أفسس ٤: ٣١).

لماذا الإشارات المتضاربة؟ جزء من الإجابة هو أن الغضب ليس لغير الناضجين؛ فهو يتطلب مستوى من النمو الروحي ليُستخدم بشكل ملائم. ربما لهذا السبب يوصينا يعقوب بأن نبطئ في الغضب (يعقوب ١: ١٩). كلنا نحتاج إلى الغضب من حين لآخر ليحفزنا، لكن قليلين منّا بمقدورهم أن يتخذوا من الغضب حليفًا لهم دون الانزلاق إلى الجانب المظلم منه. في معظم الحالات يجب أن نتردد في غضبنا، بالرغم من أنني لا أعتقد أن هذا يناسب كل المواقف. هذه الحقيقة المزدوجة للغضب.. أي أنه ضروري أحيانًا وخطير دائمًا، تتركنا أمام اختيارين: ١- أن نغالي في التدين، ونحاول تجنُّب الغضب تمامًا (لنصبح أقل من البشر، وللمفارقة أقل في التدين كما ستكشف بعض المواقف)، أو ٢- نتعلَّم كيف نمشي في حقول الغضب، ونحن نعلم أننا سنخطئ بينما نتعلَّم كيف نعبِّر عن غضبنا بشكل ملائم.

لقد تعلَّمت منذ زمن طويل أنه لو أردت أن أجعل "الكمال بلا خطية"

هو هدفي الأسمى، من الأفضل ألا أتزوج؛ وإذا كنت قد تزوجت بالفعل، فالأفضل ألا أنجب أطفالاً. من المستحيل أن نسلك في هذه العلاقات العميقة بدون تحفيز الخطية، على الأقل من حين لآخر. ومع ذلك بفضل تدبير نعمة الله ورحمته من خلال يسوع المسيح، بمقدوري أن أدخل بثقة في هذه العلاقات مدركًا أنني سأخطئ، ومتأكدًا أن الله سيغفر لي خطيتي، بل وسيستخدم خطيتي لصقل شخصيتي ومساعدتي على النمو.

لم يعد هدفي هو الوصول إلى حالة الخلو التام من الخطية -حتى وإن بدا هذا تجديفًا بالنسبة للبعض؛ بل أسعى إلى النضوج. لا أريد أن أصبح راضيًا عن أي خطية أعيها جيدًا في حياتي، ومن المؤكد لا أنظر للخطية نظرة استخفاف، بل وأتفق جدًا مع تحذير «چون أوين»، البيوريتاني العظيم: "اقتل الخطية، وإلا ستقتلك." لكني أعرف أيضًا أنه لكي أنمو في النضوج عليَّ أن أدخل بل وأتقبَّل مواقف معينة، حيث بسبب طبيعتي الساقطة تبدو الخطية حتمية من الناحية العملية. ربما أقلل من خطايا معينة إذا اقتلعت عيني حرفيًا وعشت وحيدًا في الصحراء، لكن بهذا سأتخلى عن الدعوة لأن أحب.. وبهذا في رأيي أرتكب خطية أكثر فداحة، خطية الكبرياء.

عندما تتجنَّب الغضب تمامًا فهذا يعني أنك تقع في الفخ البوذي المُسمى "فَناء الرغبة"؛ في حين يوضح الكتاب المقدَّس أمرًا هامًا: "الله بعيدٌ كل البعد عن اللامبالاة." الإيمان المضلِّل المشوَّه فقط هو ما يخلط بين التسامح واللين من ناحية، والمحبة من ناحية أخرى. هناك وقت للغضب ووقت للسخط، لكن كل وقت يظهر فيه الغضب هو وقت خطير ومخيف، ويجب أن نتقبله فقط لأننا مضطرون، ليس لأنه بإمكاننا أن نغضب.

لذلك تدعونا التربية إلى عملية معقدة جدًا من التقديس (النمو الروحي)..

سننضج أو سنتحطم؛ لكننا لن نبقى على حالنا بلا تغيير. يقدِّم سي. إس. لويس هذه الملاحظة عن "مزامير اللعن"- تلك النصوص الكتابية المزعجة التي تسرد اللعنات والأمنيات العنيفة التي تُنفث في وجه العدو:

> لقد أخطأ اليهود في هذا الأمر أكثر من الوثنيين؛ ليس لأنهم كانوا أبعد عن الله، لكن لأنهم كانوا أقرب إليه. عندما يدخل الله الفائق للطبيعة إلى النفس البشرية فإنه يمنحها إمكانيات جديدة لكل من الخير والشر. من هذه النقطة يتفرّع الطريق: اتجاه نحو القداسة والمحبة والتواضع؛ واتجاه آخر نحو الكبرياء الروحي، والبر الذاتي، والغيرة الظالمة. ولا يوجد اتجاه للرجوع إلى مجرد الفضائل والرذائل الرتيبة للنفس غير المتيقظة. إذا لم تجعلنا الدعوة الإلهية أشخاصًا أفضل، ستجعلنا أسوأ بكثير. من بين كل الناس، الأشخاص المتدينون السيئون هم الأسوأ على الإطلاق. ومن بين هذه المخلوقات، الأكثر شرورًا هو مَنْ وقف في البداية في محضر الله مباشرة.. ويبدو أنه لا يوجد مخرج من هذا. هذا يعطي تطبيقًا جديدًا لكلمات الرب عن "حساب النفقة."[٦]

كلمات سي. إس. لويس المخيفة تضعنا أمام اختيار مروع: ابقَ "نفسًا غير مستيقظة"؛ أو خاطر بالرذائل التي تظهر نتيجة الاقتراب إلى الله، والدخول إلى العالم المغري للأفكار الدينية والغضب المقدَّس. التربية تفرض علينا نفقة هائلة.. إنها تؤكد أننا سنزداد قوة أو ضعفًا، لكننا لن نبقى على حالنا، ولا نستطيع أن نبقى على حالنا.

أولئك الذين يختارون أن يصبحوا آباء وأمهات قد اختاروا بالفعل الدخول إلى العالم الأكثر قداسة للأفكار الدينيَّة والغضب المقدس.

وحتى إذا لم نرَ التربية عملية دينية، ستصبح هكذا! فجأة تصبح قضايا الإنصاف، والتدبير، والعدل، والمستقبل ذات معنىً متسامٍ. إذا أردت أن تتمتع بالأطفال بدون هذه القوى التي تشجعك على تشكيل حياتك، فلتذهب إلى مباراة لكرة القدم، أو شاهد فيلمًا للأطفال، أو وزع حلوى في الأعياد- لكن لا تصبح أبًا أو أمًا.

العلاقة وراء الجُرح

أفضل فهم لسخط الله في العهد القديم يتلخص في أنه "تعبير عن الحب المرفوض والمجروح"[٧]. الله يغضب لأنه يهتم، الله يغضب لأن المخاطر كبيرة.. غضبه ليس ثورة انفعالية تنتظر لحظة الانفجار؛ بل هو شعور بالاهتمام العميق لأنه يعرف خطورة مصيرنا الأبدي.

بنفس الطريقة، نحن كآباء وأمهات كثيرًا ما نغضب مع أحب الناس إلينا. وكلما زاد انخراطنا العاطفي، زادت احتمالية أن نغضب جدًا؛ لأننا نهتم جدًا بما يحدث مع مَنْ نحبهم وما يحدث لعلاقتنا بهم. من المؤكد أننا نغضب عندما يقود أحدهم سيارته على الطريق مثل الأحمق، ويتقدم أمام سيارتك في حارتك المرورية بشكل فجائي، ويفعل كل شيء عدا أن يكسر الإكصدام الأمامي للسيارة. نغضب، لكننا نتركه يمضي. لماذا؟ لأننا لا نمسك شيئًا عليه.. ليس لدينا اسمه، أو صورته، أو تاريخه؛ ليس لدينا أحد لنواجهه، ولا يمكننا فعل شيء، ولا توجد فرصة للاحتكاك في المستقبل؛ لذا نحن مضطرون لأن ندعه يمضي.

لكن، انتبه، عندما يتعلق الأمر بشريك الحياة أو أحد أبنائنا، يمكن للغضب أن يستخدم ثلاثي الماضي والحاضر والمستقبل ضدنا.. الغضب يوظف الماضي ليجعلنا نشعر بالخيانة: "بعد كل ما فعلته لك، هكذا تعاملني؟" ويستخدم الحاضر ليكشف عن جُرحنا: "أردتُ أن يكون اليوم متميزًا، والآن

أنت أفسدته! كيف سمحت لنفسك أن تفعل هذا بي؟" ويستخدم المستقبل لإضافة بعض الخوف: "ماذا سيحدث لنا؟ ماذا سيحدث لعلاقتنا؟"

لا نستطيع ببساطة أن ندع هذا النوع من الغضب يمضي لحاله، لأنه متجذر في المحبة، بكل توقعات المحبة، ورجاء المحبة، وحتى الخوف المستتر وراء المحبة. هذا يفسر لماذا يمكن للعلاقات أن تصبح غير مريحة على الإطلاق، بالأخص للرجال. غموض وصعوبة وطبقات المشاعر المطلوبة منا كثيرًا ما تتجاوز قدرتنا على إدارتها. اطلب منّا أن نحمل سلاحًا ونذهب للمعركة، وسنفعل؛ اطلب منا إصلاح ماسورة المياه، وسنلبي الطلب؛ اطلب منا تحريك كل الأثاث من مكانه، وسنتمكن من ذلك.. لكن تطلب منا أن نتحكم في الانفعالات المتضاربة من الغضب، والخوف، والحب، والارتياح، والشكر عندما يعود الطفل متأخرًا ثلاث ساعات بعد الموعد المتفق عليه؟ هذا أصعب بكثير. مثل هذا السيناريو يدفعنا إلى الانسحاب، أو التعبير فقط عن الغضب، أو ربما نوع واحد آخر من المشاعر. لا نعرف كيف نجتاز كل الطبقات المتعارضة لنعبِّر بدقة عما نشعر به.

عملت صديقتنا «آني كارلسون» على هذا الأمر مع زوجها.. في الماضي كانت آني تميل إلى استخدام الغضب للتعبير عن جُرحها، وهي تشرح قائلة: "الجلوس بصمت مع الجُرح يبدو سلبيًا للغاية بالنسبة لي؛ لذا إذا تجاوزتُ المشاعر الحزينة وغضبت فقط، فعلى الأقل أشعر بأنني مسيطرة." الآن عندما تشعر آني بالغضب، فهي تقول إنها تسمع سؤال زوجها يَرن في أذنيها: "هل أنتِ غاضبة أم حزينة؟" تعليقات آني ملائمة هنا بشكل خاص، لأننا نخلط بسهولة بين الجُرح والغضب، خاصة عندما يكون أحد أبنائنا هو المتسبب في جرحنا. إن التصرف من منطلق حالة الجُرح يمكن أن يُدخلنا في كل أنواع المتاعب.

الأب أو الأم الغاضب والمتأذي أحيانًا ما يكون رَد فعله للجُرح أن يؤذي طفله الذي يريد أن يحميه. هذه واحدة من أكبر المفارقات في دور الأب أو الأم.. أنه في وقت اطمئناننا المختلط بالإحباط على سلامة أبنائنا الجسدية، يمكن أن نحطمهم بألفاظنا.

بمعونة الله علينا أن نكون أكبر من جروحنا؛ لهذا السبب نحن نربي انطلاقًا من «خوف الله» (٢كورنثوس ٧: ١). عندما يرجع أحد الأبناء إلى البيت متأخرًا، فإن حقيقة أنه أفقدني النوم، وسبَّب لي القلق أو الخوف ليست هي القصة الأكبر. من الناحية العاطفية أريد أن أجعلها القضية الأكبر؛ لأن هذا ما تأثرت به. هذه مشكلة التصرف بدافع الجُرح: كل شيء يتعلَّق بي! لكن الله يدعوني لأتصرف بشكل ما يجعل كل شيء يتعلق بأبنائي، وعلاقتهم به.

وبالتالي ماذا أفعل؟ عليّ أن أتراجع قليلاً، مثلما فعل نحميا، وأراجع نفسي. عليّ أن أضع مشاعري تحت الاختبار، وأُخضعها لعقلي.. لا أتجاهلها، ولكن غير مسموح أيضًا أن أسمح لها بأن تقود ردود أفعالي. إنها موجودة وكفى، مثل الطقس، تجعل الحالة أكثر أو أقل إمتاعًا، لكن لا يجب أن أجعلها تملي عليّ ما أفعله.

التعامل مع الغضب بهذه الطريقة فن راقٍ، ويُكتسب بعد إخفاقات كثيرة ومتكررة. ليس بمقدورنا أن نتعلم التعامل مع الانفعالات الصعبة بمجرد القراءة عنها، لكن علينا أن نجتازها، وعلينا أن نختبرها. ترى ما الذي يدعونا لنفعل هذا أكثر من تربية الأبناء؟

ومع ذلك فإن الاختبار الروحي للتربية يفعل أكثر من مجرد إجبارنا على السير في حقول ألغام التعبير عن الغضب تجاه البشر.. بل وتدعونا التربية إلى الدخول في منطقة الشعور بالغضب من الله. وهذه عاطفة رقيقة للغاية؛ لأننا في أي شيء نختلف فيه مع الله نستطيع أن نتأكد

أنه ليس هو المُلام- ولكن معرفة ذلك لا تجعل المشاعر أقل حدة بأي درجة، أليس كذلك؟

الغضب من الله

عائلات كثيرة اختبرت محنة صعبة وهي تشاهد ابنًا أو ابنة يموت تدريجيًا بسبب مرض عضال.. كيف لا يسألون بعد ذلك: "يارب، لماذا لا تشفي ابننا أو ابنتنا؟" من المؤكد أن الله يملك القوة ليشفيه أو يشفيها، وهو يفعل هذا في مرات كثيرة، لكنه أحيانًا لا يفعل. ماذا إذًا؟

يبدو أن عمل الله في هذه الحالة غير مفهوم. من أوائل الكتب التي ساعدت في كتابتها (Out of the Silence)، يحكي قصة دوين ميللر الذي شفاه الله بمعجزة من مرض في الحلق.[٨] وقد قامت مؤسسة Focus on the Family بتسجيل قصة دوين.. عندما تسمع الشريط الذي يحكي قصة شفائه يقف شعر رأسك. إنها قصة عن معجزة حقيقية! لكن دوين هو أول مَنْ يعترف بدهشته لوجود أب شاب، في نفس الكنيسة، وفي نفس صباح اليوم الذي حدثت فيه معجزة الشفاء، مات بعد أسابيع قليلة بسبب ورم في المخ! كان أبناء دوين كبارًا، بينما كان أبناء ذلك الرجل لا يزالون صغارًا جدًا، ويُفترض أنهم يحتاجون إلى أبيهم أكثر من احتياج أبناء دوين لأبيهم. مرض دوين أصابه بالوهن الشديد، لكنه لم يهدد حياته، أما ذلك الرجل فكان يصارع مع مرض لا علاج له.

لماذا شفى الله دوين بمعجزة بينما سمح لرجل في نفس المكان، فقط على مسافة قصيرة منه، ليموت في مرضه؟ لم يصرح دوين أبدًا أن شفاءه كان نتيجة إيمان أو طاعة، وإنما حدث بتدبير محض من الله، وبدون تفسير أو استئذان.

هنا يبدو أن الله يوجهنا إلى ما يسميه القدماء: "التدريب الروحي

على حياة التسليم." الوثنية تسعى إلى التلاعب بالقوى الإلهية لخدمة الإرادة البشرية.. افعل الصواب، وستجبر الله على التجاوب بشكل معيّن. لكن المسيحية الحقيقية تسعى إلى تسليم الإرادة البشرية لكيما تخدم وتعطي المجد لشخص الله. في مراحل كثيرة سنشعر بخيبة الأمل من الله، وبالإحباط، أو حتى الغضب منه- لكن المهم أن تجعل شعار يشوع هو شعارك: «أمَّا أنا وبيتي فنعبد الرب» (يشوع ٢٤: ١٥).

- قد نفقد وظيفتنا، لكننا سنخدم الرب.
- قد نحضر ثلاث جنازات في عام واحد، لكننا سنخدم الرب.
- قد يتمرد اثنان أو ثلاثة من أبنائنا، لكننا سنخدم الرب.
- قد يعود السرطان بعد فترة من السكون، لكننا سنخدم الرب.

نحن كمؤمنين لدينا ما هو أكثر من الآخرين: الرجاء.. اليقين المبني على وعد إلهي، أنه في النهاية سيشفي الله أبناءنا. قد لا يحدث الشفاء حتى في هذه الحياة، لكنه سيحدث في النهاية.

هذا يختلف عن محاولة "تفسير" طرق الله التي تبدو في كثير من الأحيان غير قابلة للشرح، حتى إننا لا نستطيع استخدام بناء الشخصية كسبب.. بالرغم من أنني أعلِّم بحماس، وكذلك أؤمن بحماس، أن الله يستخدم التجارب لبناء الشخصية، وليعلِّمنا دروسًا، وليعمل بعمق في نفوسنا؛ لكنني شخصيًا أُفضل أن أموت أقل نضوجًا إذا أمكن إعفاء ابني من الألم! لأسباب جيدة يخبر بولس أهل رومية: «بكاءً مع الباكين» (رومية ١٢: ١٥).. كأنه يقول في واقع الأمر: "لا تقدِّم إجابات بسيطة.. لا تحاول أن تخلص نفسك من عبء التواجد حول إنسان حزين بمحاولة أن أجعله ينسى محنته أو أن يتغلب عليها.. كل هذا يعبِّر عن ديانة متمركزة حول الذات! لكن بدلاً من ذلك ابكِ معه.. خُذ وقتًا في البكاء، في التألم، وربما الغضب أيضًا- لكن لا تفقد إيمانك."

من الطبيعي والحتمي للآباء والأمهات أن يغضبوا، ولكن تدريجيًا يدعونا الله أن نخرج من الضعف البشري الذي يشعر بسهولة بالظلم، ونتسربل بما يمنحنا إياه الروح القدس من تواضع وتضحية وتسليم ومحبة. هل هذه رحلة إلى التقوى باستخدام مصطلحات دينية للهروب من الواقع البشري القبيح؟ لا، على الإطلاق! الكتاب المقدس لا يشرح لماذا لا يتصرف الله أحيانًا بالطريقة التي نريده أن يتصرف بها، وإنما يركز على ما يُفترض أن نفعله نحن من سلوكيات بالطريقة التي يريدنا هو أن نتصرف بها. لقد أخذ الله، الأعلى منا، مبادرة الدخول في علاقة معنا، ولكونه الكاشف يختار أن يوضح، أو لا يوضح، ما يريده. ومهما كان هذا مستفزًا للعقلية الحديثة، لكن الله يحتفظ بحقه في ألا يكشف لنا إجابات بعض الأسئلة. أحد أهم التعاليم العملية التي قيلت لي حصلتُ عليها من مرشدي اللاهوتي بجامعة ريجنت، «چيه. آي. بيكر»، الذي قال: "الكتاب المقدس لا يجيب على كل سؤال يطرحه عليه الرجال والنساء." ليس هناك شيء يمكنك فعله تجاه هذه الحقيقة سوى قبولها.

أعرف في أعماق قلبي أن لا أحد يحب أي طفل أكثر من الله الذي خلق هذا الطفل. نعم، قد تموت من أجل هذا الطفل، لكن الله مات بالفعل لأجله. لا أحد يشعر بألم هذا الطفل أكثر من الله ذاته. عندما تذهب لتنام، تنسى محنة طفلك، لكن الله لا ينام أبدًا.. بمعنى أن ضيقة الطفل تظل دائمًا أمامه، ولا يفوت الله وخزة واحدة من الألم؛ فهو يسمع كل تنهد، ويحسب كل دمعة، ويرقب كل لحظة فزع.

الله يحب ويهتم أكثر من أي أب أو أم قدَّم أو قدَّمت حبًا ورعايةً، حتى وإن بدا غير ذلك في بعض الأحيان. وإذا قلت عكس ذلك فهذا خداع، وكذلك تجديف. علينا أن ندرك أن لدينا ميلاً غامضًا بأن نراكم غضبنا تجاه الله تدريجيًا. وإذا تركنا خبراتنا الشخصية دون مراجعة ولم

نختبرها بالحق المطلق، فإنها ستحطم الإيمان، وترعى مشاعر الاستياء، وتولِّد حالة من التمرد المتعجرف. كما ذكرنا في الفصل السابق، ربما نحتاج إلى التوقف عن الإصغاء لأنفسنا ونبدأ في التكلُّم معها، ونستدعي بوعي إلى الذهن صلاح الله واهتمامه.

لقد اكتشفت أن إبليس لديه صبر مثل الله تقريبًا.. فهو يغرس فينا فكرة أو عادة أو توجهًا قلبيًا مدمرًا، ثم ينتظر بصبر الثمرة الفاسدة لهذا التوجه أو العادة أو الفكر ليحطمنا بها. عندما لا نخضع ونسلِّم إرادتنا لله، نحن نسلِّم رقبتنا لإبليس، ونُسهل عليه أن يبث كل أنواع السموم الروحية المميتة في نفوسنا.

الله كبير وحكيم بما يكفي ليتعامل مع التعبيرات الفورية والطبيعية لغضبنا، لكن من الناحية الروحيَّة لابد أن نتعلَّم التسليم والإقرار بأن الله يعرف أكثر منّا، وأنه غير مدين لنا بتفسير فقط لأننا نريد تفسيرًا. هذا التقدُّم في مسيرتنا الروحية المقدسة يمكن أن نشبهه بقيادة السيارة وسط الضباب: قد لا نرى أية علامات، وقد نكون غير متأكدين تمامًا من أننا نسير في الاتجاه الصحيح، لكنَّ الطريقة الوحيدة للخروج من هذه الضبابية هو أن نستمر في التقدُّم عبر عدم اليقينية.

حيث تخشى الملائكة أن تطأ

بالتالي إذا أردنا أن ننضج، علينا أن نتعلَّم أن نسير في وادٍ تبدو فيه الخطية حتمية بينما يجب علينا تجنبها. توصينا كلمة الله: «اغضبوا ولا تخطئوا» (أفسس ٤: ٢٦؛ مزمور ٤: ٤)، لكن هذا يبدو لمعظمنا مشابهًا لوصية: «كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (متى ٥: ٤٨). لا نريد أن نصحح للرب يسوع كلامه، لأننا نعرف أن هذا لا يمكن أن يكون صائبًا؛ لكن إذا كُنّا أمناء، نسأل أنفسنا: "هل هو يقصد هذا فعلاً؟"

إنه بالفعل يقصد كلامه بالمعنى الذي قاله بولس لأهل كورنثوس: «اكملوا» (كورنثوس الثانية ١٣: ١١) (أو اسعوا إلى الكمال- حسب الترجمة العربية المشتركة)، بينما يعترف لمجموعة أخرى من تلاميذه قائلاً: «ليس أنِّي قد نلتُ أو صرتُ كاملاً، ولكني أسعى لعلّي أدرك الذي لأجله أدركني أيضًا المسيح يسوع» (فيلبي ٣: ١٢). بنفس الطريقة بمقدورنا أن "نسعى" لنتعلَّم كيف نتعامل مع الغضب بدون السقوط في الخطية. ولكن إذا سعينا لذلك بطريقة الفريسي بحرفيته، واهتمامه بالأداء، وبدافع الخوف، سنُهزم في غضون خمس دقائق. أبناؤنا سيتغدون بنا، وسيتمتعون بشعورنا بالذنب كالحلوى.

أعتقد أننا يجب أن نتعامل مع الغضب مثلما نتعامل مع مادة يمكن أن تكون سامةً، وهي في نفس الوقت دواء ذو فاعلية عالية.. يجب أن يُوصف أحيانًا، لكن ينبغي أن نتعامل معه بحرص، ونقنن استخدامه. للمبتدئين إذا استخدمنا الغضب لفترة طويلة، فإنه يصبح مميتًا.. لذا يجب أن نتخلص منه يوم ولادته: «لا تغرُب الشمسُ على غيظكم» (أفسس ٤: ٢٦).

الغضب الذي يطول وقته يولِّد الاستياء والمرارة؛ ومشاعر الاستياء والمرارة ستسمم في النهاية نفوسنا، إذا سمحنا لها بموطئ قدم. لا أظنها مصادفة أن بولس بعد أن يحثنا على ألا تغرب الشمس على غضبنا، يضيف مباشرة: «لا تُعطوا إبليس مكانًا» (ع ٢٧).

أحيانًا نحتاج لقوة الغضب لنتمم عمل الله. ويحتاج أبناؤنا أن يروا مدى انزعاجنا عندما يتصرفون بعدم احترام، أو بسبب أفعال قد تمثل خطرًا على حياتهم، أو تفسد شخصياتهم؛ ويحتاجون أن يروا مدى حماستنا عندما نرى الظلم. سيجني أطفالنا ثمارًا عظيمة بمجرد مشاهدة ما يثير حفيظة والديهم وأجدادهم- بشرط أن نغضب من أجل الأمور

الصحيحة! مَنْ منّا يريد أن يربي أشخاصًا غير مبالين ولا يحركون ساكنًا لأي شيء؟

لكن بمجرد أن يثيرنا الغضب، وبمجرد أن يجعلنا نعبِّر عن عدم رضانا، ويحفزنا لعمل الإجراء المناسب، حينئذٍ علينا أن ندعه ينطلق؛ وإلا سيأخذنا بعيدًا تمامًا. كُنّا على حق عندما قُمنا بمطاردة أسامة بن لادن بعد الهجمات الإرهابية التي وقعت في ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١.. كنا لابد أن نشعر بالغضب بسبب الفعل الوحشي الإجرامي الذي دبَّره. لكن مَنْ نفثوا عن غضبهم بأن ضربوا أو تحرشوا أو ضايقوا أي فرد من منطقة الشرق الأوسط قد أخفقوا في وضع حدود ملائمة لغضبهم، وسمحوا لهذا الغضب أن يقودهم إلى السقوط في الخطية.

أي معايير يجب أن نرسمها لغضبنا؟ أولاً، ينبغي أن ندخل إلى الغضب بتردد وبخوف. يخبرنا الرسول يعقوب بأن نكون مبطئين في الغضب (راجع يعقوب ١: ١٩)، كما يرى أن غضب الإنسان لا يؤدي إلى حياة البر التي يريدها الله منا. لم يكن الغضب جزءًا من تصميمنا الأصلي.. في عالم مثالي قد يبدو الغضب غير ضروري وغير ملائم. الله يُظهر غضبه على العالم الساقط وعلى الملائكة الساقطين. السقوط أدخل الغضب علينا عنوةً. لكنه يشبه العلاج بالكيماوي- مادة مهاجمة تصبح جيدة في حالة وحيدة: عندما تهاجم شرًا أكبر بكثير من أي شر تسببه.

ثانيًا، لابد أن نحجِّم غضبنا بوعي بألا ندع الشمس تغرب بينما يظل باقيًا. من التبسيط المخل أن نقول إن الحدود الروحية للغضب هي اثنتا عشرة ساعة.. إذا كنت أتحدث مع شخص قُتلت أو اُغتصبت ابنته، فلن أخبره أن لديه عشر ساعات ليغضب فيها ثم عليه أن يتجاوز هذا الغضب. غروب الشمس هو تعبير مجازي.. أي لابد أن نحتوي غضبنا في غضون فترة مناسبة، وننهيه بأسرع ما في وسعنا؛ خشية أن يولِّد

مشاعر الاستياء والمرارة. الكتاب المقدس يقصد أنه بمجرد دخولنا في دائرة الغضب، يجب أن نتحمس للخروج منها.. هذا مكان غير مناسب للاستقرار فيه. وبالرغم من أننا لابد أن نزور هذا المكان من حين لآخر، لكن لا نخطط لشراء منزل هناك. الله يخبر بلطف بني إسرائيل في القديم: «أنا أشفي ارتدادهم. أحبهم فضلاً، لأن غضبي ارتد عنهم» (هوشع ١٤: ٤).

ثالثًا، نحتاج أن ندير غضبنا بالمنطق، والنضوج الروحي، والحكمة، وطول الأناة. المحبة «لا تحتد» (كورنثوس الأولى ١٣: ٥)، أو "لا تُستفز سريعًا" (حسب ترجمة كتاب الحياة). والأسقف أو القائد الناجح لا يكون "غضوبًا"، أي سريع الغضب (راجع تيطس ١: ٧).

يصبح الغضب أحد مكونات تجاوبنا، لكن خاضعًا لنا في أحسن الظروف. نحن نعتبر الغضب كأحد المكونات في خلطة العلاقات البشرية، لكن الغضب وحده، بدون إضافة القليل من الحب، واللطف، والرقة، والصبر، ومجموعة كبيرة من المكونات الروحية، يبقى مرًا في جوهره.

رابعًا، بدلاً من الهروب من الغضب، نحتاج أن نتذكر أن الغضب المقدس هو سلاح ذو حدين. جديرٌ بي أن أغضب عندما أرى المظالم، لكن هل أغضب أيضًا بنفس القدر عندما أرتكب أنا أيضًا إحدى هذه المظالم؟ من المؤكد أنني سأشعر بالضيق إذا تصرّف ابني أو ابنتي تصرفًا أحمق أو غير أخلاقي، لكن هل سأشعر بنفس الانزعاج عندما أتصرّف بحماقة أو بشكل غير أخلاقي؟ يصبح الغضب مشكلة عندما نستخدمه فقط لتأديب الآخرين وليس أنفسنا. اثنان من أكثر الكُتَّاب المعاصرين الذين أحبهم، «دان أليندر»، و«ترمبر لونجمان»، وهما يذكراننا بأمر في غاية الأهمية:

> نصحنا الرب يسوع بأن ننظر إلى الخشبة التي في أعيننا قبل أن نتعامل مع القذى التي في عين الآخر.. أي إخفاق

أو ضعف نكرهه في الآخرين، لابد أن نكرهه في أنفسنا أيضًا. وإذا كنا نكره خطيتهم أكثر من خطيتنا، لن نكون بارين أبدًا. لكن إذا كنا نكره الخطية الموجودة في قلوبنا أكثر مما نراه في قلوبهم، فإننا سننمو في الحزن الهادئ والصبور للغضب الحقيقي المقدس.[٩]

هكذا عندما نربي «في خوف الله»، فإننا نكره الخطية لأن الله يكرهها.. نكره خطيتنا، ونكره خطية الآخر، ونكره خطية أبنائنا؛ لكن لا نحابي- كما أن الله لا يحابي. وعندما أركز على خطية الآخر (أو أبنائي)، وليس خطيتي، فهذا معناه أنني توقفت عن ممارسة الإيمان بالمسيح المبني على النعمة، وبدأت أتبع ديانة الفريسيين. تذكّر أن الآية التي ترد فيها عبارة «في خوف الله» تبدأ هكذا: «فإذ لنا هذه المواعيد أيها الأحباء لنطهر ذواتنا من كل دنس» (كورنثوس الثانية ٧: ١).

في النهاية، توصينا كلمة الله أن الحب، وليس السخط والضغينة أو الغضب، هو ما يشكل الاستجابة المسيحية. عندما لا يطيع أحد الأبناء، يدعونا الله بأن نتجاوب في حب. يمكن للغضب أن يكون خادمًا للحب، لكن لا يجب أبدًا أن يحدد الحب. يحتاج الأبناء أن يروا التزامنا الكامل تجاههم، حتى يدركوا أن غضبنا لا يعكس مصلحة شخصية (كما لو أن الإهانة الأكبر هي الإحراج الذي سببوه لنا)، وإنما يُظهر شغفًا قويًا واهتمامًا عميقًا بسلامتهم. لذا فإن الغضب الذي يعكس غضب الله هو غضب خالٍ من الذات. هناك شيء يتبقى للذات -وهو الحزن لحدوث خيانة في حق العلاقة والثقة التي اهتزت؛ لكن الحزن غالبًا ما يتعلق بما فقده مَنْ أخطأ في حقنا، وبرجائنا في أن يكون هذا الشخص في أحسن حال.

باختصار، عندما يفضح أبناؤنا عدم صبرنا وأنانيتنا، فإنهم يضعون

مرآة أمام قلوبنا. وكما أن استجابة الله تجاه أبنائه تكشف عن شخصه، فإن تربيتنا تكشف عن شخصيتنا.. إنها تفضح خطيتنا، وتضع أمامنا صورة واضحة عن أكثر الأشياء التي نعتز بها.

بالرغم أنني أُدرس حلقات دراسية للمبتدئين بعنوان "الروحانية ١٠١"، أعتقد أن تعلُّم كيفية التعامل مع الغضب يمكن أن نسميه "الروحانية ٦٠١".. لأن هذا يتطلب مستوى متقدمًا في الحياة المسيحية. أبناؤنا بمثابة الواجبات المدرسية التي يجب أن نؤديها، وانفعالاتنا المختلطة تصبح بمثابة المراجع الدراسية، والشخصية التي ستظهر بمثابة الدرجة النهائية.

حقائق غير مريحة

في السادس من أغسطس عام ١٩٤٥ سار فريق من الرجال يتألف من اثني عشر رجلاً بوجوه متجهمة نحو قاذفة القنابل التي تزن ٦٥ طنًا، وتسمى "إينولا جاي". وبعد عدة ساعات أسقطوا قنبلة لها قوة تدميرية تقدر بعشرين ألف طن من مادة تي إن تي، وبالتالي أطلقوا أول حالة مرعبة للحرب النووية. وعلى بعد خمسة أميال من القاذفة، تحولت هيروشيما إلى رماد. ثم بعد أسبوع قنبلة أخرى، واستسلمت اليابان أخيرًا.

عندما عاد الفريق إلى الوطن، شعروا بالدهشة عندما اكتشفوا أنهم أصبحوا مشهورين؛ وبسرعة اعتاد كل واحد منهم على أضواء الكاميرات وإيماءات التشجيع من الآخرين. كان الناس يدفعون لهم ثمن وجبة العشاء في المطاعم، وكانوا يُدعون لموائد كبيرة ومنازل فارهة، وظهرت صورهم في الصفحات الأولى للصحف القومية.

ثم قدَّمت أخيرًا إحدى الشخصيات البارزة في واشنطن استقبالاً اتضح في النهاية أنه مشين لأحد هؤلاء الطيارين.. الحلوى جاءت في شكل غريب؛ فقد خُبزت وزُينت الكعكة على شكل انفجار نووي. والتقط

أحد مصوري الصحف هذا المشهد غير المتوقع.. أحد الطيارين يبدو انزعاجه واضحًا بينما يمسك سكينًا فوق التورتة، وتقف بجواره المضيفة مبتسمة كما لو كان حصانها ربح للتو. في غضون أيام انتشرت الصورة في كل أرجاء البلاد، الجميع شاهدها، والجميع تقريبًا كان لهم نفس رَد الفعل.. تصف «چوي ديفيدمان» الأمر جيدًا كالتالي:

> نتيجة لذلك فإن ضمير أمريكا الذي ليس من السهل إيقاظه أو إثارته بلغ كتلة حرجة، وأدى إلى انفجار صغير جدًا من تلقاء نفسه. وبصرف النظر عن موقفنا.. مناصرين كنا للسلِّم أو الحرب، مدنيين أو جنودًا، مناصرين للشيوعية أو ضدها، كلنا كرهنا هذه الكعكة. لقد كانت واحدة من الأمور التي اتفق عليها كل الرأي العام مع اختلاف توجهاتهم.. كانت هذه الكعكة شيئًا بذيئًا. قد يختلف المسيحيُّون في هل يجوز القتل في بعض الحالات أم لا، لكنهم لا يختلفون في هل تجوز الشماتة في عدو مهزوم. إلى هذا اليوم لم يتمكن العالم من الاتفاق على هل كانت قنبلة هيروشيما ضرورية أم لا. لكن هناك شيء واحد سنتفق عليه جميعًا: سواء كانت ضرورية أو لا، لم يكن الأمر مُزحة.[١٠]

الغضب، مثل الحرب، هو إحدى الحقائق المزعجة في الحياة. عندما نعيش في عالم ساقط، ونربي أبناءً ساقطين، فإننا نُجبر على مواجهة ضرورات مزعجة. كلنا نتمنى لو لم نضطر إلى الغضب، تمامًا كما نتمنى كلنا لو لم تضطر بلادنا أن تذهب إلى الحرب؛ لكن من المحزن أن الخطية تتطلب أحيانًا استجابة عنيفة. وحتى يعود المسيح ثانية، ستظل الحروب تندلع بين الشعوب، وحتمًا سيشتعل الغضب بين الوالدين وأبنائهما. بعضنا -من الضعفاء أمثالي- يدخلون حلبة الغضب، ويتبنون هذه

العاطفة بخوف وندم شديدين، وتقريبًا في معظم الأحيان بجرعة كبيرة من تأنيب الذات. آخرون -وهم الأكثر عنفًا- يزدادون ألفة مع هذه العاطفة.. فهم يمرحون فيها، ويرحبون بها، ويبدو أنهم يتمتعون بها، ويعيشون لها. كلا النوعين سيتلوثان بها.. النوع الأول بنعومتهم، والنوع الثاني بتهورهم.

مع الأسف، لا نستطيع الهروب من حقيقة أن التربية المقدسة تدخلنا في مناطق روحية عصيبة، وتجنب هذه المناطق يمثل خطية، وبنفس الدرجة يمثل فرصة ضائعة للمجد. من المفارقة أن معظمنا سيخفق على الأرجح في كلا الاتجاهين! لكننا لا نستطيع تجنبهما.. لابد أن نواجه الغضب مدركين أننا سنخطئ في غضبنا، ومدركين أن الله سيغفر لنا بينما يستخدم هذه العملية ليجعلنا أكثر شبهًا بالابن الذي حمل غضب الله المقدَّس نيابةً عنا.

"مع ولادة الطفل، فإن عمرًا من الغرور يتبخر دون أثر."

– ريتشل كاسك

«فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا:

الذي إذ كان في صورة الله،

لم يَحسب خُلسةً أن يكون معادلاً لله.

لكنه أخلى نفسه، آخذًا صورة عبدًا...

لذلك رَفَّعه الله أيضًا، وأعطاه اسمًا فوق كل اسم.»

– فيلبي ٢: ٥– ٧، ٩

الفصل الثامن

المجد المستتر وراء التعب

كيف تعلِّمنا تربية الأبناء
أن ننظر فيما وراء بريق المظهر

تعترف الراباي «نانسي كريمر» أنها لم تفهم أبدًا الفكرة المسيحية عن التجسُّد الإلهي حتى ولدت طفلاً.

كانت نانسي وزوجها يمكثان بداخل بيتهما يستدفئان في الرابع والعشرين من ديسمبر، ويحتضنان رضيعهما في يومه السادس، عندما طرق كاهن كاثوليكي باب بيتهما. كانت نانسي ملتحقة بالجامعة في ذلك الوقت، لذا افترضت أن هذا الكاهن جاء ليتابع ما وصلت إليه في الدراسات العليا الخاصة بها؛ فشرحت له أنها لم تستطع القيام بأمور كثيرة في الأسابيع الماضية باستثناء ولادة هذا الصغير الذي تحمله بين ذراعيها. لكن سرعان ما طمأنها الكاهن أنه لم يأتِ بسبب

الرسالة، بل كما قال: "إنه عيد ميلاد الرب غدًا، لذا أردت أن أُمسك طفلاً بين ذراعيّ."

أشعلت تعليقات الكاهن لحظة من الإلهام الإلهي لدى نانسي: "لأني درست المسيحية، فقد قرأت عن التجسُّد، لكني لأول مرة 'أفهم الأمر'. في الخيال المسيحي، ظهر الله كطفل صغير مثل هذا!"[1]

ما تشير إليه نانسي بالخيال المسيحي نسميه نحن حقيقة تاريخية، لكننا نستطيع أن نتفهم تعجبها.. جسد الرضيع يبدو كوعاء بلا جاذبية أو رونق حتى يسكن إله فيه. الأطفال الرضع يسيل لعابهم، ويبكون، ويوسخون حفاضاتهم.. إنهم يمثلون كل شيء لا يُفترض أن يتصف به الله: الهشاشة، والضعف، وقبل كل شيء الاعتمادية الكاملة. ومع ذلك جاء إلهنا في هذه الصورة غير الجذابة! أيُّ حكمة عميقة كانت لديه ليأتي بهذه الفكرة؟!

إن الحبل بالأطفال وتربيتهم يأخذاننا عبر نفس هذه الرحلة من التواضع.. ينتفخ جسد الأم، ويتمدد، ويتورم بينما تستعد للترحيب برضيعها في هذا العالم؛ وتُستبدل نضارة شبابها باحتجاز الماء في جسدها، وتتورم كعباها حتى يصيرا بعرض رقبتها، وأحيانًا يتمدد الجلد ولا يعود كما كان. ولا يتسبب الصغار في تغييرات جسدية فحسب، بل أحيانًا يتصرفون مثل موجة تسونامي في المواقف الاجتماعية، وبالتالي يقضون تمامًا على حياتك الاجتماعية التي كانت براقة في الماضي.

الكاتبة «راتشيل كاسك» كان لها ابنة تُصاب كثيرًا بالمغص، وهو ما سبَّب لها في مرات كثيرة شعورًا بالحرج كلما بدأت ابنتها في عويلها في أوقات غير مناسبة:

كانت تبكي وهي تُحمل على الصدر أثناء التمشية، وفي عربة

الأطفال بينما أحاول التسوق، وفي الأتوبيس، وفي المترو، وفي بيوت الأصدقاء والمعارف، بين ذراعي وأذرع الآخرين... كنت أجري بها إلى البيت وهي تصرخ بين يديّ، بينما اسحب عربة الأطفال خلفنا بجنون. بينما الناس يحملقون كنت أقفز لأغادر الأتوبيس في أي مكان، كنتُ أهرب من المطاعم، وأنهي المكالمات التليفونية بدون تفسير.[٢]

هل هناك مَنْ اختبر شيئًا مماثلاً؟

بعد عدة أشهر أصبح البكاء المستمر "طبيعيًا" ومعتادًا، وفي النهاية استطاعت راتشيل أن ترى الفائدة الروحية لتلك الأسابيع العصيبة:

مع كل نوبة بكاء كانت تعلمني ما هو واضح وصعب: أن حناني، ومحاولاتي البلهاء لتسليتها، وساعات الحب الغزير، والطابع الخاص الذي حاولت أن أضفيه على رعايتي لها، كل هذا كان شيئًا زائدًا لا قيمة له تمامًا، مثل أوقات غضبي ويأسي... كنت أعتبر توقفها عن البكاء إشارة على أنها ترى رعايتي لها ناجحة، وأنني أستحق لقب أم... ومن هنا نستطيع الآن أن نبدأ بحذر شديد مشوار الحياة معًا.[٣]

أتذكر مرةً دعتني كنيسة ما لإلقاء كلمة بعد صدور أول كتاب لي، وأعد قادة الكنيسة استقبال غداء في بيت أحد الشيوخ بعد الخدمة لكيما يتاح للبعض فرصة التحدث معي ومع ليزا زوجتي. اعتادت رضيعتنا أن تخزن فضلات الهضم لما يقرب من أسبوع، ثم قررت أن تُفرج عن هذه الفضلات قبل الموعد المحدد لتناول الطعام بخمس عشرة دقيقة فقط. كانت ليزا ترضعها في حجرة خلفية عندما حدث الانفجار- لا توجد

كلمة أخرى تعبِّر بصدق عما حدث. وضعت ليزا منشفة تحت الرضيعة، لكن ابنتنا كانت تتحرك كبندول الساعة؛ فظلت تتحرك يمينًا ويسارًا، وسرعان ما تسربت الفضلات من الحفاض، وانتشرت خلف المنشفة. دخلت امرأة لتخبر ليزا أننا على وشك تناول الطعام، وبشهقة مرتعبة سألت ليزا: "كيف أساعدكِ؟"

قالت ليزا: "أحضري لي زوجي!"

كان يحيط بي عدة أشخاص يسألونني أسئلة مختلفة، عندما أخبرتني امرأة أن ليزا تحتاجني "فورًا". دخلتُ الغرفة ولم أصدِّق عينيّ.. يبدو الأمر مستحيلاً؛ إذ كيف لهذا المخلوق الصغير أن يتخلص من فضلات بحجم فضلات فيل. سألتني ليزا وهي مرتعبة، وتنورتها غير قابلة للإصلاح: "ماذا يُفترض بي أن أفعل؟"

تسللتُ وأخبرت مضيفتنا أننا يجب أن نرحل، وعندما حاولت أن أشرح الأسباب، قالت: "ابنتي مثل زوجتك في الحجم، ويمكن أن تقرضها تنورة."

أحضرتُ لليزا التنورة النظيفة، وظننتُ أنني قد حللت المشكلة. لكن ليزا لم تؤيد ذلك.. كانت قد ارتدت تنورة ثقيلة جدًا، لذا لم تضطر إلى ارتداء قميص تحتي، لكن التنورة النظيفة كانت خفيفة وكاشفة خاصة في ضوء الشمس. وليزا شعرت بالحرج أن تقر بأنها لا ترتدي قميصًا تحتيًا؛ لذا مرة أخرى ابتلعتنا معضلة أخرى مُربكة.

كان علينا أن نضحك رغمًا عنا.. كُنا في هذا الاستقبال لتكريمنا، لكننا لم نشعر بمثل هذا الحرج في حياتنا من قبل! مَرَّ الموقف، بالرغم من أن بعض أعضاء الكنيسة لا يزالون يتساءلون لماذا لم تكن تريد زوجة المؤلف مغادرة المائدة، وعندما تفعل كانت ترتدي المعطف بالرغم من حرارة الشمس.

بعد عدة سنوات، كان ابني جراهام يلعب مع ابن أحد رعاة كنيستنا في نفس فريق كرة البيسبول. وبعد المباراة النهائية، توجهنا كلنا إلى مطعم به بوفيه مفتوح للاحتفال. كان ذلك حوالي الثامنة مساءً، وصديق جراهام -ابن راعي الكنيسة- لم يتناول أيًا من السلطات، وأكل قليلاً من البيتزا، ثم التهم الكثير من الآيس كريم والبودنج. قلتُ لوالده: "ألا تتذكر الأيام حين كنا نأكل كل هذا الحجم من الحلويات ولا ندفع ثمنها؟"

قضى ابني تلك الليلة في بيت راعي كنيستنا. واستيقظ جراهام فجرًا عندما سمع بعض الصخب، وخرج من الغرفة ليرى والد صديقه بملابسه الداخلية وهو ينظف آثار التقيؤ على السجاد. من الواضح أن صديق جراهام لم يتحمل تناول كل هذه الكمية من الآيس كريم، وكانت النتيجة أن ذلك عاد عليه بطريقة جسدية عنيفة جدًا. كان جراهام معتادًا على رؤية راعي كنيسته مرتديًا ملابس أنيقة أمام شعب الكنيسة كله؛ لذا من الطبيعي أنه ضحك عندما شاهد منظرًا مختلفًا. وعندما حكى لي القصة مرة أخرى قلت له: "حسنًا، هذه إحدى الطرق للتعرف أكثر على راعي كنيستك!"

هذه المغامرة البسيطة لجراهام علَّمته درسًا مهمًا: مهما كان مستوانا الاجتماعي مرتفعًا، فعندما يكون لدينا أطفال سيأتي يوم عندما نجد أنفسنا في أكثر المواقف حرجًا- بما في ذلك تنظيف آثار التقيؤ ونحن بملابسنا الداخلية في الثانية صباحًا. أما الفائدة الروحية الإيجابية فهي أن هذه المواقف تجعلنا نتحوَّل تدريجيًا عن تقدير البريق السطحي للمظاهر، وتساعدنا في التركيز بالأحرى على الجوانب المؤثرة في العلاقات المهمة.

المعارف وشبكة العلاقات -ملعب الأقوياء ظاهريًا- تسمح لنا بالدخول والخروج من مواقف كثيرة بدون اهتمام أو تبعات؛ لأن التركيز يكون

مُنصبًا على التظاهر بالكفاءة، أو المشاركة، أو الجاذبية، وترك انطباع إيجابي لدى الآخرين. لكن العلاقات الحقيقية لا تكون بلا آثار هكذا.. ترتبك الأمور؛ فنرى الجانب الرديء من الحياة، ونكون مطالبين بأن نغفر وأن نحب بلا شروط. العلاقات الحقيقية تأخذنا إلى كل شيء تسمح لنا العلاقات الاجتماعية الشكلية بتجنبه.. فإذا أردنا العلاقات الحقيقية بدلاً من تلك السطحية، فإن تذوقنا للحميمية سيتدرب في اتجاه روحي إيجابي؛ وسنبدأ في الاهتمام بشكل أقل بالمظهر وبشكل أكبر بالجوهر.. سنفهم أن الحميمية الحقيقية تحتاج إلى ثمن، وتدعونا إلى التزام أعمق من ترك انطباع جيد أو ارتداء قناع مزيف.

بالرغم من عدم وجود عيب في المظهر الجذاب في حد ذاته، إلا أن أنشطة هامة كثيرة مهمة في الحياة تدعونا إلى أن تتسخ أيدينا. والتربية على نحو خاص تنهضنا من استغراقنا في الذات، وتدعونا إلى الاشتراك في شيء أكبر من مجرد المغامرة، بل وأعظم من المظاهر الجذابة.. إنه تشكيل حياة إنسان، وتحديد مصير نفس خالدة. إنها عمل غير مهندم، لكنه هام للغاية!

يا له من قوام!

هذا التحول من تقدير المظهر إلى التركيز على الجوهر يمثل رحلة روحيَّة لا غنى عنها، خاصة في ظل ثقافة تفضِّل البهرجة الخارجية علي أي شيء آخر.. وإلا كيف نفسِّر العدد السنوي من مجلة «People» عن "أجمل خمسين شخصية"، وبأسماء يعرفها معظمنا، بينما هناك العديد من العلماء، ورواد العمل الاجتماعي، والقادة الدينيين ممَنْ يكدحون دون أن يدري أحد؟!

أكثر شيء مُحزن هو كيف أصبحنا نعرِّف البريق.. إن عبارة مثل

"أمهات مثيرات جنسيًا" تبدو متناقضة عادة! ومع ذلك عندما تفكِّر في الأمر كيف يتوقع الناس أن تصبح المرأة أمًا؟ الجنس وامرأة عزباء يجب أن يمثلا تناقضًا لفظيًا، وليس الجنس والمرأة المتزوجة أو الأم! بالرغم من ذلك، فمحلات الملابس الداخلية النسائية تمجّد النساء اللواتي -حسب الإعلانات- لم يزد وزنها أبدًا كيلو جرامًا أو اثنين من الدهون، ناهيك عن أن تحمل طفلاً يزن خمسة كيلو جرامات. يُصوَّر الجنس الآن على أنه ملعب العُزاب، وهو ما أدى إلى تعريف للجاذبية الجنسية يستخدم بوضوح مصطلحات لا علاقة لها بالأمومة.

هذا قد يبدأ مبكرًا.. شعرت إحدى صديقاتنا المقربات بالرعب عندما وقفت لتدفع حساب مشترياتها في المتجر بينما رات عيني ابنها الصغير تتسع وهو يحدِّق في صورة امرأة على غلاف مجلة، ويقول: "يا إلهي، انظري إلى هذا!" أمسكت الأم المجلة وهي مذعورة لكي تقلبها على وجهها، وهو يقول: "ليتها كانت أمي!" لم يفهم الصبي الصغير أن المرأة عندما تنجب أطفالاً وترعاهم لا يتبقى لديها طاقة لتمارس التمرينات الرياضية ثلاث ساعات يوميًا، أو لترتدي هذا النوع من الملابس الرقيقة التي ستتمزق بسهولة إذا تشبث بها طفل صغير، أو لتحافظ على تسريحة شعرها التي تحتاج إلى لمسات متكررة لتعديلها.

المراهقون الذكور يميلون إلى أن يكونوا قصيري النظر، بينما ينظرون إلى جسد المرأة كأداة للمتعة وللجنس فقط. إن المجلات التي تقدم صور العارضات وهن يرتدين الملابس الداخلية النسائية أو ملابس البحر يتم تسويقها للذكور في أواخر المراهقة وفي العشرينات. ولكن عندما ينضج هؤلاء الشباب ويشاهدون زوجاتهم وهن يجتزن تجربة الحمل والولادة، يبدأون في رؤية هذه الأجساد -التي كانت تشكل في مرحلة ما مصدرًا للمتعة فقط في أذهانهم- كأدوات إعجازية للاعتناء، والرعاية المانحة

للحياة، والحميمية العميقة غير الجنسية.. هذه محطة ضرورية في رحلة أي رجل نحو النضوج.

من المؤكد أن بعض النساء قد يشعرن بالإساءة بسبب ما قلته للتو.. لكني لا أقول إن النساء يمثلن إما أدوات للمتعة الجنسية أو مربيات. إنني أحاول أن أصنع تفريقًا أكثر عمقًا جدًا.. كل من الرجال والنساء لابد أن يجتازوا عبر رحلة من التمركز حول الذات (بالتركيز على ترك انطباع، والحصول على ما أريده من العلاقة) إلى تقديم الرعاية إلى آخرين.. وهذا تحول كبير ومهم جدًا في نظرة الإنسان للحياة وما فيها. ويمثل إنجاب طفل وتربيته معًا أهم نقطة في هذا التحوُّل، وتُظهر الطريقة التي ننظر بها إلى أجسادنا وأجساد الآخرين فهمنا لهذا التغيير. بينما كان العالم قبلاً يبدو مكانًا مليئًا باللذة، ومكانًا نركز فيه على اللذة، ونتمرس على اللذة، فإنه يصبح لوحةً نستطيع أن نرسم عليها خبرات حُب باذل. وبينما نتعلَّم أن نقدِّم الحب ونقبله، لا نفقد تذوقنا للذة، لكن تتسع أرواحنا لننظر إليها بطريقة جديدة.. فنجد أن تقديم الرعاية، وتوفير الحنان، وتعلُّم التضحية نيابة عن شخص آخر يُضفي معنىً أكثر عمقًا من أكبر لذة يمكن تخيُّلها.

يصبح جسد المرأة دليلاً واضحًا على هذا التحوُّل العميق.. ولادة الأطفال ثم رعايتهم يمكن أن يغيِّرا فكرة الزوجين عن الجسد تغييرًا جذريًا. هذان الثديان الجميلان، بين ليلة وضُحاها، يتحولان مؤقتًا إلى ماكينات تصنيع؛ ولا يعودان يؤديان وظيفة تجميلية أو للجاذبية الجنسية فقط- بل يكونان مصدرين أساسيين للتغذية، ويمرران لبن الحياة. قبل الرضاعة عادة ما ترى المرأة ثدييها فقط من حيث الحجم والشكل والجاذبية للجنس الآخر؛ لكن الآن تحوَّل هذا الجزء من جسد المرأة، الذي طالما أحاطت به الرومانسية، إلى مسار للرعاية وشريان للحياة.

أخبرتني إحدى السيدات أنها قبل أن تلد كانت تعتبر مظهرها الجسدي أهم رصيد لديها.. هذا أمر مؤسف وشائع في عالمنا الذي يهتم بالمظاهر. المفارقة الكبرى أن مراحل الحمل قد تؤدي إلى انتفاخ جسد المرأة، لكنها أيضًا قد "توسِّع روحها" لتحررها من هذه القيود السطحية. الرضيع لا يهتم هل تشبهين ملكات الجمال أم لا، لكنه يريد فقط أن يُحضن ويتغذى.

تلخص «راتشيل كاسك» هذا التناحر الذي تشعر به النساء -بين الشكل الجميل وتقديم الرعاية- عندما تكتب عن الظهور أمام الناس مع ابنتها الرضيعة:

> عندما نخرج لنتمشى، أرى شابات في الشارع، جميلات وبلا هَم، فيعتصر قلبي شعور مفاجئ بالحزن على نفس تائهة ومعوَّجة. أنظر إلى ابنتي وهي نائمة في العربة، وأطراف رموشها الداكنة تشكل قوسين على بشرتها الشاحبة، وتعصف بي رياح عكسية من الحب. هكذا أكون لبعض الوقت.. أترنح هنا وهناك، كإبرة مغناطيسية في مقياس مجنون ومحموم يحاول أن يجد جهة الشمال.[٤]

كأب شاب، كانت تفصلني سنوات قليلة عن التمشي في الحرم الجامعي والرغبة في "الظهور بوسامة". لكن في صباح يوم أحد بعد مجيء أول مولود لنا، خطر ببالي في طريقي إلى الكنيسة أنني لم أجد وقتًا لأنظر في المرآة لأرى هل مشطت شعري أم لا! لقد ركزت تمامًا على تجهيز الرضيع لدرجة أنني نسيت نفسي تقريبًا. يا له من تحوُّل روحي رائع!

السبيل إلى النضوج طريق متعرج صعب تُهجر فيه الأفكار الغارقة في الرومانسية عن الجمال والقيمة المبنيين على المظاهر وحدها، لكنه طريق لا غنى عنه، وهو طريق روحاني هادف. إنه لا يؤثر فقط على نظرة

المرأة لذاتها، بل ويغيِّر نظرتها لزوجها أيضًا. لو كانت الحميمية الجنسية تتعلق باللذة فقط، فهذا جانب واحد؛ لكن عندما تقود الحميمية الجنسية إلى الأبوة والأمومة، فهذا أمر آخر يتضمن منظورًا مختلفًا تمامًا. قد تغازل المرأة أخطر أنواع الرجال وأكثرهم غموضًا لمجرد التسلية، لكن بمجرد أن تبدأ في التفكير في الأبناء، ربما تجد نفسها منجذبة إلى شخص أكثر استقرارًا.

تكتب «إيريس كراسناو» عن هذا في كتابها "الاستسلام إلى الأمومة" (Surrendering to Motherhood): "تذكري تلك المرحلة عندما كنتِ تريدين طفلاً أكثر من أي شيء آخر، وكان كل ما لديكِ مجموعة متعاقبة من المُحبين المُتصابين؟ اشكرن الله على أزواجكن.. هؤلاء الذين نجحوا أخيرًا في الوصول إلينا."[٥] قد لا يبدو هذا الزوج مثل توم كروز، أو لا يكون لديه عضلات أرنولد شوارزنجر، لكنه متاح لكِ فقط. قد لا يكون قادرًا على إضحاك الجماهير مثل جاي لينو، لكنه يقدر أن يجعلكِ أنتِ تضحكين. ربما لا يملك أرصدة بيل جيتس في البنوك، لكن كل ما له هو لكِ. وأنتِ تحبينه لذلك، بطريقة ربما لم تكوني تُقدرينها في الماضي.

الطفل يجعل المرأة تتجاوز النظر إلى الصلع في رأس الرجل، وأيضًا بطنه الممتدة (الكرش)، وتقع في حب قلبه واستقراره ودعمه وقوته. ويمكن أن تحدث عملية مشابهة لدى الرجال فيما يتعلق بنظرتهم للنساء.

ميلٌ نحو الرعاية

عرضت الفنانة والمخرجة «روزانا آركيت» فيلمًا تسجيليًا مثيرًا بعنوان "رحلة البحث عن ديبرا وينجر" (Searching for Debra Winger) في مهرجان «كان» السينمائي عام ٢٠٠٢. جاءت فكرة الفيلم عندما اكتشفت روزانا أن ديبرا وينجر، التي تم ترشيحها ثلاث مرات لجائزة الأوسكار،

قد اعتزلت العمل في عمر التاسعة والثلاثين لأن الأدوار النسائية في هذا العمر لم يعد عليها إقبال.

أدركت ديبرا وينجر مبكرًا في مسيرتها المهنية أن المرأة الموهوبة لن تقضي إلا فترة قصيرة في هوليود. وتحكي عن وقت تصويرها فيلم «An officer and a Gentleman» عندما اقترب منها أحد المنتجين خارج التصوير وبيده مظروف.. توقعت ديبرا أن الخطاب يحتوي على كلمة تشجيع أو ربما مديح عن نجاح الفيلم؛ لكن هذا الخطاب القاسي كان يقول: "تبدين منتفخة قليلاً عندما تركضين." وبداخل المظروف وضع قرصًا من أقراص التخلص من الماء الزائد في الجسم.

كانت ديبرا لا تزال في العشرينات من عمرها.

يعاني العالم اليوم من ميل نحو وضع الفتيات في قوالب جنسية، ونزع هذه القوالب عن النساء.. وهو عكس الترتيب الطبيعي الذي وضعه الله. أصبحت «بريتني سبيرز» الرمز الجنسي لعصرنا حتى قبل أن تصل للسن القانوني الذي يتيح لها التصويت في الانتخابات؛ بينما امرأة في التاسعة والثلاثين (ديبرا وينجر) كان عليها أن تتقاعد من العمل في هوليود لأنها كبرت في السن جدًا! في الفيلم التسجيلي الذي أخرجته روزانا تتحدث الممثلة «داريل هنا» أنها في عمر الواحد والأربعين، وكثيرًا ما تظهر بدور الأم. فسألها الزملاء: "ألا يضايقكِ هذا؟" لكن داريل أصرت على أن هذا لا يضايقها- إلى أن تذهب إلى خزانة الملابس وترى الملابس الواسعة جدًا والقبيحة التي كان يُطلب منها ارتداؤها، خاصة مع باروكة شعر بنية اللون غير جذابة على الإطلاق.

هناك شيء خطأ -خطأ فادح جدًا- عندما تحدد الفتاة مقاييس الجاذبية الجنسية، ويُنظر للمرأة أن ذروة شبابها قد انتهت قبل بلوغها الأربعين.

الدروس التي تعلِّمها إنجاب وتربية الأبناء للرجال يمكن أن تغيِّر حياتهم في هذا الأمر: علينا جميعًا كرجال أن ننتقل إلى مستوى من النضوج يتجاوز النظر إلى النساء كأدوات جنسية. عندما نختبر معجزة الولادة مع زوجاتنا، ونشاهدهن وهن يرضعن الأطفال، فهذا يدربنا على النظر إلى النساء نظرة شاملة، وأن نحترمهن بمعزل عن الجانب الخاص باللذة الجنسية. هل هناك شيء مثير للشفقة أكثر من رجل في الأربعين أو الخمسين من عمره ولا يزال ينظر إلى النساء على أنهن أدوات للمتعة؟ أليس هذا هو أفضل تعريف للرجل غير الناضج؟!

عندما أتحدث عن "الرجل غير الناضج" فأنا أتحدث عن شيء حقيقي.. لقد اكتشف الباحثون ثلاثة مسارات عصبية للاستجابة الجنسية لدى البشر: الشهوة، الانجذاب، التعلُّق.[٦] تمثل الشهوة الاستجابة البدائية جدًا، لكن توجد اثنتان من الاستجابات العُليا في المخ تتضمن الانجذاب والرومانسية، ويتبع ذلك المسار العصبي للتعلُّق الذي يسمح لنا بالارتباط ببعضنا البعض. بالنسبة للمسار الأخير، وجد الباحثون أن "بعضًا من أقوى الموصلات الكيميائية العصبية في المخ تُفرز خلال هذه العملية الخاصة بالتعلُّق."[٧]

ومن الناحية الروحية، الرجل أو المرأة الذي يقف عند مرحلة الشهوة فقط هو غير ناضج. الأكثر من ذلك أنه يُحرم من أكثر الخبرات الحياتية قوةً، وهي الارتباط المخلص. هذا الارتباط المخلص يولّد إفرازات مختلفة عن إفرازات الشهوة أو الرومانسية، لكن تياره التحتي الأكثر هدوءًا يتزايد في القوة، والمعنى العميق، وفي النهاية يكون أكثر إشباعًا. قد ينقصه القوة البدائية للشهوة، لكنه يحمل الشبع العميق للبهجة- هذا نوع من الشبع لا يختبره الرجال السطحيُّون الذين يظنون أنهم يقايضون في صفقة عندما يُطلقون زوجاتهم ويتزوجون امرأة أصغر سنًا.

عندما يختبر رجل يقظة روحية بشكل عميق، فإن بعض التصرفات تصبح بعيدةً عن مخيلته تمامًا.. فكيف يمكن لرجل حساس حتى أن يتخيَّل فكرة الاغتصاب؟ الرجل الواعي روحيًا قد يتقيأ أمام أي ميل نحو التحرش أو الانتهاك الجنسي لطفل بريء؛ فهو يميل طبقًا لقرار واعٍ نحو تقديم الرعاية والحماية والحنان، وقد أصبح عدوًا للاستغلال، ومناهضًا شرسًا لانتهاك الآخرين.

يبدو أن النساء يعرفن هذا بشكل فطري.. كشاب في العشرينات تسببت دون قصد في الشعور بالذعر لدى النساء اللواتي يخرجن للجري في الصباح الباكر أو في المساء. وكان الأمر محبطًا جدًا، لأنه لم تُجدِ محاولاتي لطمأنتهن أي نفع.. فإذا أعلنت وجودي من خلف كُنَّ يقفزن من الفزع، وإذا تجاوزتهن بدون قول أي شيء كُنَّ يفزعن أكثر، ومهما فعلت كنتُ أمثل تهديدًا محتملاً. ولكن عندما بدأت أخرج مع ابنتي الصغيرة، تبخَّر هذا التهديد. إذا كنتِ امرأة، ستعرفين ما أتحدث عنه. تخيَّلي أنكِ تتمشين في حارة مظلمة في وقت متأخر من الليل، ثم ترين رجلاً بمفرده أمامكِ.. يبدأ قلبكِ في الخفقان بسرعة، وتتولّد مشاعر خوف طبيعية لديك. لكنكِ عندما تسمعين ضحكة لطيفة، وتلاحظين أن الرجل يمسك بيد ابنته الصغيرة، فعلى الفور تهدأ ضربات قلبكِ وتستقر.

ذات مرة تمشيت دون أن يضايقني أحد في أرجاء مدرستي الابتدائية القديمة.. لو كنتُ بمفردي، ربما لطُردت بواسطة أحد أفراد الأمن؛ لكن حيث أنني كنت ممسكًا بيد ابنتي ذات الست سنوات، موضحًا أنها تريد أن ترى مدرستي القديمة، كانت لي الحرية لأطوف عبر المكان كله. لماذا؟ في هذه اللحظة كنت رجلاً "يربي ويرعى"- وهذا النوع من الرجال لا يمثلون خطرًا على أحد.

الرجل أو المرأة الذي يميل إلى الرعاية والحنان لا يعود يعيش لنفسه

أو لنفسها؛ فهو يعيش أو تعيش من أجل الآخرين. هذا يعبِّر عن روح المسيح، الذي بينما اقتادوه إلى الصليب كان يعزي النائحات عليه: "يا بنات أورشليم، لا تبكين عليَّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن" (لوقا ٢٣: ٢٨).. حتى في أحلك لحظاته يهتم الرب يسوع بالآخرين؛ فهو ليس مشغولاً بترك انطباع! كان جسده نازفًا، ومتسخًا، ومشوهًا، ومسحوقًا؛ لكنه كان مشغولاً بمحبتنا والتضحية من أجلنا والاهتمام بنا، لدرجة لا تجعله قلقًا بشأن مظهره. كان الابن، في حالته المجيدة، في جمال لا يُقارن؛ لكن في تجسده كان محتقرًا ومكسورًا ومسحوقًا.

يصبح العالم مكانًا مختلفًا تمامًا عندما نتعلَّم العطاء بدلاً من الأخذ.. أن تكون فاتنًا فهذا يتعلق بالمظاهر والأخذ، أما الاهتمام بالآخر فهو يتعلق بالجوهر والحب. بالطبع، الرغبة في الأخذ ليست شيئًا سيئًا، لكنها تحتاج إلى إطار وحدود. من المؤكد أنها تحتاج إلى تفريغ وإعادة تفريغ من حين لآخر في الاتجاه الصحيح.. وتربية الأبناء توفر ذلك وأكثر.

التربية تقودنا إلى اتخاذ منعطف هام في طريقنا نحو النضوج؛ فهي تساعدنا على استكشاف حقائق جديدة، والانفتاح على منظور جديد- منظور جديد للرجال نحو زوجاتهم، وللنساء بشكل عام؛ وللزوجات نحو قدراتهن المذهلة وموهبتهن الروحية، ولكي يغيّرن الأمور التي تنال تقديرهن في الرجال. لهذا السبب أؤمن أنه عندما يتغذى الرضيع من ثدي أمه، فهناك أكثر من شخص يحظى بالاهتمام.. الصغير يحصل على اللبن، وكل من الزوج والزوجة يحصلان على بصيرة روحية ووعي يغيِّر حياتهما. في الواقع إن الوالدين الواعين روحيًا يغذيان روحيهما؛ فلن يعود الواحد منهما للنظر إلى جسده أو جسد الآخر بنفس الطريقة أبدًا.

المجد المغطَّى

عندما كان الأطفال صغارًا جدًا ولا يزالون يرتدون الحفاضات، كان عليَّ أن أقوم بأسوأ واجب منزلي في العالم.. التخلص من الحفاضات المتسخة. كانت ليزا كأم شابة مقتنعة بأن صغارها سيصابون بإيذاء عاطفي وجسدي وروحي طيلة حياتهم إذا تركنا حفاضًا، مما يُستخدم مرة واحدة، بكل هذه "المواد الكيميائية" تلامس بشرتهم الغالية. لذا كنا نستخدم حفاضات من القماش، والتي كانت تصدر رائحة نتنة، ويجب غمرها في دلو كبيرة من الماء والصابون، وعلى شخص ما أن يتخلص منه كل بضعة أيام.. هذا الشخص، للأسف، كان أنا.

كنتُ أعمل في خدمة مسيحية صغيرة في ذلك الوقت، فلم نقدر على شراء حفاضات للاستخدام مرةً واحدة. كنّا ننظف الحفاضات بأنفسنا، كما اعتاد الآباء والأمهات أن يفعلوا منذ العصور الوسطى، قبل ظهور وانتشار هذه "الكيماويات التي تقصر عمر الطفل" و"المواد الآكلة للأطفال"، مثل الحفاضات البلاستيكية والمناديل المبللة الجاهزة.

في إحدى الأمسيات، بينما كنت أعرف أنني سأغادر في اليوم التالي في رحلة عمل، بدأت أُفرغ دلو الحفاضات؛ حتى لا تضطر ليزا لفعل ذلك في غيابي. لازلتُ أتذكّر الرائحة بالرغم من مرور ما يقرب من عشر سنوات على هذا؛ فهذه الرائحة النفاذة وجدت طريقها مباشرة إلى أنفي، وعلى الفور حفرت لها مكانًا في ذاكرتي إلى الأبد. كان ثقل الدلو يمثل تحديًا للتحكم في تدفق الماء عندما تبدأ في تفريغه حتى لا تبلل نفسك بالمياه المتسخة بينما تفرغ محتواه في حوض الصرف. وكان عليك أن تكون حريصًا فلا تسقط الحفاضات من الدلو.. وهو ما يعني أنك ستضطر إلى التقاطها بيديك.

بينما كنت أرفع الدلو، لأثبته على حافة الحوض، جاءت آليسون (كانت

في عمر السادسة) من ورائي. في ذلك العمر، عندما كانت آليسون تريد أن تتحدث إليّ، هي لا تعرف فرصة أخرى لذلك؛ فلا يهم ماذا أفعل الآن. لذا بدأت تشد في بنطالي، ومَدت إليَّ صورة كانت في يدها أرادت أن آخذها معي في رحلة العمل، متغافلة الدلو النتن الثقيل الذي يتأرجح على حافة الحوض.

وقالت: "انظر، هذان قلبان.. هذا القلب يقول: 'أنا أحبك'، والآخر يقول: 'سأفتقدك وأريدك أن ترجع إلى البيت سريعًا'."

هزتني هذه الكلمات بقوة لدرجة أنني عجزت عن الكلام! كنت أكره تفريغ دلو الحفاضات المتسخة- كرهت ذلك جدًا؛ لكن في تلك اللحظة جعلتني بطاقة آليسون أبكي فعلاً بينما أفرغ هذه المياه المتسخة في الحوض.

هل كانت هذه المهمة الصعبة استثمارًا جيدًا لمثل هذه العلاقة مع ابنتي؟ نعم.. ألف مرة! أنا مستعد لأفرغ مئة دلو كهذا لأحصل على بطاقة كهذه. وبطريقة حقيقية جدًا، طهَّرت هذه المهمة النتنة والكريهة نفسي من الداخل.

هناك حقيقة روحية عميقة تكمن وراء الحياة والأدوار غير الجذابة التي ننفذها كآباء وأمهات.. في السماء رُفع الرب يسوع كإله، وتلقى العبادة والسجود كإله مستحق لهذا في كل زمان. ولكي يأتي إلى الأرض، فقد لبس جسدًا، جسدًا بلا بهاء أو رونق. يصف الكتاب المقدس يسوع كأقل من العادي من حيث المظاهر (راجع إشعياء ٥٣: ٢). في ذلك الجسد، لم يستطع أحد أن يتعرف على يسوع بصفته الله. لم يسقط الناس تلقائيًا على وجوههم وهم يقولون: "لقد هلكنا؛ لأننا رأينا وجه الله القدوس!" ومع ذلك كان يسوع في هذا الجسد البشري العادي ليس أقل من الله.

المظهر البراق ليس له علاقة بالأهمية والتأثير الحقيقي.. فبالرغم من أن المسيح بدا أرضيًا في جسده البشري، لكن عمله كان له أهمية بلا

نظير. لقد ترك بهاء السماء ليتسخ، وربما من حين لآخر تصدر رائحة من جسده، وكل هذا من أجلنا. لقد فضَّل أن يقيم علاقة معنا عن المظاهر البراقة والراحة السماوية.

التربية تدعونا إلى نفس الشيء! تكتب «إيريس كرسناو» عن التحوّل الذي حدث في حياتها عندما استبدلت ملابسها الفاخرة المتنوعة بقميص واحد وبنطال واحد ارتدتهما بشكل دائم تقريبًا في الأسابيع الستة الأولى من حياة رضيعها. فيما بعد، عندما عادت إلى كتابة المقالات للعديد من المجلات، طُلب منها أن تكتب نبذة عن حياة «إيثل كيندي»، وبعد اسابيع من محاولات مختلفة للوصول إلى إيثل تمكنت إيريس أخيرًا من التحدث على التليفون مع الأم المبجلة.. في نفس هذه اللحظة بدأ طفلها في الصراخ مباشرة في السماعة. شعرت إيريس بالذعر، فلم تواجه موقفًا كهذا قبل أن تنجب! لكن إيثل كيندي لم تكن غريبة عما يحدث في التربية؛ لذا طمأنتها بهذه الكلمات: "بمقدورنا أن نتكلم فيما بعد. اذهبي لتنجزي ما هو أهم."[٨]

الكتاب المقدس في غاية الوضوح.. المظاهر خداعة:

> بل اختار الله جُهّال العالم ليخزي الحكماء. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود، لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه.
>
> (كورنثوس الأولى ١: ٢٧- ٢٩)

هذه الرسالة العميقة تعني أننا لو عشنا في القرن الأول وكان يحفزنا البريق الخارجي فقط، لما تعرفنا على يسوع المسيح. وإذا كان البريق هو ما يحفزنا اليوم، فإننا سنغفل الحكمة وعبقرية الإنجيل.

لأننا اختبرنا كوالدين الافتقار إلى الرونق، نستطيع أن نصطحب

معنا خارج بيوتنا فهمًا جديدًا لما هو مهم فعلاً. في إجازة قريبة كنتُ أشتري بعض البقالة، وعندما قدم إليّ الشاب الذي يعمل على الخزانة بقية المبلغ، قلت له: "شكرًا كيرت. أتمنى لك إجازة سعيدة في الرابع من يوليو." انتفضت رأس كيرت كما لو أني جذبتها بسلسلة حديدية.. فبالرغم أن كيرت كان يرتدي شارة عليها اسمه، قليلاً ما كان الناس يقرأونها، بل وقليلون مَن كانوا يستخدمونها ليعاملوه كإنسان.. فما أندر أن يناديه أحد العملاء باسمه! الآن دائمًا ما نتحدث قليلاً في كل مرة أقف في هذا الصف.

ولأننا مررنا بمواقف مخزية، وفعلنا مهامًا غير جذابة بأنفسنا (مثل تغيير الحفاضات، تنظيف مواد متقيأة، وغيرها)؛ فقد تحررنا لنلاحظ الأشياء التي يتجاهلها الآخرون. لقد استيقظنا على حقيقة أن الجاذبية الخارجية تضلل، وأن "الأهمية" الأرضية ليس فيها كل ما يتوقعه الناس.

بهذا المعنى، بمقدور الأطفال أن يعلّمونا الأشياء المهمة فعلاً، والأشياء "الأهم"، كما قالت إيثل كيندي. حقًا يساعدنا الأبناء على أن ننضج، ونتنحى عن صبيانيتنا، ونرى في المرآة بأكثر وضوح ماذا يريدنا الله أن نكون عليه (كورنثوس الأولى ١٣: ١١ و١٢). نحن نتصرف انطلاقًا من مهابة لله، وليس حسبما تقوله مجلات الموضة عن آخر صيحات الجمال.

إذا كنتِ تركتِ العمل مؤخرًا لترعي طفلكِ، فلا تحتقري نفسك لأنكِ استبدلتِ الفساتين الضيقة بأخرى متسعة، مع منشفة فوق كتفكِ لتلتقطي ما يقذفه طفلكِ الرضيع من فمه. بمرور الوقت، ستكونين قادرة على العودة إلى هذه الفساتين (وإن كان من المحتمل أن تحتاجي مقاسًا أكبر). إذا كنت أبًا غيَّر سيارته ذات الطراز الرياضي بأخرى عائلية وعليها ملصق

يقول: "يوجد طفل بالسيارة"، فهذا جيد لك (ومع ذلك، لا أخفيك سرًا، لن يضر إذا فقدت هذا الملصق). ارفع رأسك عاليًا بينما تضيف وظيفة التربية في سيرتك الذاتية. وبالرغم من أن السطحيين من حولك قد يزدرون بك، فإن العملية التي أسلمت ذاتك لها تشبه إلى حد بعيد أقوى وأعمق تحرك على الإطلاق:

«فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا:
الذي إذا كان في صورة الله،
لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله.
لكنه أخلى نفسه،
آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس.
وإذ وُجد في الهيئة كإنسان،
وضع نفسه وأطاع حتى الموت،
موت الصليب.
لذلك رفّعه الله أيضًا،
وأعطاه اسمًا فوق كل اسم؛
لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممَنْ
في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض،
ويعترف كل لسان أن يسوع هو ربّ لمجد الله الآب.»
(فيلبي ٢: ٥- ١١)

جمال الأشياء الصغيرة

لأننا عشنا في فيرجينيا في ذلك الوقت، مَرّت سنتان منذ آخر مرة رأينا بيت أختي في منطقة «Puget Sound» (المطلة على المحيط). كانت «ليندا» وزوجها «دان» قد اشتريا منزلاً مهجورًا على قطعة من الأرض تطل

على منظر يحبس الأنفاس- منظر يملأ نفسك بالشبع مثلما تملأ معدتك بعشاء عيد الشكر. وقد اجتهد دان كثيرًا ليستفيد أكبر استفادة ممكنة من هذا المنظر الرائع النابض بالحياة.. هذا الرجل ينظر إلى المنزل ولا يرى ما هو موجود بالفعل، لكنه يرى ما يمكن أن يكون موجودًا؛ وهكذا فقد أعاد بناء المنزل من جديد تقريبًا.

تركنا سيارتنا أمام المحيط مباشرة، وصعدنا السلالم إلى الباب الجانبي. كان بإمكاننا رؤية الفناء الخلفي، وإذ عينا جراهام تلمع عندما رأى شبكة المرمى، وكيلسي تقفز عندما شاهدت الأرجوحة مثبتة.

ثم دخلنا المطبخ الذي احتوى على خزانات جديدة، ومنضدة جميلة، ثم حجرة المعيشة التي لا تحتاج إلى تعليق صور فيها.. فالنوافذ كانت كافية جدًا. تجولت في المكان، ونظرت إلى السلالم التي نُقلت (مَنْ يجدون صعوبة في فهم الرسومات الهندسية مثلي لا يستطيعون حتى تخيُّل كيف تُحرك السلالم)، ثم نزلت إلى الطابق السفلي، وسمعت والد ليزا يقول: "يا للروعة!" عندما رأى الحمام الرئيسي (شعرت بنفس الشيء، ونطقت بنفس الكلمة في أول مرة رأيته)، وبشكل عام أعجبت بشدة بالعمل الذي قام به زوج أختي.

خرجت من هذه الحالة التأملية على نداء مُلح: "العم جاري، العم جاري، تعالَ بسرعة!"

التفتُ ورأيت كولبي، ابن أختي الذي كان وقتها في عمر ثلاث سنوات، وهو يقفز إلى أعلى وأسفل: "أريد أن أريك عنكبوتًا كبيرًا له شعر كثيف!"

فقلتُ: "أين هو؟"

"تعالَ هنا، سأريك إياه!"

أصبح كولبي مراهقًا الآن، لكنه عندما كان صبيًا صغيرًا كان ينبض بالحياة، مليئًا بالحيوية والحركة، ويشع طاقة من كل جزء في جسده. وحتى عندما تبقى ذراعاه ورجلاه بلا حركة -وهذا نادرًا ما يحدث، كانت عيناه ترقصان مع الضوء.

إحساسه بالانبهار جعلني أبتسم.. الكبار ينبهرون بدقة الصنع والحرفية لمهندس يعيد تصميم منزل، ونقدّر الأجواء الرائعة التي توفرت نتيجة شهور من العمل الشاق- لكن كولبي الصغير لم يكن لديه وقت لأرضيات من البلاط الجديد، ولا لمطبخ مفصَّل خصيصًا، أو سلالم أعيد تصميمها في مكان آخر في البيت؛ لكنه شعر بالانبهار الشديد أمام عنكبوت، عنكبوت كبير له شعر كثيف.

صاح قائلاً: "إنه هنا في مكان ما، رأيته منذ لحظة فقط"، وكان يزحف على كومة من البلاط.

من المعتاد أن نتحدث عن بساطة الأطفال.. البساطة كثيرًا ما تمثل حقيقة طفولية تحاط كثيرًا بمشاعر جياشة، لكن ألا تزال حقيقة مذهلة؟ لم يكن كولبي الصغير يحتاج إلى منزل ساحر يطل على منظر أخاذ على المحيط؛ بل عنكبوت عادي -من نوعية العناكب التي تجدها في أي بيت مهجور- كان هو الشيء الذي يتحمس له. ليت الرب يمنحنا كلنا نعمة لنصبح مثل الصغير كولبي!

"الأبناء اليوم طغاة: فهم يخالفون والديهم، ويخطفون طعامهم، ويستبدون بمدرسيهم."

– سقراط (٤٧٠– ٣٩٩ ق. م.)

"لكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاةٌ مات المسيحُ لأجلنا."

– رومية ٥: ٨

الفصل التاسع

الجانب الشائك من التربية: عطية الأبناء المزعجين

كيف تعلِّمنا التربية
الصبر، وطول الأناة، والمثابرة

"هل ننجب أطفالاً الآن، أم ننتظر؟".. سألتْ هذا السؤال الصادق امرأة شابة تزوجت لتوها منذ عدة شهور. فأجابها رجل مسيحي بدا أنه شديد التمسك بالكتاب المقدس: "الكتاب المقدَّس يدعو الأبناء بركة من الرب. فلماذا أريد أن أمنع بركاتي؟ لماذا لا أطلب من الله أن يمنع عني البركات المالية، أو ألا يباركني الآن؟ لماذا لا تجربين أن تنجبي أكبر عدد من الأبناء؟ ألا تريدين بركات الله؟"

هذا الاتجاه الفكري ترجع جذوره إلى أواخر الثمانينيات وأوائل

التسعينيات، وقد كان وقتًا عصيبًا للحركة المناهضة للإجهاض. ونستطيع أن نتفهم مشاعر الكنيسة.. فقد أرادت الكنيسة أن تسترد نظرة أشمل للأبناء باعتبارهم بركة عظيمة. لا أتذكر كم مرة سمعت اقتباسًا من مزمور ١٢٧:

«هوذا البنون ميراث من عند الرب،
ثمرة البطن أجرة.
كسهام بيد جبّار،
هكذا أبناء الشبيبة.
طوبى للذي ملأ جعبته منهم.» (مزمور ١٢٧: ٣- ٥)

لكن المزامير ليست هي السفر الوحيد في الكتاب المقدس. نعم، يمكن أن يكون الأبناء بركة عظيمة، لكن بركة الأبناء ليست الحقيقة الكتابية الوحيدة. كما سنرى لاحقًا، يشير سفر الأمثال في بعض المواقف إلى أن الأبناء يمكن أن يكونوا لعنة.

في حماستنا ونحن نحتفي بالأبناء (وهو أمر جيد)، نميل أحيانًا إلى إغفال العقيدة المسيحيَّة الأساسية عن الخطية الأصلية. الطفل يمكن أن يتربى على أيدي أبوين صالحين، ومع ذلك يختار أن يعيش حياة غير صالحة: «الابن الحكيم يقبل تأديب أبيه، والمستهزئ لا يسمع انتهارًا» (أمثال ١٣: ١). بعض الأبناء قد يجلبون شرفًا كبيرًا لبيتهم ووالديهم، أمَّا البعض الآخر فيجلبون العار: «مَنْ يجمع في الصيف فهو ابنٌ عاقلٌ، ومَنْ ينام في الحصاد فهو ابن مخز» (أمثال ١٠: ٥). بعض الأبناء سيجلبون العذاب بدلاً من البهجة: «الابنُ الحكيم يُسر أباه، والرجل الجاهل يحتقر أمه» (أمثال ١٥: ٢٠). في بعض الأحيان قد يسرق أحد الأبناء من والديه (أمثال ٢٨: ٢٤)، أو يطرد أمه من منزلها (أمثال ١٩: ٢٦).

في هذا الصدد نجد الكتاب المقدس أكثر أمانة من كثير من المسيحيين

المؤمنين المعاصرين. في العهد القديم يقدِّم الله قصصًا عن أبناء ارتكبوا كل أنواع التصرفات المشينة.. أبيمالك، ابن جدعون، مثال على ذلك. لا نعرف الكثير عن جدعون وأسلوب تربيته، لكننا نعرف أن يد الله كانت مع جدعون واستخدمه في تحرير شعب إسرائيل من المديانيين. وبعد بطولات جدعون العظيمة حاول الشعب تنصيبه ملكًا: «تسلَّط علينا أنت وابنك وابن ابنك، لأنك خلَّصتنا من يد مديان» (قضاة ٨: ٢٢)؛ فرفض جدعون مُظهرًا شخصيته النبيلة والمتواضعة: «لا أتسلَّط أنا عليكم ولا يتسلَّط ابني عليكم. الرب يتسلَّط عليكم» (قضاة ٨: ٢٣).

عاش جدعون حياة من البركة بعد بطولاته العسكرية، وكان له أبناء كثيرون. ثم بعد موته اشتعل أبيمالك؛ وهو أحد أبنائه، شوقًا إلى حُكم البلاد. ولأنه كان مُصممًا على تثبيت ملكه والتخلص من كل منافسيه؛ قتل أبيمالك كل إخوته، إلا واحدًا. وبتدبير دينونة الله، مات أبيمالك عندما أسقطت امرأة حجر رحى على رأسه. يخبرنا الكتاب المقدس أن الله كان وراء هذه الحادثة: «فردَّ الله شَرَّ أبيمالك الذي فعله بأبيه لقتله إخوته السبعين» (قضاة ٩: ٥٦). من الواضح أن الله لم يجد صعوبة في اعتبار هذا الابن لعنة، وفي خطته التدبيرية أراد موت هذا الابن الشرير.

أحيانًا يصبح الابن أو الابنة متمردًا نتيجة الإهمال في التربية، ومن الجائز أن يتحمَّل الأب والأم بعض اللوم (أمثال ٢٩: ١٥). لكنَّ الطفل يمكن أن يحصل على امتيازات روحية كثيرة، ومع ذلك يختار بفضل الحرية التي منحها الله له أن يصبح متمردًا. لقد أحب يسوع تلميذه يهوذا كابن، ومع ذلك الخائن فضّل أن ينقلب عليه. كان لآدم وحواء ابن صالح (هابيل)، وابن قاتل (قايين).. ترى هل كانت تربيتهما هي العامل الوحيد الذي جعل هابيل يقدِّم ذبيحة مقبولة، وجعلت قايين يتحول إلى أخ أناني غيور ومتعطش للدماء؟

كان للرئيس الأمريكي «چون آدمز» ابن – چون كوينسي، وقد خَلَفه في الرئاسة، وتمتع بحياة مهنية مزدهرة؛ بينما كان له ابنان آخران يعيشان حياة مخزية.. أصبح «تشارلز آدمز» مدمنًا للكحوليات، ووصفته أمه بأنه "رجل فقير، وتعيس، وشرير."[1] كما وصف أحد الأقرباء «توماس آدمز» بأنه "واحد من أكثر الشخصيات الكريهة في هذا العالم... وحشيًا في سلوكياته ومستقويًا على عائلته."[2] لقد ربّى چون وأبيجايل ابنًا مميزًا واثنين يجلبان العار. هل كانت تربيتهما هي العامل الوحيد الذي حدَّد شخصية كل ابن منهم؟

أتخيَّل أنني جعلت البعض منكم يرفع حاجبه متسائلاً، بل وأتخيَّل بعض عبارات الإدانة: "كيف تجرؤ أن تقول أن الأبناء ليسوا بركة؟ لابد أنك تؤيد الإجهاض أيضًا، أليس كذلك؟"

لا، قطعًا لا أؤيد الإجهاض. في بدايات وحتى منتصف التسعينيات عملت في خدمة مسيحية تُدعى «كيرنت»، تقوم بالتطوير والتدريب لمراكز الحمل والولادة التي تدافع عن الحق في الحياة (المناهضة للإجهاض). منذ ذلك الحين، قدمت محاضرات فيما يقرب من مئة حفل خيري لمساعدة مراكز للولادة لجمع ملايين الدولارات المطلوبة بشدة. أنا مناصر للحق في الحياة، ومناهض للإجهاض بكل حماس وغيرة ووضوح. لكن لديّ ما يكفي من الخبرة الحياتية لأعرف أن التربية –حتى التربية المقدسة– ليس لها أية ضمانات، وأشعر بالأسى على الآباء والأمهات الصالحين والأتقياء والودعاء الذين تلقوا معاملة كالمنبوذين لأن أحد أبنائهم أصبح شريرًا. بالطبع لم يكونوا آباء وأمهات "كاملين"، وبهذا المعنى يجوز أن يتحملوا بعض اللوم. لكن أخبرني مَنْ فينا يتمتع بالكمال كأب أو أم؟ أرني أبًا أو أمًا لم يدلل طفله قليلاً في وقت من الأوقات! ومَنْ منّا بدافع الخوف، أو الإجهاد، أو الجهل، أو كثرة الالتزامات، لم يغفل مواجهة شيء كان يجب

مواجهته، ولو مرة واحدة على الأقل؟ إذا وُجد هذا الأب أو الأم سأدعه يرمي أول حجر!

بعضنا يفلت من التبعات، وبعضنا لا يفلت. في أسفاري قابلت الكثير جدًا من الآباء والأمهات الصالحين إلى أبعد حد، لكنهم يعيشون بجُرح غائر.. إنهم لا يواجهون فقط ألم مشاهدة طفلهم الحبيب وهو يدمر نفسه، لكنهم يعيشون أيضًا بضمير مُعذَّب يخبرهم أن الحياة المكروهة لهذا الطفل تنبع من فشلهم كوالدين.

الأبناء الصالحون بركة عظيمة.. وهذه حقيقة كتابية ثمينة! لكن الكتاب المقدَّس أمين أيضًا، ويجب أن نكون نحن أيضًا أمناء.. الأبناء المتمردون يمكن أن يكونوا على أقل تقدير، لعنة قاسية جدًا.

جُرح مضاعف

الكتاب المقدَّس في غاية الوضوح عندما يقول إن الأبناء المتمردين سيدفعون ثمن شرهم: «العين المستهزئة بأبيها، والمحتقرة إطاعة أمها، تقورها غربان الوادي، وتأكلها فراخ النسر» (أمثال ٣٠: ١٧). ومع ذلك فالحقيقة الأكثر قسوة بالنسبة للوالدين أنه عندما تُقوَّر عين طفل متمرد، سيشعر الآباء والأمهات بحرقة في مُقلة عيونهم.

الطفل المتمرد يجرح الأب أو الأم بطريقتين. الأولى، الطفل يجرح الأم عندما يحتقرها، يخدعها، يسرقها، أو ربما يؤذيها جسديًا. لكنه وقتها، بشكل يصعب تفسيره، يمزق قلب أمه نصفين مرة أخرى عندما تحزن على شقاء طفلها وفجوره بينما حتمًا يسير نحو هلاكه. عندما يسقط، قلبها يترضض! عندما يدمي، هي تنزف! إنها لا تفرح لأن طفلها "ينال جزاءه"؛ بل تنوح حتى إذا كان هذا العدل يعني أن طفلها لن يعود قادرًا على إيذائها مرة أخرى.

هل هذه شيزوفرنيا؟ في وجهة نظر العالم، نعم! لكن لم يقل أحد إنّ التربية سهلة، أو أن الحب، أو حتى النعمة، يبدو معقولاً دائمًا.. نحن نظل منكشفين وقابلين للجُرح في أعماقنا كوالدين، ونخاطر بألم الخيانة، ثم نحزن على هلاك الخائن.

اختبر الملك داود هذا الأمر كأب.. خطط ابنه أبشالوم للاستيلاء على عرش داود عن طريق تملق الشعب وكسب ودهم، ثم خرج بخطة متقنة ليعلن نفسه ملكًا. الأسوأ من هذا أنه جنَّد لصالحه بعضًا من أقرب مستشاري داود، واضطجع على الملأ مع جواري أبيه، ثم سعى لقتل أبيه! لقد أهان وتحدَّى أبشالوم أباه بكل الطرق الممكنة، إلى درجة محاولة اصطياده كحيوان.

اضطر داود أن يدافع عن نفسه، لكنه وهو يفعل هذا أصدر تعليمات صارمة لرجاله: «احترزوا أيًّا كان منكم على الفتى أبشالوم» (صموئيل الثاني ١٨: ١٢). وبالرغم من كل شيء، أخبر داود رجاله من البداية: "لا تعاملوا أبشالوم كخائن، بل عاملوه كابن لي." قد يسأل القارئ العادي كيف استطاع داود أن ينظر لأبشالوم بأي صورة غير أنه عدو له، متعطش للدماء، ويجب سحقه.. القارئ العادي قد يسأل هذا السؤال، لكن الأب لن يسأل.

قام جنود داود بدحر رجال أبشالوم، لكن بينما اقترب الرسول بالأخبار المحزنة من داود، أظهر السؤال الأول للملك البائس ما يشغله فعلاً: «أسلام للفتى أبشالوم؟» (صموئيل الثاني ١٨: ٢٩).

ربما تعتقد أن داود سيقلق بشأن مصير عرشه، أو على الأقل يتساءل هل انتصرت قواته على العدو؛ فحياته كلها كانت في خطر. لكنه في الواقع سأل عن سلامة الرجل الذي كان يحاول قتله. وعندما أخبروه بموت أبشالوم، انهار داود عاطفيًا: «يا ابني أبشالوم، يا ابني، يا ابني

أبشالوم! يا ليتني مُتُّ عوضًا عنك! يا أبشالوم ابني، يا ابني» (صموئيل الثاني ١٨: ٣٣).

حزن داود على ابنه الذي سعى إلى قتله، كما لو كان هذا الطفل أكثر الأبناء أمانة وحبًا ويتمناه كل أب أو أم.. لقد حزن على خسارته، وانشطر قلبه نصفين فعلاً. وهو بهذا يُظهر محبة أبوية مملوءة بالنعمة، ويعكس محبة الله الذي أحبنا ومات لأجلنا بينما كنا لا نزال في عداوة معه.. «لكنَّ الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رومية ٥: ٨).

من العجيب أن نواجه إمكانية أن يجعل أحد الأشخاص حياتنا تعيسة إلى أبعد حدٍّ، ومع ذلك نكون مستعدين لأن نضحي بحياتنا من أجله دون تردد.. هذا تحوُّل روحي مذهل يحدث في مرحلة التربية. مرة أخرى يقدِّم بولس الرسول نموذجًا لدعوتنا إلى الخدمة عندما يكتب: «مَنْ يَضعف وأنا لا أضعف؟ مَنْ يعثر وأنا لا ألتهب؟» (كورنثوس الثانية ١١: ٢٩).

ومع ذلك بالنسبة للكثيرين منا، لا تأتي صعوبة التربية من مواجهة الخيانة، وإنما في تحمُّل مهمة مُرهقة جدًا.

دعوة معقَّدة

لا مهرب من حقيقة أن التربية تستنفذ طاقتك في أحيان كثيرة.. فهي ستتجاوز قوتك حتى ترغب في البكاء بسبب الإجهاد. لكنك ستندهش أنك لازلت تنهض وتقدِّم المزيد.

مارست الجري لمسافات طويلة في المدرسة الثانوية، وكثيرًا ما كنت أغيظ بعض المشاركين في السباقات الأخرى قائلاً: "عندما يصعب الأمر، يتوقف متسابق المسافات القصيرة." ومع ذلك فالتربية تتجاوز أي منافسة تتطلب التحمُّل خضتها أو سأخوضها في أي يوم. عندما يكون لديك طفل مريض، أو طفل لديه إعاقة ذهنية، أو طفل متمرد، أو ربما طفل

عادي لكنه متقلب المزاج، فما ينهكك عادة ليس حدثًا واحدًا كبيرًا، وإنما الطاحونة اليومية لنفس الخطوات المتثاقلة- بدون نهاية.. ثم تقوم بها مرة أخرى، ومرة أخرى.

ثم مرة أخرى..

ربما نتفهم أمًا شابة تنظر إلى الماضي بشغف حين كان زوجها لها وحدها.. أستطيع تفهُّم ذلك؛ لأن الحياة تبدو أبسط كثيرًا عندما تتكون الحياة في بيتك من علاقة واحدة: أنت وشريك حياتك. ولكن بمجرد أن يدخل الأطفال في المشهد، من السهل أن تختنق من تعقيدات الحياة العائلية.. لذا لابد أن تديري علاقتكِ مع زوجكِ، وليس هذا فحسب، بل لابد أن تساهمي في علاقة زوجكِ مع ابنتكما الكبرى، وتساهمي في علاقة زوجكِ مع ابنكما الأوسط، وكذلك علاقته مع ابنتكما الصغرى. ثم عليكِ أن تمارسي باستمرار فن التفاوض في العلاقة بين الابنتين، وبين الابنة الكبرى والابن الأوسط، والابن الأوسط مع الابنة الصغرى، ناهيكِ عن علاقتكِ الخاصة مع كلٍّ واحد فيهم.. العائلة المكونة من خمسة أفراد تتضمن عشر علاقات متمايزة، والتوتر والخلاف في علاقة واحدة من هذه العلاقات قد يؤثر على العائلة بأكملها.

حتى أمتع اللحظات مع أحد الأبناء يمكن أن تَفسد بسبب غيرة أو غضب طفل آخر. عندما كنت شابًا قرأت مَثل الابن الضال (لوقا ١٥: ١١- ٣٢) من منظور الابنين، وتفهمت فرحة الابن الأصغر عند عودته إلى بيت أبيه والترحيب به، لكن للأمانة تفهمت أيضًا غضب الابن الأكبر لما حصل عليه هذا الأخ المسرف من معاملة ملوكية. ولكن اليوم عندما أقرأ هذه القصة، أشعر بتعاطف عميق مع الأب.. أي فرح شعر به عندما رأى ابنه المتمرد يرجع إلى رشده؟ أنا متأكد أن مشاعره تحركت وفاضت بالارتياح والشكر والسعادة؛ ولابد أنه لم يوجد في إسرائيل مَنْ

ارتسمت على وجهه ابتسامة أكبر من ابتسامة هذا الأب! ثم بعد مشاعر الإجهاد بسبب إعداد كل مستلزمات الاحتفال، لابد أن قلبه تأذى بشدة عندما اقترب الابن الأكبر مستاءً من المعاملة المسرفة وغير العادلة التي أُعطيت للابن الأصغر.

لابد أن الأب قال في نفسه: "ألا تتركني أفرح بعودة أخيك دون أن أضطر للتعامل مع غيرتك ومرارتك؟ هل كثير عليك أن أستمتع ببعض اللحظات من السعادة الخالصة، بعد سنوات من الحزن؟" لقد فَسدت أمتع لحظات حياته بسبب استياء ابنه الآخر.

ومع ذلك فكل الآباء والأمهات يعيشون في هذا العالم، وبالأخص الأمهات.. فحتى عندما يمر أحد الأبناء بيوم طيب، أو يحقق إنجازًا ضخمًا، ربما يكون على الأم أن تواسي أخاه الذي يشعر بالغيرة والمرارة. عندما يتواجد أطفال كثيرون في العائلة، نادرًا ما يمر يوم بدون خلاف أو إحباط يجب التعامل معه.

كذلك هناك العبء اليومي للمهام المتعددة.. فبجانب الوظيفة خارج البيت، سيُطلب منك في أوقات متعددة داخل البيت أن تصلحي ملابس، أو تطبخي أكلة، أو تنظفي شيئًا، أو تخططي لشيء، أو تجيبي عن سؤال غريب. عندما كانت ابنتي الصغرى تتدرب في الكورال، سألها القائد: "ألا تستطيع والدتكِ أن تساعدكِ في حفظ هذه الأوزان الموسيقية؟" بمقدور زوجتي أن تفعل أشياءً كثيرة، لكن الغناء على النوتة الموسيقية ليس ضمن هذه الأشياء. ما أكثر الأشياء التي يُطلب فعلها من المرأة.. مثل المساهمة في دَخل الأسرة، وتزيين البيت، وقيادة السيارة، والتخطيط والطبخ والتنظيف في وقت فراغها، والاهتمام بعلاقتها بزوجها، وأن تكون عضوة ملتزمة في الكنيسة... إلخ إلخ. ببساطة هذا شيء يربك العقل.

تشير الكاتبة «مادلين لينجل» في مذكراتها إلى عمر الثلاثينات،

ووصفته بـ "السنوات المتعبة". تربية الأبناء تستنفذ قوتك، دون انقطاع. أشعر بخيبة الأمل عندما أتطلع في كتب عن تربية الأبناء يتصرف مؤلفوها كما لو أنك تستطيع الاعتناء بأي مشكلة في ثلاث خطوات بسيطة ثم تنسى الأمر. لا يسير الأمر هكذا في بيتي! نادرًا ما ينتهي أي موضوع في خطوة واحدة. القضايا السلوكية تشبه الفيروسات الخبيثة.. فهي تتحور وتتأقلم، والأب أو الأم الحكيم عليه أن يواصل ابتكار حلول جديدة وأفضل لمعالجة نفس القضايا.

هذا أمر مُجهد!

في حقيقة الأمر، ليس هناك قضية بعينها تتعسنا أو تثير جنوننا؛ بل نحن نُنهَك تحت الثقل المستمر لكل القضايا مجتمعة- يومًا بعد الآخر، في الصباح، والظهيرة، والليل. اتصال تليفوني في الثانية بعد منتصف الليل مزعج بقدر محاولة إيقاظ مراهق أو مراهقة يدمن النوم! في النهاية يمكن أن نشعر بأننا مسحوقون تحت ملل الواجبات والتضحيات. من المؤكد أن التربية عملية منهكة حقًا، لكنها دعوة مُعقدة أيضًا- دعوة يمكن أن تترك تأثيرًا عميقًا على مسيرة نضوجنا الروحي.

لا تأتي فُرادى

هل لاحظت أن معظم التجارب لا تأتي فرادى، بل في صورة حزم أو مجموعات؟ العام الماضي تألم راعي كنيستي -وهو رجل تقي له خدمة مؤثرة- بسبب فقدان أبيه، ونوبات حصوات الكلى (ربما يكون أشد ألم يمر به الإنسان)، ثم تشخيص بسرطان البروستاتا. في وقت لاحق من نفس العام، فُصل أحد العاملين معه في الكنيسة بسبب فضيحة أخلاقية. هذا الهجوم رباعي الأطراف كاد أن يفقدني أنفاسي- ومع ذلك لم أكن أنا مَنْ يشعر بالألم!

خلال نفس العام، أحد أصدقائي الرائعين من ولاية تينيسي شاهد ابنته وهي تصارع مع مرض معدٍ خطير، واكتشف أن أمه أُصيبت بالألزهايمر، ثم مَرّ بمشكلات اقتصادية في عمله الخاص لم أسمع عنها من قبل. كانت تجارته تعتمد بالأساس على شيئين: التليفون وجهاز الكمبيوتر.. وحدث أن شركة أخرى سرقت رقمه المجاني، وكان عليه أن يصارع لأسابيع ليسترده؛ بينما تعطَّل تليفونه مرتين، وكذلك تعطَّل الكمبيوتر الخاص به.. بالرغم من أنه كان ملتزمًا إلى أبعد حد بالاحتفاظ بنسخة إضافية من عمله، إلا أن خطأ ما أدى إلى فقدانه بيانات في غاية الأهمية. وما زاد الأمور سوءًا (كأن كل ذلك لم يكن كافيًا) أنه اكتشف أن أحد عملائه الذي ادعى أنه مسيحي مؤمن قد نصب عليه في آلاف الدولارات- ثم اتهم هذا الرجل صديقي بالنصب! تحدثت مع صديقي هذا في نهاية العام، ومن خلال صوته الملكوم علمت أن شيئًا سيئًا جدًا قد حدث. الحياة حطمته، لكنه بقي صُلبًا في إيمانه وفي التزامه تجاه الله.

لماذا تبدو هذه التجارب المجتمعة شائعة جدًا؟ لماذا لم أعد أشعر بالعجب عندما يحكي المؤمنون المخلصون قصصًا مشابهة، وهم في أشد الاحتياج إلى توجيه وإرشاد؟

ليس لدينا إلا طريق واحد لنصبح ناضجين وكاملين في الرب: لابد أن نكتسب الفضيلة الصعبة والتي لا غنى عنها.. ألا وهي الصبر(المثابرة). قال الرب يسوع إننا بدون الصبر لن نُظهر ثمارًا في حياتنا: «والذي (البذور) في الأرض الجيِّدة، هم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح، ويثمرون بالصَّبر» (لوقا ٨: ١٥).

يقول بولس إن الشخصية تنضج بتعلُّم المثابرة من خلال التجارب الكثيرة (رومية ٥: ٣ و٤)، ويقول لنا يعقوب إننا يجب أن نحسب كل شيء

"فرحًا خالصًا" عندما نقع «في تجارب متنوعة (بمعنى مجتمعة)، عالمين أن امتحان إيمانكم ينشىء صبرًا. وأمَّا الصبر فليكن له عملٌ تامٌ، لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء» (يعقوب ١: ٢- ٤). يخبرنا الرسول يعقوب أنه بدون الصبر سنبقى غير ناضجين وغير مكتملين، وكأننا مؤمنون لم نُخبز بشكل كامل- إن جاز التشبيه. ثم يضيف يعقوب في رسالته: «ها نحن نطوِّب الصابرين. قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب» (٥: ١١). ويوصينا الرسول بطرس «أن نبذل كلَّ اجتهاد» لنضيف الصبر إلى إيماننا (بطرس الثانية ١: ٥ و٦).

ليس هناك إلا طريق واحد لاكتساب فضيلة الصبر: يجب أن نسلِّم ذواتنا لله عندما نشعر بأننا مضغوطون بما يتجاوز قدرة البشر على الاحتمال. لابد أن تصل إلى حَد الإنهاك، ثم تواصل إلى الأمام أكثر. تجربة واحدة ستعلِّمنا كيف نتعامل مع الخوف، وتجربتان يمكن أن تقودانا إلى الحكمة. لكنَّ ماذا عن الصبر؟ هذا يتطلب تشكيلة متنوعة من الضيقات. كل هذا يعني أن تربية أبناء مزعجين للغاية يصُب في تسديد احتياج روحي لنفوسنا- وهو المشاركة في تدريب لا غنى عنه لاكتساب الصبر، ومما يعتمد عليه إثمارنا كمؤمنين.

اشرب هذا الكأس

يواجه الزوجان «جريح» و«ميليسا» هذه الطاحونة كل يوم بينما يعيشان مع ابنتهما المُصابة بعدة إعاقات. بعد أمسية عصيبة جدًا مع ابنتها كريستي، كادت ميليسا أن تُصاب بالجنون؛ لذا ذهبت على الفور إلى جريج واعترفت له: "لا أريد أن أقول إن الله ارتكب خطأً، لكن في هذه الحالة بالذات أظن أنه يُحتمل أن يكون قد ارتكب خطأً. لا أستطيع أن أواصل على هذا المنوال أكثر من ذلك. أعرف أن الكتاب المقدَّس يقول

إنني سأحصل على القوة التي أحتاجها، لكن بكل صراحة إذا بقيت لوحدي مع هذه الطفلة لعشر ثوانٍ أخرى فلربما أقتلها!"

شعرت ميليسا بأنها على وشك الانفجار والانهيار العصبي، لكن المذهل هو الآتي.. لقد سألتُ جريج ماذا حدث بعد ذلك، فأخبرني أنهما قضيا وقتًا بمفردهما، وصليا بدون صوت مسموع، ثم عادا إلى حياتهما الطبيعية والاهتمام بهذه الطفلة الصعبة؛ وسألني: "ماذا بإمكاننا أن نفعل أكثر من هذا؟" لم يكن لديهما حل سريع، أو إجابة من ثلاث خطوات.. كان الصبر ملاذهم الوحيد.

المؤمنون اليوم عادة ما يُصلون طلبًا للراحة، أو للتعزية، أو للشفاء- لكن هذا ليس فقط ما يعلِّمنا إياه الكتاب المقدس. على سبيل المثال، صلى الرسول بولس من أجل أهل كولوسي لكي يكونوا «متقوين بكل قوة بحسب قدرة مجده، لكل صبر وطول أناة بفرح» (كولوسي ١: ١١).

وبالتالي بدلاً من أن يصلي بولس من أجل خلاص مؤمني كولوسي، نجده يصلي من أجل نضوجهم. كيف إذًا ننمو في الاحتمال والصبر؟ لا يوجد إلا طريق واحد، وقد ذكرناه بالفعل.. أن يُختبر كل من احتمالنا وصبرنا بقسوة، حتى بعد أن نتجاوز قدرتنا على الاحتمال، حتى نتعلَّم أن نرتاح ونعتمد على قدرة الله المجيدة. لن تتقوى عضلاتك إذا كنت ترفع أوزانًا قدرها كيلو جرام واحد، بل لابد أن تُجهد العضلة فوق قدرتها المعتادة. نفس المبدأ ينطبق على الحياة الروحية.. إذا سمح الله لنا بأن نمر بمواقف في نطاق قدرتنا على التعامل معها فقط، فلن نحتاج إلى النضوج لنتعامل معها.

أظن أن جريج وميليسا وصلا إلى نفس مفترق الطرق في حياتهما الروحية مثلما حدث مع الرب يسوع على جبل الزيتون: «يا أبتاه، إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك». ومع ذلك لم

يُبعد الآب عنه الكأس، وإنما «ظهر له ملاكٌ من السماء يقويه» (لوقا ٢٢: ٤٢ و٤٣). لم تُرد ميليسا أن تشرب الكأس المرير، لكن الله بحكمته لم يُجِزه عنها، ولم يجعل مذاقه أكثر حلاوة؛ وإنما منح قوة لميليسا، واستخدم موقفًا عصيبًا لينمي بداخل هذه الأم فضيلتي التحمُّل والصبر. بالطبع نحن نميل إلى الصلاة من أجل أن يرفع الله الحِمل بدلاً من إعطائنا قوة على التحمُّل والمثابرة؛ لكن الله هو مَنْ يختار كيف تكون الاستجابة، وليس نحن.

عندما تأملت ميليسا في تجربتها بعمق، أدركت التشابه بين عملية الولادة وعملية التربية. عندما ولدت ميليسا ابنتها كريستي، لم يكن الأمر مجرد تجربة انفعالية، بل على النقيض استمر مخاضها ما يقرب من ٣٠ ساعة. في مرحلة ما شعرت بأنها فقدت قدرتها على التحمُّل، ولم يعُد في جسدها أية قوة لتدفع طفلتها دفعة أخيرة.. لقد شعرت بالإنهاك الشديد. ألا يوجد مَنْ يتدخل ليسحب الطفل؟

ولكن في مكان ما، مِن مخزون لم تكن تعلم ميليسا أنها تملكه، وجدت القوة لتدفع من جديد. وأخرجت كريستي من بطنها- والآن كأم كان عليها أن تغوص إلى الأعماق من جديد، لتبحث عن قوة روحية تتجاوز ما تعرفه عن نفسها لكي تستمر في أداء دورها كأم لهذه الطفلة الصعبة. ٣٠ ساعة من المخاض؟ هذه كانت البداية فقط! لم يكن لدى ميليسا أية فكرة عن أن الرحلة الحقيقية لا تزال في انتظارها.

الحياة العائلية تعلِّمنا أننا نفعل أشياءً لمجرد أننا لابد أن نفعلها.. ربما بمرور الوقت نستاء منها، لكن الإحساس بالواجب يطالبنا بأن نظل أمناء. ستصبح عشنا فقط بما نميل إليه أو بما يسعدنا؛فإن حياتنا -وعالمنا- حطامًا. يعترف الكاتب الشهير «چي. كيه. تشستيرتون»: "في كل شيء على هذه الأرض يستحق القيام به، هناك مرحلة ما حين لن يقوم أي مرء بفعلها إلا بدافع الضرورة أو الكرامة."[٣]

من المفيد أن نعرف أن كل عائلة -وأعني كل عائلة فعلاً- تواجه أوقات من الإعياء تجعل الأب أو الأم يسأل: "ما الفائدة من كل هذا؟" ويقدِّم «إيلتون تروبلاد» هذه النصيحة الرقيقة:

> الرغبة في الهروب من المسؤوليات العائلية هي رغبة طبيعية من حين لآخر، لكن إذا اتبعنا ميولنا فقط ستنهار أية عائلة... بيوت متواضعة لا حصر لها أظهرت علامات على دهشتها الدائمة أمام حقيقة أن "رابطة مقبولة" قد جمعت أفرادها معًا بالرغم من العمل الشاق، والفقر، والمعاناة الكثيرة.[٤]

كثيرون يهربون من صعوبات الزواج بطلب الانفصال أو الطلاق، لكنك لا تستطيع أن تطلق طفلك. بهذا المعنى تصبح التربية أكثر صعوبة من الزواج.. ليس لدينا مهرب منها. ومع ذلك فالبركة تكمن وراء هذا العبء الظاهري. إن سهولة الانفصال في الزواج هي في الواقع عدو للسعادة الزوجية الحقيقية؛ لأن البعض يختار الطريق السهل، لكن الإحصائيات تثبت أن هذا الطريق سيؤدي بهم إلى تعاسة أعظم. لكن بتنفيذ دعوة الله لحفظ زواجنا وسلامة عائلتنا، سنجد بركة روحية ناتجة عن تشبثنا بالرغم من الألم. التربية المقدسة، التي ترفض وسائل الهروب المقبولة اجتماعيًا، تدعونا إلى اختبار أعمق للنعم التي تكمن وراء التجارب.

خلاصة الأمر هي كالتالي: الميل الطبيعي والأول في أي تجربة أن نصلي إلى الله ليرفع عنا الضيقة، لكن الأولوية الأولى لله في كثير من الأحيان هي أن يقوينا وسط هذه الضيقة وليس أن يخرجنا منها.. وهذا لأنه يرى الكنز الذي ينتظرنا في نهاية الطريق.

الكنز في نهاية الطريق

ربما يوجد في حياتك شخص يشبه «روب تيكميورا». روب هو أب لأربعة أبناء، وكان أحد الإشبينين في حفل زفافي (أعلم أنني غريب الأطوار؛ بالفعل كان لي إشبينان). صديق عمري هذا من نوعية الأشخاص الذين يحب الجميع التواجد معهم، ولديه معلومات كثيرة عن أمور كثيرة؛ لذا فهو يدخل بسهولة في أي حوار، مع أنه يمنع نفسه حتى لا يهيمن على النقاش. إنه رجل رائع بشكل عام.. لابد أن تحترمه، وهو في المعتاد لا يفعل أي شيء أحمق أو قاسٍ. على الجانب الآخر، فهو ليس متزمتًا دينيًا بطريقة لا تُحتمل، وتستمتع فعلاً بصحبته. زوجة روب، وتُدعى «چيل»، هي نفس الأمر.. تصنع أصدقاء بسهولة، ولديها الكثير من النساء اللواتي يعتبرنها الصديقة المقربة لهن.

أنا متأكد أنك تستطيع أن تفكر في أشخاص مشابهين لهما في دائرة أصدقائك، أو زوجين يحب الجميع التواجد معهما. إذا أقمت حفلة أو عشاءً، فأنت تطلب أولاً من هذين الزوجين ليحضرا لكي تخبر الجميع: "بالمناسبة، روب وچيل سيحضران أيضًا."

غالبًا ما أقضي وقتًا مع روب أكثر من أي شخص آخر؛ فوجودي بصحبة روب لا يتحدى صبري، ببساطة لأنه شخص سويّ بكل معنى الكلمة. يشارك كلانا في مجموعة للمساءلة (ونسميها مجموعة "حول العالم"، لأنها تضم أشخاصًا من أصول مختلفة)، وكثيرًا ما نلعب الجولف معًا. أستطيع أن أتعلَّم من روب بأن أحاول تقليد شخصيته- فهو لا يحاول اختبار صبري، ولا يختبر قدرتي على الغفران، ولا يجعلني أبذل جهدًا وأغوص في نفسي عميقًا لأُجيب على القسوة بالحب.

على الجانب الآخر، تعرفت مرة على رجل كان يكره النساء، ويتصرف بعدوانية تجاه الرجال. وبسبب انتقاده المستمر للآخرين، ورغبته في

الشعور بالأهمية والقوة، واستخدامه الخبيث لما يملك من تأثير لديه، قد اختبر قدرتي على التحمُّل بشكل لم يحدث لي من قبل؛ حتى أنني اكتشفت ثغرات روحية لديَّ لم أكن أعلم بوجودها، وكان عليّ أن أقوّي عضلاتي الروحية في أمور كانت خاملة لزمن طويل.

لكي نصبح أشخاصًا ناضجين نحتاج لكلا النوعين من العلاقات- وهنا يأتي دور الأطفال العنيدين. الأمر يحتاج إلى محبة "أغابي" نازلة من عند الله لكي تمد يدك لشخص يغيظك، ويبادل لطفك بكراهية، ويعتبر إيماءات الكرم تهديدات، ويبدو قاسيًا لا يلين حتى يجلب الدمار والفوضى والانقسام في كل لحظة في حياته (وحياتك أنت أيضًا). الأمر يحتاج إلى ما هو أكثر من الميل البشري والنوايا الطبيعية للتعامل مع شخص يتعمد إغاظة الآخرين، ويتمتع في ابتكار القسوة، ويرد بعنف. وحتى إذا عرفت أنه يفعل ذلك بسبب جُرح بداخله، أو شعور بصغر النفس أو الهجر؛ لكن التواجد بجواره لا يزال يجرحك، ولا يزال ينهك قواك وحماستك.

ولكن في قاع النهر الجاف توجد حياة روحية، وهناك تتشكّل الشخصية. إذا مُتنا عن القدرات البشرية الكامنة، يمكن أن نُقام بقوة روحية.. ما كان لجريج وميليسا أن يواصلا حياتهما بدون ذلك. الله يدعوهما (حتى وإن بدا أحيانًا أنه يجبرهما) على أن يعتمدا على قوة خارجية؛ لكي يتقدما إلى الأمام، ويعيشا بشكل أعمق، ويتعلَّما أن يهتما بطريقة لم يختبراها من قبل.

كثيرون منّا بإمكانهم اختبار هذا.. ربما تحوَّل حماسنا في بداية رحلة التربية إلى مشاعر إحباط، كما لو وجدنا أنفسنا في ترحال عبر الصحراء بدون علامة استراحة أو راحة في الأفق. وبالرغم من المجهود الذي استثمرناه في هذا الطفل -أو هؤلاء الأطفال- لم نحصل إلا على الحزن في المقابل.

يشير «إيلتون تروبلاد» إلى الطريق نحو الرؤية الملهمة التي تساعدنا على المثابرة عبر تقلبات خبرة التربية:

> الحياة العائلية ليس بها سحر.. يمكن أن تكون العائلة مشهدًا من العاطفة الرائعة، ويمكن أن تكون مشهدًا من الاحتكاك المهين. العائلة... هي أبهى شيء نحلم به، لكن هذا لن يحدث بدون مجهود. الترابط العائلي يتطلب عملاً شاقًا، وخيالاً نشطًا، ومراجعة مستمرة للذات من كل أفراد الدائرة المقدَّسة. الزواج الناجح ليس له علاقة باثنين متوافقين جسمانيًا وجدا أحدهما الآخر، ولذلك يعيشان في سعادة أبدية لأنهما متوافقان من البداية.. لكنّ الزواج منظومة ينشغل فيها شخصان خاطئان ومشاكسان بحُلم أكبر من ذواتهما، بحيث يعملان عبر السنين، بالرغم من الإحباطات المتكررة، لتحقيق هذا الحُلم.[٥]

نظرة في مرآة

قبل أن أختم هذا الفصل، أرى من الإنصاف أن ننظر من زاوية مختلفة تمامًا إلى الصبر والمثابرة وطول الأناة التي تتطلبها منا التربية. ما يطلبه منا أبناؤنا يتضاءل عندما نقارنه بما نطلبه من الله. في صراعاتنا وإعيائنا لعلنا لا نصل أبدًا إلى حالة البر الذاتي حيث ننسى أن الله يغفر لنا، ويصبر علينا، ويتحمل إخفاقاتنا بدرجة أكبر بكثير مما نفعل مع أبنائنا. أبناؤنا يعيشون معنا لعقدين من الزمان، أو ربما لعقدين ونصف؛ لكنَّ الله يتحملنا طوال حياتنا. وبينما يستفزنا أبناؤنا من حين لآخر بكلمات مهينة، لكن الله يرى كل مَيل شرير في قلوبنا. وأمام إهانة واحدة نغفرها لأبنائنا، يغفر لنا الله مرات ومرات، ويظل صبورًا معنا أكثر بكثير مما

يجب أن نمارس الصبر مع أبنائنا.. إنه لا يطالبنا بشيء كآباء وأمهات لم يقدّمه لنا هو مئات المرات.

نحتاج أن نستخدم أكثر الجوانب المتعبة في التربية كفرصة لنشكر الله على تحمُّله لنا. عندما ننظر من خلال هذه العدسة، سنجد أن تربية طفل مزعج قد تتحول إلى حافز للعبادة والتسبيح لله. في نفس الوقت لا يوجد أب أو أم لديه وعي روحي يُصاب بالبر الذاتي، لكن المتغافلين والمتعامين من بيننا هم مَنْ يتصرفون بغرور أمام الله، كما لو كان قد وضع علينا عبئًا أثقل مما وضعنا عليه. التربية المقدَّسة تُذكّرنا بأنه مهما كان الطفل صعب المراس، فلازلنا نلعب في دوري الناشئين مقارنةً بتضحية الله العظيمة.

تأمل كم مرة كسرت وعودك التي قدّمتها لله بحماس وغيرة شديدة! تأمل في كم مناسبة قلت أو فكرت أو فعلت أشياء مشينة أمام عيني الله الكامل القدوس! تأمل استعداد الله الدائم ليغفر لك، واستمرارية نعمته، والنبع الغني لتفهمه وصبره ورحمته- وكلها تُقدَّم بدون شرط من جانبنا! وبدون أبناء طباعهم صعبة، ربما سنتعامل مع هذا الصبر والرحمة والغفران كأشياء مُسلَّم بها. في هذه الحالة يصبح الأبناء ذوو الطباع الصعبة هدية نادرة- فهم يُظهرون لنا جانبًا فريدًا من الله لن نراه بدونهم.

تحكي لنا قصة قديمة عن دير كان به راهب صعب الطباع جدًا.. رجل حاد الطباع، ومزعج، ومتغطرس، ومحب للشقاق.[٦] إذا نشأت مجادلة فعلى الأغلب هو طرف فيها، وأي مجموعة من الإخوة يتهامسون من المؤكد أنهم يتكلمون عنه. لم يكن لديه أصدقاء، لكن له أعداء كثيرون، وفي النهاية مَلَّ من هذا العداء وترك الدير.

وبالرغم من أن الإخوة فرحوا لذلك، لكن رئيس الدير سرعان ما شعر

بالخسارة؛ وسعى وراء الراهب المشاغب محاولاً إقناعه بالعودة. فلما سأله الراهب لماذا يجب أن يرجع إلى مكان من الواضح أنه غير مرغوب فيه، عرض عليه رئيس الدير أن يدفع له راتبًا إذا رجع إلى الدير ثانيةً.

تخيَّل فزع الرهبان الآخرين عندما رأوا هذا الراهب البائس راجعًا إلى الدير! وعندما اكتشفوا أنه سيحصل على راتب ليعيش معهم، استشاطوا غضبًا. وهرع أحدهم إلى مكتب رئيس الدير ليجد تفسيرًا لهذا الأمر؛ فأجابه رئيس الدير بحكمته: "هذا الأخ، بقدر ما هو مزعج، لكنه يعلِّمنا الصبر والوداعة والشفقة؛ لذا نحن نحتاجه هنا، ولا يوجد غيره مَنْ سيعلِّمكم مثل هذه الدروس."

هنا يكمن الكنز في نهاية المطاف.. مهما بلغت صعوبة طباع أبنائنا، يستطيع الله أن يستخدمهم ليشكِّل نفوسنا على صورة ابنه. ومهما واجهنا من عقبات كثيرة قد نصطدم بها، أو منعطفات سيكون علينا خوضها بهدوء على طول الطريق في تربيتنا لأبنائنا، لكن الله يَعدنا بأن يقود خطواتنا، ويقوي أرجلنا، وينعش نفوسنا. إنه يعرف عدم كفاءتنا، لكنه يرشدنا إلى معونة ابنه، وتعزية روحه القدوس وإرشاده وقوته؛ مما يسدد احتياجاتنا بل ويزيد. وحتى إذا لم نرَ كل النتائج التي نود رؤيتها، فعلى الأقل سنحصل على ما يذكّرنا باستمرار بصبر الله وطول أناته علينا.

قد لا تكون التربية رحلة سهلة، لكنها في هذا الصدد رحلة مقدَّسة بحق.

"دائمًا ما أتشكك في الرجال الذين لديهم أب مشهور."

– چورج دبليو بوش
عندما تقابل مع المدير
العام لشركة أريزونا
دباموند باكس،
چو جارجيولا الابن

"لا نستطيع أن نعود إلى المنزل بمشاهير الروك آند رول.. أنت لا تحصل على الحضن من مشاهير الروك آند رول، ولا تنجب أطفالاً من مشاهير الروك آند رول. أريد ما يريده الجميع..أن أُحِب وأن أُحَب، ويكون لديّ عائلة."

– بيلي جويل

الفصل العاشر

إصحاح مُمل

(قد يغيِّر حياتك إلى الأبد)

كيف تعلِّمنا التربية
الأشياء الأهم في الحياة

عندما اقتحمت القوات البحرية الأمريكية شواطئ «أيو چيما» عام ١٩٤٥، توقف جندي من سلاح الخدمات الطبيّة يُسمى «جريجوري إيميري» ليساعد جنديًا راقدًا على الأرض. لاحظ جريجوري على الفور حرف «M» مرسومًا على جبهة الجندي الشاب (هذه العلامة تدل على أنه أخذ بالفعل جرعة مورفين)، كما لاحظ الأربطة المصطبغة باللون الأحمر حول بطنه.

بهذا الجُرح وبهذا العلاج يتضح أمر هام: هذا الرجل كان على وشك الموت. بكل جدية طلب الجندي الجريح من جريجوري أن يُخرج صورة فوتوغرافية من حقيبته، فمَدَّ جريجوري يده وسحب صورة بها

ثقوب جراء الشظايا لامرأة وطفل؛ وأخذ الجندي الصورة ممتنًا واضعًا إياها نُصب عينيه.

ولأن الجندي المسعف أدرك حتمية وفاة هذا الجندي، تركه وانتقل إلى جندي آخر ربما يكون لديه فرصة أفضل للحياة. لكنه شعر بشيء يجذبه ليرجع إلى الجندي الجريح؛ فوجده يلفظ آخر أنفاسه محملقًا في صورة عائلته. مات والصورة أمام عينيه.. فجأة وفي لحظة من الزمن لم يتبقَ لهذا الرجل سوى المرأة والطفل اللذين كانا في الصورة.

عبر آلاف السنين يموت الناس ويُستبدلون بآخرين.. البعض ماتوا في الحرب، وآخرون ماتوا في السِّلْم؛ البعض ماتوا في شيخوختهم، وآخرون ماتوا في ريعان شبابهم؛ البعض ماتوا في سعادة زوجيَّة بينما يحيط بهم أبناؤهم، آخرون ماتوا متغربين عن أحبائهم، وقد نسيهم أبناؤهم؛ البعض ماتوا فقراء، وآخرون ماتوا أثرياء. لكن يوجد شيء واحد نشترك فيه جميعًا: كلنا سنموت، ونسلنا سيكمل من بعدنا.

هذه الرسالة موجودة في أصحاح يبدو أنه مُمل جدًا في الكتاب المقدَّس. لو كنت تكتب رواية أو أي نوع من التأليف الحديث، من المؤكد لن ترغب في أن تبطئ وتيرة أحداث قصتك بإصحاح مثل الإصحاح الخامس من سفر التكوين. قبله كان الكتاب المقدَّس يتحرك بسرعة في سرد أحداثه.. فقد ابتدأ بانفجار، ثم الخلق، ثم انتقل إلى قصة حب رقيقة، وبعض الحميمية، ثم غيرة أدت إلى قتل مروع.. هذا التدرج يحظى بإعجاب أي مخرج.

ثم يأتي الإصحاح الخامس.. أي محرر يستحق أجره كان سيقاطع موسى هنا ويقول له: "يا موسى، هذا لن يعجب أحدًا.. كل شيء مُمل هنا. القصة كانت تسير على نحو صحيح، ثم يأتي هذا! الزخم الناتج عن كل ما سبق يصطدم الآن بحائط صخري من هذا التكرار المُمل."

بدءًا من العدد الثالث يهبط إصحاح ٥ إلى قائمة مُملة وطويلة من الأرقام، والأسماء التي ما عاد أحدٌ يستخدمها:

> وعاش آدم مئة وثلاثين سنة، وولد ولدًا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثًا. وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثًا ثماني مئة سنة، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة وثلاثين سنة، ومات. وعاش شيث مئة وخمس سنين، وولد أنوش. وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثماني مئة وسبع سنين، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتي عشرة سنة، ومات.
>
> وعاش أنوش تسعين سنة، وولد قينان. وعاش أنوش بعدما ولد قينان ثماني مئة وخمس عشرة سنة، وولد بنين وبنات...

بعد ذلك تبدأ أسماء جديدة وأرقام مختلفة، لكن هذا هو الإصحاح بشكل عام.. أحد الشباب يصير أبًا في عمر يتجاوز سن التقاعد، ثم يستمر في إنجاب مزيد من البنين والبنات إلى أن يموت.

في حقبة ما من الزمن قبل أن نرى انتخابات سياسية، ومنافسات رياضية، وأغنى رجال الأعمال في العالم، كان الناس يعيشون وينجبون البنين والبنات، ثم يموتون.. وهذا كان ما يُعرف عنهم في أغلب الأحيان. لم نعرف عنهم هل كانوا يفضلون زراعة المحاصيل أم تربية المواشي، أو حتى أين يعيشون. ولا نعرف كيف كانوا يقضون وقت فراغهم (إذا كان لديهم وقت فراغ)، أو أي نوع من المقتنيات كانت لديهم، أو كيف يتنقلون ويسافرون. كذلك لا نعرف إذا كانوا يميلون إلى النحافة أم السمنة، لديهم صلع أم شعر كثيف، لديهم تقوس في الساقين أم لديهم جسم رياضي. كل ما نعرفه عنهم أنه كان لديهم أبناء، ثم ماتوا.

هذه النظرة البسيطة جدًا للحياة هي نظرة صادقة بشكل صادم.. بعد سنوات كثيرة من الآن، وبعد مرور أجيال على رحيلنا من أرض الأحياء، ربما لن يعرف أحفادنا وظائفنا، أو هواياتنا، أو شكل المنازل التي عشنا فيها، وهل كنا نفضِّل البيبسي أم الكوكا كولا. ربما يستطيع أحفادنا، أو أحفاد أحفادنا، من تجميع قصة أو قصتين عنا- أكثر من هذا لا نكون إلا تاريخًا. بشكل عملي للغاية، سيكون الشيء الوحيد الأهم بالنسبة لهم هو أننا اخترنا أن يكون لدينا بنون وبنات، ونتيجة ذلك أنهم أحياء ويسيرون على وجه الأرض.

حتى المشاهير مثل الرؤساء لابد أن يعيشوا مع هذه الحقيقة. الرئيس «ليندون جونسون» دعا كاتب سيرته قبل موته بيومين عام ١٩٧٣. نتحدث هنا عن "رجل ذي حيثية"، باعتباره رئيس الولايات المتحدة، من حيث المسيرة المهنية. ومع ذلك تأمل كيف بدا كل شيء له بلا نفع بينما نطق بعض كلماته الأخيرة:

> كنتُ أقرأ السيرة الذاتية للرئيس لينكولن التي كتبها كارل ساندبرج، وبصرف النظر عن عظمة هذا الكتاب، لن أستطيع أن أعيد لينكولن إلى الحياة. وإذا انطبق هذا الكلام عليَّ، وأنا رئيس يقرأ عن رئيس آخر، فليس هناك فرصة للشخص العادي في المستقبل أن يتذكرني أبدًا.. لا توجد فرصة. كان الأفضل لو بحثت عن الخلود من خلال زوجتي وأبنائي وأبنائهم بالتبعية بدلاً من السعي للحصول على كل هذا الحب والتعلُّق من الشعب الأمريكي.[٢]

هذه الحقيقة الصارخة، والقاسية إلى حد كبير، تجعل الإنسان المعاصر يتضع، وتتحدى معظم طموحاتنا في عصرنا الحديث.. يصبح كل ما نقضي فيه معظم وقتنا ونحن قلقون كلا شيء: وظائفنا من التاسعة

صباحًا إلى الخامسة مساءً، البيوت التي نعيش فيها، كيف سنقضي عطلة نهاية الأسبوع، كيف تبدو لياقتنا الجسدية، أية سيارة نقودها.. تصبح كلها أمورًا في طي النسيان. بينما ما نغفله كثيرًا في كل مساعينا السابقة -أبناءنا وعائلاتنا- هم الشيء الوحيد الذي نخلِّفه وراءنا.

لا تنسَ أننا نتكلم عن تكوين ٥، من الكتاب المقدَّس! هذا وصف الله للعالم في آلاف السنوات الأولى من عمر هذا الكون. وقد أراد الله أن يبسط حياة هؤلاء الرجال بذكر أهم أعمالهم: البنين والبنات، والموت، ثم ترك المجال لآخرين. لا أدري كيف يمكننا أن نبسط حياتنا بإدراك أن ٨٠٪ أو أكثر من الأمور التي ننفق وقتنا عليها ستُنسى في النهاية! ربما يجب أن نلتفت إلى الـ ٢٠٪ المتبقية.. وعندئذ سيزيد بشكل ملحوظ المجهود الذي نبذله لترك إرث دائم من خلال الأبناء والأحفاد.

إذا لم تكن مقتنعًا بعد، جرِّب هذا الاختبار: أخبرني اسم جد جد جد جدك.. وهذا على بُعد خمسة أجيال فقط. ما اسم زوجته إن عرفت؟ أين كانا يعيشان؟ على الأرجح لن تقدر أن تجيب على هذه الأسئلة، لكن لأن هناك دائمًا بعض المولعين بالأجيال، اسمح لي أن أدخل إلى العمق أكثر. هل كان أسلافك يتمتعون برشاقة بدنية أم لا؟ كيف كانوا يقضون وقت فراغهم؟ ما هو أكثر شيء كان يصيبهم بالقلق؟ أي عضو في أجسامهم كان يؤلمهم أكثر، أو بم كانوا يشكون: التهاب المفاصل، الجيوب الأنفية، أم وجع الظهر؟ كم مرة نسوا دفع الأقساط الائتمانية؟ كيف كانوا يدبرون ما يكفي من المال لتسديد نفقات حفل زفاف بناتهم؟ ماذا كانت الوجبة المفضلة لديهم؟

وبالرغم من أن معظمنا تقريبًا لن يقدر أن يجيب على هذه الأسئلة، فإن هذه الانشغالات كثيرًا ما تحدد ما نعيش لأجله. الآن دعنا نجعل الأمر شخصيًا.. إذا لم تستطع أن تجيب على هذه الأسئلة الخاصة بجد

جد جد أجدادك، ما الذي يجعلك تظن أن أحفاد أحفاد أحفاد أحفادك سيكونون قادرين على إجابة نفس الأسئلة عنك؟

باختصار، عندما نكون أمناءإلى أبعد درجة، علينا أن نعترف أن معظم ما ننفق حياتنا عليه، في المستقبل القريب، سيكون بلا أهمية تُذكر، وسيُنسى، وسيُمحى:

- كم من الوقت علينا أن ننتظر حتى نعيد تصميم المطبخ؟
- كيف سندخر ما يكفي من المال لندفع مُقدَّم المنزل الجديد أو السيارة الجديدة؟
- متى سأحصل على شعر بلا تجاعيد؟
- إلى متى سأتحمَّل زواجًا غير متكافئ؟

إذا ركَّزتُ على هذه الأمور وتناسيت أهدافًا أكثر سموًا، فأنا أعيش حياة بالية. فبعد جيلين فقط لن يهتم أحد بما يشغلني جدًا الآن.

لكن هل تعرف؟ في يوم من الأيام سيشعر أحد الأطفال بالامتنان الشديد لأن ابنًا أسميته جراهام توماس قد وُلد، وتزوج، وأنجب أطفالاً آخرين- لأن هذا الطفل ما كان ليظهر إلى الوجود لو لم يُولد جراهام، ويجد مَنْ يعتني به، ويقوده حتى يصل إلى مرحلة النضوج. هؤلاء الأحفاد لن يهمهم من قريب أو بعيد التفاصيل الخاصة بلماذا ومتى حُبل بجراهام، وكم كان لدينا من الأموال عند ولادته، أو طبيعة عملي عندما كان جراهام في العاشرة، وهل والدا جراهام كانا سعداء في زواجهما، أم كان زواجًا عاديًا.. فقط سيشكرون الله لأن نسل توماس ظلَّ مستمرًا حتى لحقوا به.

تأمل في هذا عدة مرات لتتأكد أنه سيغيِّر نظرتك للأشياء الأهم بالنسبة لك الآن.. مَنْ يهتم حقًا -أو سيهتم- بعد خمسين أو مائة عام من الآن؟ بالنسبة لي، الإصحاح الخامس من سفر التكوين يجعلني أريد أن أتمتع بإلهي وأخدمه، وأتمتع بزوجتي، وأستثمر وقتًا أطول مع

أبنائي، ثم أرحب بالموت كنصيبٍ لي لأفسح لآخرين أن يُولدوا ويعيشوا ويفعلوا نفس الشيء.

نظرة إلى المستقبل

ذُهلت مؤخرًا بسبب منظر ربما منحني لمحة عن المستقبل.. كانت ابنتي الصغرى، كيلسي، تركب دراجتها بجواري بينما كنت أتمشى مهرولاً. وفي منتصف الطريق، اقتربنا من شخصين يشغلان عرض الرصيف. أشرتُ إلى كيلسي بأننا نحتاج أن نعبر على العشب المجاور للرصيف حتى لا يضطر هذان الشخصان أن يتحركا بعيدًا. وعندما اقتربتُ أكثر، لاحظتُ أن أصغرهما هو الرجل في الخمسينات من عمره، وكان يساعد امرأة ضعيفة جدًا، ربما في الثمانينات من عمرها، بينما تحتاج إلى عكاز لتتحرك به.

الفكرة التي راودتني أنه بالرغم من أنني أجري الآن وكيلسي تحتاج إلى دراجة لتلحق بي، سيأتي يومٌ -سريعًا جدًا- حين قد أحتاج إلى دراجة لألحق بها وهي تجري. وبعدها بقليل سيأتي يوم تصل كيلسي إلى عمر الخامسة والثمانين، وتحصل على مساعدة ابنها البالغ الخامسة والخمسين- أي حفيدي (الذي لم يُولد بعد). في تلك اللحظة العابرة، رأيت الأجيال تتحرك أمامي كالنهر الجليدي- حركة بطيئة ومستمرة، وبلا توقف للزمن وللعائلة.

لن يهتم أحفاد أحفادي بنوع الفستان الذي كانت ترتديه جدة جدتهم، ولن يشغلهم أبدًا سواء وصلت مبيعات هذا الكتاب إلى ٣٥ ألف نسخة أو ٣٥٠ ألف نسخة (الآن يدخل الكتاب حيز الملكية العامة بعد وفاة المؤلف بسبعين عامًا، وبالتالي تضيع حقوق الملكية على ورثة الكاتب). سيهتمون بكمية الشعر التي كانت لديّ؛ فقط لأن هذا يعكس نوعية الجينات التي

نقلتها لهم- لكن وقتها أنا متأكد أن شخصًا ما سيكون قد اكتشف علاجًا للصلع (ربما أكون آخر رجل أصلع في تاريخ العالم).

حتى المشاهير سرعان ما سيغرقون في بحر النسيان.. هل يظن أي أحد أن الناس ستتحدث عن «توم كروز» أو «بريتني سبيرز» بعد ١٥٠ عامًا من الآن؟ كعضو في «رابطة المؤلفين» تصلني نشرة ربع سنوية عادة ما تتضمن صفحتين عن أسماء الأعضاء الذين رحلوا مؤخرًا. في إحدى النشرات ذُكر اسم «فرانك سلاتر»، وقد كان كاتبًا لامعًا وناجحًا جدًا في منتصف القرن العشرين (بما يقابل «چون جرِيشام» اليوم)، وقد مات في عمر الثالثة والتسعين. هل تظن أن سلاتر تصدّر عناوين الصحف؟ لا. هل تظن أنهم عرضوا له صورة؟ في النهاية هذه النشرة تختص بالكُتّاب، وكان فرانك سلاتر أحد أشهر الكتّاب في عصره. لا، لم يعرضوا له صورة واحدة.. كل ما حصل عليه هو فقرة واحدة. هذا كل شيء! في هذه الفقرة عرفت أن فرانك كان طبيبًا، وحققت رواياته أعلى المبيعات في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي- لكن هذا حدث منذ عشرات السنوات. القليلون هم مَنْ يقرأون كتبه اليوم، والأقل سيقرأونها غدًا، وفي غضون خمسين عامًا أخرى أو أكثر قليلاً ربما لن يقرأ له أحد، لكنه قدَّم أعمالاً مُبهرة في عقود قليلة مجيدة.

إن بحثنا عن الأهمية يمكن أن يصبح مثيرًا للشفقة، مثل طفلين يتشاجران على دُمية مكسورة. إلى متى سيتذكر الناس لاعب البيسبول الشهير «روجر ماريس» بعد أن كسر أحدهم الرقم القياسي الذي حققه؟ مَنْ كان مدير شركة چنرال موتورز عام ١٩٧٥؟ أو ١٩٨٣؟ مَنْ كانا النائبين عن ولاية فيرچينيا في مجلس الشيوخ عام ١٩١٠؟ مَنْ كان الراعي المسؤول عن أكبر كنيسة في أمريكا عام ١٩٣٥؟ ما هي أسماء مَنْ تسلقوا جبل إيفرست عام ١٩٩١؟ مَنْ كان أهم مصمم أزياء عام ١٩٥٤؟

قليلون منا يستطيعون الإجابة على واحد أو اثنين من هذه الأسئلة، ومع ذلك هؤلاء الناس هم أكثر مَنْ يتصدرون أغلفة المجلات والبرامج التليفزيونية. الأطفال يعلِّموننا رسالة بسيطة وعميقة في نفس الوقت مفادها أن ما يعتز به المجتمع يصبح بلا قيمة، أو حتى مُضحكًا، عندما تمر عليه الأيام بلا توقف. إن ما نغفله كثيرًا -ميراث الإيمان- هو الشيء الوحيد الذي سنتركه خلفنا.

مُخلَّصون بضآلتنا

تعلَّمت من تكوين ٥ أنني بحاجة إلى تقبُّل ضآلتي. أعلم أن هذا يبدو عكس ما تروج له الثقافة المحيطة بنا، لكني أؤمن أن هذه حقيقة كتابية في وجه السعي إلى الإحساس بالأهمية المدفوع بالطموح والمنتشر في عالمنا اليوم.

الحقيقة هي أن واحدًا فقط من عشرة مليون منّا سيتذكرهم التاريخ.. من وقت لآخر، ستظهر كليوباترا أخرى أو نابليون آخر تتذكره الأجيال التالية! لكن من بين مليارات البشرالذين يعيشون على الأرض اليوم، كم شخصًا سيتذكره الناس بعد مائتي عام من الآن؟ إذا رتبت حياتك على الاحتمالات الضئيلة جدًا بأنك ستكون واحدًا من عشرة مليون شخص، فهذا يبدو أمرًا ساذجًا، مثل شرائك تذكرة اليانصيب وتوقعك بأن تكسب. احتمالات عدم حدوث هذا كبيرة جدًا، وليست في صالحك؛ مما يعني أنه من غير المنطقي أن تبني حياتك على مثل هذه المخاطرة الغبية. وحتى هؤلاء الذين يتركون تأثيرًا مؤقتًا سرعان ما يخبو بريقهم. التاريخ مليء بأمثلة من الملوك والملكات، وحتى الباباوات، الذين لا يذكرهم أحد بأكثر من حاشية مغمورة في كتب التاريخ المغمور، التي لا يقرأها أحد.

عندما أقبل ضآلتي التاريخية سأتحرر لأركز على أهميتي الأبدية والعلاقاتية الحقيقية جدًا. أنا مهم لزوجتي، أنا مهم جدًا لأبنائي، لديّ مكانة مؤكدة كابن تبناه الله العلي.. هذه هي العلاقات التي أريد أن أبني عليها حياتي، وحيث أريد أن أنفق طاقتي.

بعض أصدقائي المُقربين قالوا لي مؤخرًا شيئًا أدهشني للغاية، وكانت ملاحظة عابرة ومرتجلة، لكنها سمرتني مكاني.. من بين كل أصدقائهم (وبالرغم من أسفاري الكثيرة)، قالوا إنهم يعتقدون أنني منخرط في حياة أبنائي أكثر من أي أب آخر يعرفونه. هناك سبب لهذا.. بالرغم من أنني أحب ما أفعله -تأليف الكتب، لكنني مؤخرًا تنبهت لشيء عندما دخلتُ على موقع أمازون الإلكتروني لأبحث عن كتب لأحد الكُتَّاب المُفضلين عندي، وهو «إيلتون تروبلاد». إن كتبه مليئة بضعف ما تحمله كتبي من حكمة وبصيرة، ومكتوبة بأسلوب أفضل. لقد كان أكثر ذكاءً مني، وأكثر حكمة، ولديه قدرة أكبر على توصيل الأفكار. وحتى اليوم، بعد قرن ونصف من إصدار العديد من كتبه تتحداني أفكاره جدًا. ومع ذلك فإن كل كتبه تقريبًا الآن قد نفذت طباعتها، وقد تُوفي قبل عقدين من الزمان تقريبًا. ومن الحماقة إذا اعتقدت أن الأمر سيكون مختلفًا في حالتي. بالرغم من أنه انطلاقًا من الطاعة أريد أن أخدم الله كما دعاني أن أخدمه، فإن أفضل طريق سيدوم تأثيره هو أن أحقق هذا من خلال إنفاق وقتي مع أطفالي.

هناك حقيقة لاهوتية تدعم هذا الترتيب في الأولويات. أغضب جدًا عندما أرى قادة مسيحيين مشهورين جدًا يتحدثون عن مسحة أو لمسة خاصة من الله؛ فهم بذلك يخلقون ما أسميه "الطبقية الروحية". الكتاب المقدس يعظِّم بطلاً واحدًا فقط، وهو الله نفسه. الأكثر من هذا أن الكتاب المقدس لا يتردد في توثيق كيف كان لشخصيات كتابية بارزة عيوب

ملحوظة لا يمكن إخفاؤها.. لقد سقطت حواء ضحيةً لخداع الحية؛ وتعجَّل إبراهيم خطة الله ليصير أبًا؛ وموسى قتل المصري، وبعد فترة نَسَب لنفسه عمل الله، ومِن ثَمَّ خسر حق الدخول إلى أرض الموعد؛ وارتكب الملك داود الزنا والقتل؛ وأنكر بطرس الرب يسوع ثلاث مرات؛ واضطهد بولس الكنيسة الأولى قبل إيمانه.

ليس مصادفة أن يكشف الكتاب المقدس عن هذه العيوب الضخمة في أجدادنا الروحيين؛ فالله لا يعطي مجده لآخر.. لا أحد ينافس الخالق. مرة أخرى، الكتاب المقدس لا يعرف سوى بطل واحد، هذا البطل الأوحد هو الله. وسعينا إلى الأهمية كثيرًا ما يكون محاولة خطيرة لسرقة بعض من مجد الله. ربما نجعل من شهوتنا للظهور والتقدير شيئًا ملائكيًا- عندما نغلِّف مطامحنا في تعبيرات مثل بناء الملكوت؛ لكن في جذورها هي نشاط شيطاني للاستفادة من عطايا الله حتى نُظهر أنفسنا كأشخاص مهمين.

أيها الواعظ، من الطبيعي أن لا يتذكر الناس جميع عظاتك، ولن تكون كل كلمة تقولها مهمة للتاريخ. لا تدفن نفسك تحت هذا الثقل الكبير! استمر ونفِّذ ما تعلَّمته مع أبنائك، حتى إذا كانت عظتك الأسبوعية ضعيفة.

يا رجل الأعمال، أو يا سيدة الأعمال، ليس عيبًا أن لا تدوم شركتك بعد مماتك. لا تظل مربوطًا بالقيود التي تُصر على أن قيمتك مرتبطة بكيف بنيت "شيئًا يدوم"؛ فحتى أنجح الشركات تنهار في النهاية. لا تتجاهل مَنْ تحبهم في محاولة يائسة لتكون الاستثناء من بين عشرات الملايين من الناس، وتعتقد أنك ستغيِّر تاريخ الشركات.

أتذكر حين بدأت خدمتي الخاصة، وبدلاً من استعطاف الناشرين لينشروا كُتبي، بدأت فعليًا أرفض العديد ممَنْ أرادوا مساومتي لأترك الناشر الحالي الذي أعمل معه. وبدلاً من الاتصال برعاة الكنائس للبحث عن فرصة لألقي كلمة في كنائسهم، بدأت أرفض مضطرًا الكثير من

الطلبات؛ لأن جدول مواعيدي لم يكن شاغرًا لما يقرب من تسعة أشهر قادمة. وفي تحدٍّ واضح جدًا، شعرتُ أن الله يخبرني أن أمامي خيارًا: أستطيع أن أكرس ذاتي لأصبح شجرة قوية وجذابة يُعجب بها الآخرون.. "انظر إلى هذه الجذور!" "يا إلهي، انظر إلى كل هذا الثمر!" أو أركِّز على غرس غابة (أي الاستثمار في حياة الآخرين). وأوضح الله لي ماذا يريد مني.. لذا أنفقت أيامي في غرس هذه الغابة.

يا لها من حرية تلك التي تتمتع بها عندما تقبل ضآلتك! النساء والرجال الذين ربما يُغوون بتجاهل عائلاتهم لتحقيق الإحساس بالأهمية في نظر المجتمع يجدون أنفسهم أمام إحساس بالتقدير مؤقت وباطل، وتضيع منهم فرصة ترك تأثير أبدي حقيقي.

لا تنخدع، لا تتجاهل الأشياء المهمة حقًا، ولا تحاول اللعب على احتمالية واحد في كل عشرة ملايين. اقبل ضآلتك، واسمح لهذا أن يعيد ترتيب أولوياتك. من المفارقات المبهجة لله أنه عندما تقبل ضآلتك الزمنية فهذا يؤدي بك إلى الأهمية الأبدية الأعظم!

تعريف الأميرة

هل توجد صبية صغيرة في مكان ما لم تحلم بأن تكون أميرة، ولو مرة واحدة في حياتها؟ ربما، لكني لم أقابل فتاة من هذا النوع.

عندما نفكِّر في أميرات اليوم، نفكر في الثراء، والخَدم، والقصر، والتبجيل، والسلطة، والأموال الكثيرة. لكن عندما سمعت سارة زوجة إبراهيم أنها ستكون أميرة، لم يتضمن هذا الوعد ترفًا، أو غنىً، أو عرشًا، أو سلطة حاكمة على مدينة.. ما جعلها أميرة في عيني الله أنها ستكون أمًا لنسل لا يُعد.

قال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي،

بل اسمها سارة (أي أميرة). وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا. أباركها فتكون أممًا، وملوك شعوب منها يكونون. (تكوين ١٧: ١٥ و١٦)

فقط المؤمنون غير الناضجين يفكرون في إيمانهم بصفة فردية (أي كيف يباركهم الله ويستخدمهم وينميهم)، بمعزل عن دورهم في الكنيسة العامة.. كذلك فإن الآباء والأمهات غير الناضجين يفكرون في أنفسهم بشكل فردي بمعزل عن نسلهم (الروحي والجسدي). عندما يقطع الله وعدًا لإبراهيم، فهو يأخذه إلى أبعد من فترة حياته الخاصة إلى نسله: «لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (تكوين ١٣: ١٥).

ثم بعد فترة من الزمن يجدد الله وعده بمباركة إبراهيم بركة عظيمة، وليزيد خدمته وتأثيره، لكن إبراهيم لم يكن يشعر بأي فرح. لماذا؟ إنه لم ينجب أي أطفال ليمرر لهم هذه البركة: «أيها السيد الرب، ماذا تُعطيني وأنا ماضٍ عقيمًا» (تكوين ١٥: ٢). كان إبراهيم يفكّر بطريقة عملية: "قد تعطيني كل ما أريد، لكن إذا توقف الأمر عندي، فما الجدوى من هذا؟ أنا لديّ بالفعل كل ما أحتاج! وبدون أبناء يرثون ما لديّ، فكل هذا يصبح بلا قيمة!"

إبراهيم وسارة، كزوجين ناضجين، كانا يفكّران على مستوى الأجيال القادمة، مثلما يجب على كل مؤمن ناضج أن يتعلَّم التفكير بشمولية (على مستوى الكنيسة). إن دعوتنا، ومجدنا الحقيقي، أن نتطلع إلى ما هو أبعد من ذواتنا، إلى مصلحة كنيسة الله، وإلى مستقبل أبنائنا.. هذا هو فكر الله. تعلمنا كلمة الله أن الله اختار إبراهيم ليس من أجل إبراهيم فقط، ولكن لأجل الأجيال القادمة: «لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب...» (تكوين ١٨: ١٩).

لقد أخبر الله موسى بأنه قسَّى قلب فرعون «لكي أصنع آياتي هذه بينهم. ولكي تخبر في مسامع ابنك وابن ابنك بما فعلته في مصر...» (خروج ١٠: ١ و٢). فكَّر الله في أجيال كثيرة قادمة فيما يتعلق بما يريد أن يُظهره للأبناء والأحفاد. ترى ما الذي يهم حقًا للأبدية؟

هذا قد يبدو كلامًا مستهلكًا، لكنَّ هذه الحقيقة الكتابية هي التي تجعلني أشعر بالاستفزاز من عبارة مثل: "كان يسوع سيموت لأجلي لو كنت أنا الإنسان الوحيد على الأرض." هذه العبارة تجعلني أقشعر؛ لأن هذا الشعور بالتمحور حول الذات يتعارض مع روح التضحية، والمسؤولية الجماعية، والاهتمام بالآخر.. وهو ما يدعونا الإنجيل إليه. أنا لست الشخص الوحيد، وجيلي لن يكون الأخير.. وإلى أن أفهم هذا فلن أبدأ في فهم ملكوت الله أبدًا.

الراباي «نانسي كريمر» تحكي قصة حقيقية عن أبوين يهوديين لم يكونا يهتمان بجدية بهُويتهما كيهود. لكن عندما وُلد ابنهما، كان عليهما أن يتخذا قرارًا بشأن اتباع طقس الختان معه. وبالرغم أن إيمانهما لم يؤثر في حياتهما اليومية، كان ضميرهما يوبخهما بسبب كسر عهد دام ثلاثة آلاف سنة. في النهاية، وبعد تفكير عميق وإصرار، قرر هذان اليهوديان غير المتدينين أن يتمما الطقس الديني. وبطريقة عجيبة، القطع الذي فصل الصبي عن لحم الغرلة جعل هذه الأم الشابة تنطلق إلى مستوى أعمق من الفهم.. فبعد الختان مباشرة تحولت إلى أختها وقالت: "الآن أنا لستُ نسلاً فقط، لكني سَلَف أيضًا!"[٣]

عندما ننظر لأنفسنا كأسلاف وليس فقط كنسل هذا يمثل تحولاً روحيًا في غاية الأهمية. رحلة التربية المقدسة تغيِّر نظرتنا للأمور.. نحن نتحول من "أنا" إلى "نحن"، من الفرد إلى العائلة، ونبدأ في فهم التأثير الذي يمكننا أن نتركه على الأجيال المستقبلية. بدلاً من المغالاة في تقدير الفرد،

نستطيع أن نطور قدرًا جيدًا من "تقدير العائلة"؛ لأن التربية المقدسة تجعلنا أمراء وأميرات يعملون في بناء ملكوت الله!

فكّر معي في قصة شاب من زمن بعيد.. كانت أم عوبيد أرملة فقيرة وشابة ومتغربة، وأبوه بوعز يمتلك حقلاً. لم يكن بوعز ثريًا ثراء فاحشًا، لكنه لم يكن فقيرًا فقرًا مدقعًا؛ ولم يكن جذابًا بشكل لا يُقاوم، بل في الواقع لقد تقدم قليلاً في العمر. لكن راعوث (أم عوبيد) تبعته، وتزوجا، وولدا عوبيد- التي ولدت زوجته يسى، الذي أنجبت زوجته داود، الملك المستقبلي لشعب الله، ورجل ألفيته كلها كما يُقال.

قدَّم عوبيد حلقة واحدة فقط في هذه السلسلة من الأحداث التاريخية- ومخاوفه، ومباهجه، ونجاحاته العظيمة، وإخفاقاته الكبيرة نُسيت منذ زمن طويل؛ لكن نسله لعب دورًا في التاريخ الإنساني له أهمية أبدية. لقد عاش ومات وأفسح الطريق لغيره- ولكن انتبه أي مصير تركه خلفه.. من هذه الحلقة جاء مخلص كل مَنْ يؤمن.. يسوع المسيح نفسه. ولا يوجد ما هو أفضل من هذا فيما يتعلق بترك إرث يدوم!

التربية المقدسة تدعونا إلى تركيز حياتنا القصيرة على ما سيترك أقصى تأثير على الأجيال المستقبلية. ستنسانا الأرض سريعًا، لكن السماء ستتذكرنا. دعونا نقبل هذه الحقيقة باتضاع، ثم نقبل الأمانة المقدسة للأبناء التي منحنا الله إياها. ثم لابد أن نعيد ترتيب أولويات حياتنا وفقًا لضآلتنا النسبية، وفي النهاية نتعلَّم أن نفكّر كما يفكّر الله على مستوى الأجيال.

لقد وُلدنا، وسنموت، وسنفسح الطريق لغيرنا. لكن مَنْ يتمسكون بالتربية كرحلة مقدَّسة، وينظرون للتربية هكذا، سيتركون خلفهم شيئًا رائعًا باقيًا.

"من ناحية العائلة يصنعها الأفراد الذين يشكلونها، لكن بمعنى آخر أكثر عمقًا: العائلة هي التي تصنع الأفراد."

– إيلتون تروبلاد

"هناك آباء وأمهات كثيرون يرغبون جدًا في التكريم، لكن الأزمة أنه ليس الكثيرون منهم مستعدين لأن يكونوا جديرين بالتكريم."

– چوي ديفيدمان

«ابذلوا جهدكم لتضيفوا الفضيلة إلى إيمانكم...»

– بطرس الثانية ١: ٥ – الترجمة العربية المشتركة

الفصل الحادي عشر

نحن ماكينات طباعة

كيف تشجعنا تربية الأبناء
على تطوير شخصياتنا

لم يعرف «چورچ جيلدر» والده الذي شارك كطيّار مقاتل في الحرب العالمية الثانية وقُتل بينما كان ابنه چورچ يرتدي الحفاضات. وبالرغم من أن والده كان شخصية واعدة، درس الاقتصاد وتخرَّج من جامعة هارفارد، إلا أن چورچ لم يسمح لأحد أن يتكلم عنه لسببين: أولاً، كان لديه زوج أمه، وكان يشعر أنه قريب منه جدًا (فلم يُرد أن يجرح هذا الأب الثاني بالتحدُّث كثيرًا عن أبيه البيولوچي). وثانيًا، لأن الأمر كان يسبب له الحَرَج: "شعرت أنهم حين يصفون فضائله غير العادية (يقصد أباه)، فبطريقة ما هم يمتدحونني أنا أيضًا."[1]

ومع ذلك، سار چورچ على خُطى أبيه البيولوچي، والتحق وتخرَّج من جامعة هارفارد، كما أخذ عن أبيه اهتمامه بالاقتصاد؛ مما جعله يكتب

في النهاية مخطوطًا بعنوان "الثروة والفقر" (Wealth and Poverty). وفي نفس اليوم الذي حصل فيه چورچ على الصفحات الأولى المجمَّعة من كتابه هذا، جاءته مكالمة تليفونية من عمه الذي أدهشه جدًا عندما أخبره أنه اكتشف صندوقًا كبيرًا مليئًا بأوراق قد كتبها والد چورچ.

بدأ چورچ بحماس وإثارة شديدين يتصفح هذه الأوراق؛ فأخيرًا حصل على وسيلة لفهم مباشر لعقل أبيه ومعتقداته. وهناك شيء لفت نظره بشكل خاص: مخطوطة غير مكتملة من ١٧٥ صفحة عن الاقتصاد. وكاد چورچ يُصعق من محتوى هذه المخطوطة:

> أحد موضوعاتها كان عن أهمية ما أسماه "رأس المال غير الملموس". وهذه الفكرة تتطابق تقريبًا مع الرسالة الأساسية في كتاب "الثروة والفقر": أن القوة الدافعة للاقتصاد الحر ليست هي الموارد المادية أو حتى رأس المال المادي، وإنما رأس المال الميتافيزيقي للعائلة والإيمان. في الواقع، عمل أبي لو اكتمل، لكان من الأنسب أن يحمل عنوان "الثروة والفقر".
>
> أكدت المخطوطة معنىً عميقًا حملته معي عبر شبابي، وهو أنني كنت مرتبطًا بطريقة سريَّة بشكل أو آخر بهذا الرجل الذي لم أعرفه. لم تكن العائلة حادثة اعتباطية تتكون من ضغط وقدوة الوالدين وانتهت بمغادرة البيت؛ لأن تأثيرها لم ينبع فقط من المعلومات الوراثية أو التعليم المنزلي، ولم تنتهِ بالمسافة أو حتى الموت.
>
> لم يعلِّمني أبي عن الاقتصاد، وعلَّمتني هارفارد القليل جدًا في الدراسة التمهيدية التي أخذتها، وبالكاد نجحتُ فيها. ومع ذلك باكتشاف هذا المؤلَّف في عامي الأربعين، فقد حصلت على مصدر جديد من الإبداع والقوة العقلية التي لم أتخيَّل

أبدًا أنني أملكها. بعض هذا الإلهام أتاني من ذلك الشاب المرتدي ملابس عسكرية، والذي كان يتسلق ليركب طائرة مقاتلة في عمر السادسة والعشرين في الحرب ضد النازية، وترك وراءه إلى الأبد في موطنه صبيًا في عمر السنتين، ونصًا غير مكتمل داخل الصندوق عن الاقتصاد.[٢]

لكي تكون أبًا أو أمًا هذا يعني حرفيًا أنك تشكل وتؤثر في حياة إنسان آخر. هذه أرض مقدسة- حقًا، ودعوة مقدسة كي ننتبه إلى أي قالب نشكِّل به حياتنا. في حقيقة الأمر، هذا التأثير الهائل على الجيل التالي يذكِّرنا بالآية الكتابية محور هذا الكتاب: «فإذ لنا هذه المواعيد أيها الأحباء لنطهِّر ذواتنا من كلِّ دنس الجسد والروح، مكملين القداسة في خوف الله» (٢كورنثوس ٧: ١).

لماذا تتطلب التربية تطهير ذواتنا؟ لأن أبناءنا كثيرًا ما يسيرون على التعاريج التي نرسمها.

الابنة تشبه أمها

قضينا ليزا وأنا الأشهر القليلة الأخيرة من فترة خطبتنا بجامعة ويسترن واشنطن في بيلنجهام، ثم تزوجنا بعد يومين من آخر امتحان نهائي لي، وقبل أسبوع من تدريبات حفل التخرج.

خلال فترة الخطوبة، كان أصعب جزء من اليوم لكلينا عندما نقول: "تصبح على خير". كنا نزداد قربًا في هذا الوقت، وقد تعهدنا بأن نكون لأحدنا الآخر مدى الحياة، لكن لأن الزواج لم يكن يتم بعد راعينا كمية الوقت الذي نقضيه سويًا. فضلاً عن ذلك، كان علينا محاضرات في الصباح، وزميلة ليزا في الغرفة تحتاج إلى النوم، وعليّ أن أعود أنا أيضًا إلى غرفتي.

لكن سرعان ما أصبحت لحظات الوداع هذه روتينية بعض الشيء، تتكرر عدة مرات أسبوعيًا، بنفس الكلمات ونفس التصرف تقريبًا.

تسأل ليزا: "هل يجب أن تغادر؟" فأقول: "نعم"، وأعلم جيدًا ما سيتبع هذا.

"إذًا اترك يدك وارحل." وتأخذ ليزا يدي وتضعها على خدها.

بعد هذا الوقت بعشر سنوات تقريبًا، كنا ليزا وأنا متزوجين ولدينا ثلاثة أبناء. وقت النوم الآن تمثَّل في أطفال وكل منهم لديه طقوسه.. كيلسي تضع إصبعها في فمها، وتحتضن دُميتها، وتغوص في النوم في غضون ثوانٍ.. وجراهام يستلقي على وجهه على السرير، وعادة ينام مع عربته، وسيف بلاستيكي، أو قفاز كرة البيسبول، ويغوص في النوم في غضون دقائق. أما آليسون فيصيبها التوتر ليلاً في السرير بينما تدمن النوم في الصباح- نادرًا ما رأيت ابنة تشبه أمها هكذا.

بينما كنت أشد الغطاء على آليسون ذات ليلة -ولا أعرف أي أبٍ قام بعمل بلا جدوى أكثر من هذا- قالت: "اقترب أكثر مني." كان صوتها يقطر بنغمة مخادعة لا ينجح الصغار في إخفائها جيدًا. فملتُ عليها، واحتضنتها بقوة بين ذراعي، ثم قالت: "ابقَ هنا." أجبتها: "لا أستطيع، أنتِ تحتاجين إلى النوم، وحان الوقت لأطفئ الأنوار."

"إذًا اترك لي يدك!" ثم سحبت يدي بأصابعها الصغيرة، وجذبتها نحو وجهها مغطية وجنتها.

كاد أن يُغشى عليَّ.. بدا الأمر مشابهًا جدًا لما كانت تفعله أمها ونحن في الجامعة؛ حتى أن آليسون وليزا اختارا نفس الخد ليضعا يدي عليه.

سألتها: "هل أخبرتكِ أمكِ أن تفعلي هذا؟" فأجابت: "لا."

"هل ذكرت أمامكِ أي شيء يقول إنها كانت تفعل هذا أيضًا؟"

"لا، لماذا؟"

"لأن أمكِ كانت تفعل نفس الشيء دائمًا عندما كنا في الجامعة."

لمعت عينا آليسون.. وكانت هاتان العينان تنبضان بالحياة ليلاً أكثر من البدر المكتمل.

قالت آليسون: "أعطني ذراعك"، والآن تمسك بمرفقي لتجعل يدي على وجهها.. "بإمكانك أن تذهب، فقط اترك لي ذراعك." أكاد أجزم لولا أسنانها المتسعة وجسدها النحيل أنني عُدت بالزمن إلى الوراء إلى تلك اللحظات التي لا تُنسى بالجامعة.

شعرت بالدوار وأنا أغادر غرفة آليسون.. أكاد أتخيَّل فتاة صغيرة في ألمانيا منذ ١٥٠ عامًا ترفع يدي أبيها الكبيرتين وتضعهما على وجهها. وهذه الفتاة عندما صارت شابة أخذت يدي أحد الشباب ووضعتها على نفس الوجنة. ثم بعد عدة سنوات، أمسكتْ هاتين اليدين بقوة بينما تلد طفلها الأول؛ بعد ذلك ربما شعرت باليد الشائخة عندئذ لنفس الزوج، باردة بسبب الموت، ومرة أخيرة وضعتها على وجنتها، وحركتها إلى شفتيها، ثم أنزلتها لتسلمها للموت.

تلك الفتاة الصغيرة أصبحت الجدة الكبرى لزوجتي.. مَنْ يدري كم جيلاً انقضى وتناقل نفس هذه الحركة التلقائية؟ انتقلت هذه الدماء عبر قرون حتى وصلت إلى آليسون، وهي تتخذ موضعها كواحدة من النساء من أماكن وأجيال بعيدة.

رأيت آليسون من منظور جديد- ابنة الألفية، لكن أيضًا أمًا للأزمنة التالية. في مثل هذه الأوقات أرى قداسة عميقة في الآخرين.. ربما كلمة "قداسة" ليست هي الكلمة الملائمة هنا، لكني أعرف أن هذه الكلمة تجعلني أبدو صغيرًا، كأني ألمس شيئًا أنا غير مستحق أن ألمسه؛ لأنه شيء عميق جدًا وأنا متجاسر جدًا، وضحل جدًا، وغافل جدًا لعمق الأزمنة في النساء اللواتي أحبهن بأقل من المطلوب.

هذا الشبل من ذاك الأسد

لا يمكن القول بأي حال من الأحوال إن التأثير الروحي يحدث بناء على الجانب البيولوچي فقط. على النقيض، هناك آباء وأمهات كثيرون ربوا أبناءً ليسوا من صُلبهم (بالتبني مثلاً) ومع ذلك تركوا تأثيرًا على حياة هؤلاء الأبناء أكبر بما لا يقارن من الآباء بالجسد.

أخبرتني إحدى الأمهات عند ذهاب زوجها وابنهما بالتبني لاجتماع الرجال. وقد طلب أحد المتكلمين من الآباء الذين لديهم أبناء بالتبني أن يقفوا.. في البداية استمرا جالسين. كما تشرح زوجته، لقد نسي الزوج تمامًا أن ابنه هذا كان قد تبناه -حتى أنهما يشبهان أحدهما الآخر، لكنه تذكّر في النهاية ووقف. فنظر إليه الابن وفكّر في نفسه: لماذا يقف أبي؟ حتى تذكَّر هو الآخر أنه طفل مُتبنى. بعد ذلك ضحك كلاهما لأنهما ارتكبا نفس الخطأ.. إنهما يستطيعان أن يقولا بصدق: "هذا الشبل من ذاك الأسد".

بالرغم من أننا نستطيع إنجاب أبناء يشبهوننا من خلال ممارسة حميمية واحدة، إلا أن الولادة الحقيقية هي عملية روحية.. أن نقدِّم قدوة بحياتنا أمام أطفال يختارون أن يقلدونا بطرق لا تخطر على البال. هذا ميراث روحي لا يتقادم بمرور الزمن!

في أحد أيام الربيع، بينما كان جراهام في عمر الرابعة فقط، وكنتُ أعلِّمه التنس.. وفي فيرچينيا يصبح أحيانًا الطقس حارًا، وكنتُ واعيًا بأن موسم السباحة سيلحق بنا سريعًا؛ لذا فكرت أن أخلع قميصي لتتحوّل بشرتي إلى السُّمرة قليلاً.. فبعد شتاء طويل أصبحت بشرتي باللون الأبيض الناصع تقريبًا، وكنوع من المجاملة المسيحية لَمَنْ ربما نسوا إحضار نظارات الشمس معهم إلى حمام السباحة، ظننت أن بعض التلُّون بلون البرونز سيكون نافعًا لكل مَنْ حولي.

سألني جراهام: "لماذا تخلع قميصك يا بابا؟" فأجبت إجابة بسيطة:

"فقط أشعر بالحر قليلاً." وعلى الفور سمعت صوت مضربه يقع على الأرض وقال: "وأنا أيضًا أشعر بالحر." وفجأة جسدان ناصعا البياض يزينان الملعب (لحسن الحظ الخالي من الجمهور).

في يوم الأحد التالي، بينما كنتُ أجلس مع جراهام جنبًا إلى جنب في الكنيسة، بدأ الراعي يقرأ من رسالة رومية. فتحتُ كتابي المقدس وتصفحت فيه لأتابعه، وبعدما انتهى الراعي من القراءة، تركتُ كتابي المقدَّس مفتوحًا أمامي بينما أستمع إلى العظة. بعد عدة دقائق التفتُّ إلى المقعد المجاور لي، فوجدتُ ليس كتابًا واحدًا مفتوحًا بل اثنين.. وضع جراهام أيضًا كتابه مفتوحًا متوازيًا بالضبط مع كتابي. حتى وهو لم يتعلَّم القراءة بعد، لكنه أحضر كتابه المقدَّس إلى الكنيسة، مثلما فعل والده. وعندما ترك والده الكتاب مفتوحًا، تركه هو أيضًا مفتوحًا.

في اليوم التالي، الاثنين، وكان يوم عطلة، كنت أُصلح كشاف إشارة بالسيارة؛ ودون أن أفكّر تنخمت، وبصقتُ على جانب الطريق.

فسأل جراهام الذي كان "يساعدني": "لماذا تفعل هذا؟"

قلتُ: "لا أعرف فعلاً. من حين لآخر يحتاج الشخص أن يبصق."

بعد أقل من خمس ثوانٍ سمعتُ جراهام يتنخَّم، يدير رأسه، وبالفعل كما فكرت بالضبط، بصق على جانب الطريق.

في مساء هذا اليوم، قررنا أن نختم الإجازة الأسبوعية بأن نخرج للتمشية. ولم يجد جراهام حذاءه. فقلت له: "ابحث عنه بالطابق العلوي، وأنا سأبحث عنه بالطابق السفلي."

وبمجرد أن وصلت إلى المكان ونظرت على الأرضية ذُهلت بشدة.. في منتصف الغرفة (في نفس المكان الذي "تحب" زوجتي أن أترك حذائي فيه)، خلعت حذائي ونسيته هناك. ثم على بعد سنتيمترات من حذائي

يوجد حذاء جراهام الصغير، ملاصقًا لحذائي في منتصف الغرفة، مقلدًا نفس الزاوية التي سقط بها حذائي.

كانت إجازة أسبوعية مُلهمة بالنسبة لي! لقد أدركتُ أن كلَّ حركة أفعلها تُراقَب؛ وكل كلمة أختارها، وكل مرة أفعل شيئًا بتلقائية بدون تفكير، فإن جراهام يراقبني ويصل إلى هذه النتيجة: هذا ما يُفترض بي أن أفعل؛ لأن هذا ما فعله بابا.

بالطبع هذه الظاهرة تحدث مع الجميع.. أخبرني صديقي «كيفين ليمان» عن حادثة ملهمة مشابهة مع ابنه. كان دكتور ليمان يقود سيارته، عندما تنخَّم وبصق من نافذة السيارة، وعلى الفور فعل ابنه نفس الشيء.. لكنه عندما حاول أن يبصق من النافذة المجاورة لسائق السيارة، اصطدم البصاق بوجه أبيه مباشرة!

يتذكر «آرشي ماننج»، وهو لاعب ظهير سابق في فريق كرة القدم الأمريكية القومي (NFL)، أن ابنه «بيتون»، وهو لاعب ظهير أيضًا في نفس الفريق، كان يقلِّد الكثير من حركات والده في سنوات نضوجه؛ حتى إن الأمر كان في منتهى الغرابة. كان بيتون يستمع إلى لقطات مُسجلة لمبارايات أبيه حتى إنه حفظ شعارات فريقه، وكان يتمتم بها. عندما وصل بيتون إلى الصف الثاني الإعدادي لعب أول مباراة منظمة له، وقد صُعق والده عندما رأى ابنه يسير وهو متقوس الساقين.. لم يكن بيتون بالطبيعة متقوس الساقين، لكنَّ هذه المشية هي تقليد لمشية أبيه بسبب مشاهدته لأفلام كثيرة له.

يُقرُّ آرشي بقوله: "من الطبيعي أن يؤلِّه الصغار والديهم؛ لكن بيتون كان يدرسني." فيما بعد عندما كان أحدهم يسأل بيتون كيف يشعر عندما يفكر أنه يكسب من المال في المباراة الواحدة أكثر مما كسبه والده في موسم بأكمله، يجيب بإنجاز: "أنا لا أتنافس مع والدي، أنا أتعلَّم منه."[٣]

عندما تكون أبًا أو أمًا فأنت تترك انطباعًا دائمًا. لاشك أن التربية، على الأقل في مراحلها الأولى، تبدو كأنها ماكينة طباعة أو تصوير للمستندات.. الاختلاف الوحيد -ويا له من اختلاف كبير- أننا لا ننتج أوراقًا مطبوعة؛ لكننا ننتج شخصيات، وميراثًا، ومصيرًا!

هذه دعوة خطيرة وتحدٍّ لكل الآباء والأمهات.. لأننا نثق ونطمئن في العمل المكتمل ليسوع المسيح، أحيانًا نستخف بضرورة استمرارنا في حياة القداسة؛ وقد نفكّر بدون وعي كالتالي: أعلم أن الدخول إلى السماء ليس مسألة أخلاقيات، وبالطبع سأتوب عن أية خطية كبيرة أسقط فيها، فما المشكلة إذًا إن تساهلت مع بعض العادات القليلة السيئة؟

حسنًا، الكتاب المقدس يجعل من النمو الروحي قضية هامة للغاية.. في الواقع يخبرنا الرسول بطرس بأننا يجب أن نبذل «كل اجتهاد» لنضيف إلى إيماننا «فضيلة، وفي الفضيلة معرفة، وفي المعرفة تعففًا، وفي التعفف صبرًا، وفي الصبر تقوى، وفي التقوى مودةً أخويةً، وفي المودة الأخوية محبة» (٢بطرس ١: ٥- ٧).

فكّر في تعبير «كل اجتهاد».. كل اجتهاد ليس شيئًا تفعله وأنت مستريح، بل كالعدَّاء الذي يرى الهدف أمامه، ويبذل كل ذرة جُهد لديه ليصل إليه. هذه هي نوعية الجهد الذي يدعونا إليه الرسول بطرس روحيًا لنضيفه إلى إيماننا.. بالنسبة له، المتكاسل نحو النمو في هذه الفضائل يصفه بأنه «أعمى قصير البصر، قد نسي تطهير خطاياه السالفة» (٢بطرس ١: ٩).

إذا لم تمنحنا السماء الحافز لنبذل كل اجتهاد، فربما سيمنحنا الأبناء هذا الحافز. إذا لم نسعَ لنضيف إلى إيماننا بهذه الطريقة العنيفة، يحذرنا بطرس بأننا سنكون "متكاسلين" و"غير مثمرين" في «معرفة ربنا يسوع المسيح» (٢بطرس ١: ٨). بكلمات أخرى يمكن أن نصير مؤمنين غير

مثمرين وغير منتجين؛ وربما عندما نصل إلى السماء ستكون جُعبتنا فارغة، بلا ثمر لنقدمه لمليكنا.

كثيرًا ما نشجب نحن الآباء والأمهات القدوة السيئة التي يقدمها بعض السياسيين، والرسائل الخليعة التي تعرضها هوليوود، والأهداف التدميرية للبرامج التليفزيونية الشائعة، والكلمات البذيئة لكثير من الأغاني- لكن بطرس الرسول يشجعنا بقوة ألا نتطلع إلى هوليوود أو نجوم الغناء أو القادة السياسيين؛ لكن إلى قلوب المؤمنين، لنرى هل تبذل بحق "كل اجتهاد" لتضيف إلى إيمانها الفضائل التي يدعونا الكتاب المقدَّس لتطبيقها. وإذا لم نفعل هذا، فلا نلقي باللوم إلا على أنفسنا عندما تبدو الكنيسة متكاسلة وغير مثمرة.

إن الغفران الذي فُزنا به في صليب المسيح لا يعني أن الله يعفينا من النمو في حياة البر، بل يعني أنه يحررنا من الأنانية والتمركز حول الذات الذي نعيش فيه! النمو في حياة التقوى لا يتعلق بإتمام مشيئة الله بقدر ما يتعلق بترك قدوة حقيقية للآخرين ليتبعوها- بدءًا من أبنائنا.

خطايا الوالدين

منذ ما يقرب من قرن من الزمان، صدّقت «سونيا كيبيل» أن أمها تمتلك "شخصية لامعة ورائعة الجمال"، وذلك يرجع نسبيًا إلى الأزهار التي أرسلها لها الملك إدوارد السابع كـ "عطية لنوال رضا هذه المرأة الرائعة الجمال". امتلأت عينا سونيا بزهور الأوركيد والسلال المغلفة بالأشرطة الحمراء في عربات تجرها الخيول ويقودها سائق بثياب ملكية. وبالرغم أن هذه الهدايا جاءت عن طريق الخيانة، تستطيع أن ترى كيف تصورت سونيا بعقلية فتاة صغيرة أن أمها امرأة متميزة جدًا حتى تنال مثل هذا الاهتمام من شخص ليس أقل من ملك إنجلترا.

في أواخر القرن التاسع عشر لم تدمر العلاقة الغرامية بين السيدة كيبيل والملك زواجها أو سُمعتها- لكن الزمن تغيَّر. حفيدة سونيا (حفيدة ابنة السيدة كيبيل) كبرت لتصير «كاميلا باركر بولز»، عشيقة الأمير تشارلز، أمير ويلز منذ زمن طويل، والغريمة الفعلية للراحلة «ديانا سبنسر» أميرة ويلز. في هذه التجليات الحديثة رأينا التدمير الهائل الذي تُحدثه الخيانة الزوجية لعائلة بأكملها- وربما بلد بأكمله.

معظم المشيرين والمعالجين النفسيين اليوم يكتشفون أن الخطايا تميل بالفعل إلى أن تنتقل بين الأجيال. أذهلني ما قاله «باتريك كارنيز»، وهو مشير متخصص في الإدمان الجنسي.. فقد كان أحد طالبي مشورته يشعر بالخزي العميق من إدمانه للتعري أمام الناس، وطلب العلاج ليواجه هذه الخطية. وبإحساس مليء بالحرج والخزي افترض أنه وحده مَنْ يصارع مع هذه المشكلة- إلى أن ظهر بعد قليل من الجهد في استقصاء الأمر أن والده، واثنين من أعمامه، واثنين من أبناء أعمامه كانوا يمارسون نفس السلوك المنحرف.[٤]

ولقد توصل دكتور كارنيز أنه بين المرضى الذين يعالجهم "داخل العائلة، ستبدو الإدمانات مثل تراكيب ظلالها تعمِّق استمرارية الخلل المرضي بين أفراد العائلة."[٥] الرجل والمرأة اللذان يحاربان ضعفاتهما الخاصة لا يجاهدان في هذا من أجل أنفسهما فقط، بل هما يعززان جبهة القتال في حرب الأجيال التالية ضد الشر. وعندما نسقط في الخطية، نحن نفتح فجوة غير مُحصنة روحيًا أمام أبنائنا وأحفادنا. هذه الحقيقة ينبغي أن تشجعنا على الثبات في مواجهة الضعفات التي تغوينا.

إن تدبير الله في يسوع المسيح يعني أننا لا نستطيع أبدًا استخدام تأثير الأجيال كحُجة لنبرر خطيتنا؛ ولكن في نفس الوقت من غير المنطقي أن نغفل ميول عائلاتنا. وكما يشرح دكتور كارنيز: "بالنسبة للمدمن، جزء

من علاجه أن يكتشف دور الجيل السابق له في إدمانه."[٦] ماذا يعني هذا لي كأب أو أم؟ عندما تخطئ كأب فهذا أسوأ من أن تخطئ كابن؛ لأنني حين أخطئ كأب أخاطر بأن يستمر هذا الشر لأجيال طويلة.

بالرغم من أن هذا قد يبدو غير منصف، لكن عبر التاريخ كثيرًا ما دفع الأبناء ثمن خطايا والديهم. توجد قصة مُحزنة جدًا في الكتاب المقدَّس تحكي عن أب اسمه عخان تحدى قرارًا إلهيًا وسرق بعض الغنائم المُحرمة، وعندما انكشفت خطية عخان دفع ثمنًا باهظًا- لكنه لم يدفع الثمن بمفرده؛ فقد قام الشعب برجم عائلته بالكامل معه.. تحملّت زوجة عخان وأبناؤه عقوبة الموت بسبب جشع عخان (راجع يشوع ٧).

ربما لن يدفع أبناؤنا هذا النوع من العقوبة الفورية التي تكبدتها عائلة عخان.. فقد يستغرق الأمر عشرين أو ثلاثين عامًا حتى تظهر إخفاقاتنا الروحية في حياة نسلنا؛ لكننا بكل تأكيد نترك لهم إمَّا طريقًا أسهل أو أصعب ليسيروا فيه. وإذا لم يحفزنا هذا لنكون جادين في حياتنا الروحية، لا أعرف ماذا يمكن أن يحفزنا بخلاف ذلك!

إذا كنت تصارع مع ميل إلى الخطية وتعرف أنها متفشية في عائلتك لأجيال عديدة، فلماذا لا تطلب المعونة الآن؟ لماذا لا تصمم أمام الله أنك ستكسر هذه الحلقة المتكررة؟ يطمئننا الرسول بطرس بأن القدرة الإلهية قد «وهبت لنا كُلَّ ما هو للحياة والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة» (٢بطرس ١: ٣). الجأوا إلى خدام ومشيري الكنيسة، استفيدوا من آرائهم وحكمتهم، لكن لا تتغاضوا عن صراع تعرف أن أبناءك -وربما أحفادك أو أولاد أحفادك- قد يواجهونه إذا لم تضع نهاية لهذه الخطية.

مَيلٌ إيجابي

شكرًا لله أن التأثيرات الإيجابية للأجيال ممكنة أيضًا.. توجد قصة

كتابية يجب أن تشجع كل أم متزوجة من أب بعيد عن الله. يخبر الرسول بولس تلميذه تيموثاوس بضرورة مواصلة الإيمان: «عارفًا ممَنْ تعلَّمت» (٢تيموثاوس ٣: ١٤). نعرف من موضع آخر أن بولس كان يشير إلى أم تيموثاوس، أفنيكي، وجدته لوئيس (راجع ٢تيموثاوس ١: ٥). وعندما يمتدح عائلة تيموثاوس، نجده لا يذكر والد تيموثاوس- وفي هذا إشارة واضحة. يخبرنا سفر الأعمال ١٦: ١ أن والد تيموثاوس كان لايزال على قيد الحياة، لذا يفترض معظم المفسرين أنه لم يكن مؤمنًا.

ومع ذلك فقد رأى بولس أنه من خلال تأثير أم وجدة مؤمنتين كان لتيموثاوس قدوة كافية ليثبت في الإيمان في حال انتابته أية شكوك بشأن إيمانه. لذا حثه الرسول بولس أن يتذكر قدوة هاتين المرأتين ليحوز على قوة تأثيرهما: لقد شاهدت بنفسك تأثير الإيمان في حياتهما، لذا تمسّك يا تيموثاوس بهذا الإيمان لنفسك. يصيغ «چون كالفن» في القرن السادس عشر هذا الأمر كالتالي: "تربَّى تيموثاوس في طفولته بطريقة جعلته يرضع حياة التقوى مع لبن أمه."[٧]

إذا كنتِ أمًا مُطلقة أو أرملة، تستطيعين أن تحظي بتعزية عظيمة من قصة تيموثاوس. بالطبع، الوضع المثالي أن يكون للابن أب تقي ليكون قدوة له. لكن عندما لا تتوفر هذه القدوة، فإن الأم المؤمنة بمقدورها أن تقود ابنها إلى شخصية ذكورية أخرى ليتمثَّل بها (كما هو الحال بالنسبة لبولس في قصة تيموثاوس)، بينما لا تزال تقدِّم هي القدوة الأولى. إن مهمة التربية في غياب أحد شريكي الحياة تعترضها صعوبات كثيرة، لكن لا تظن أبدًا أن الأمر بلا جدوى أو بلا أمل.

يتحدث العهد القديم عن ميراث تقليدي أكبر، بدءًا من هارون وأبنائه. فبعد تكريس هارون ككاهن، وجَّه الله موسى بأن يكرِّس أبناء هارون: «وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكهنوا لي. ويكون ذلك لتصير لهم مسحتهم

كهنوتًا أبديًا في أجيالهم» (خروج ٤٠: ١٥). وبالرغم من أن أطفال اليوم لا يتبعون آباءهم في نفس المهنة (مع استثناء أن عائلة زوجتي حتى الجيل الرابع الآن يعملون كبائعين بالمزادات)، فإننا نورث لهم ميراثًا روحيًا. تُرى هل نترك قدوة حقيقية لأبنائنا ليحتذوا بها؟ هل ما رأوه فينا سيجذبهم إلى الله، أم رياؤنا سيمثِّل عقبة في طريق إيمانهم؟

النوعية الصحيحة للتناسل

السؤال الذي يفرض نفسه الآن: هل أسلوب حياتنا يقدِّم شيئًا سيتحتم على أبنائنا أن يتغلبوا عليه، أم أننا نضيء لهم طريق التقوى ليسيروا فيه؟ إذا كان أبناؤنا يلتقطون بعضًا من نقاط قوتنا وبعضًا من نقاط ضعفنا، فإن عملية تربيتهم تستدعي منّا أن نُنمي شخصيتنا. وإذا بدأنا ننحرف عن المسار، ولو خمس عشرة درجة، واستمر أطفالنا في هذا الاتجاه، وتبعهم في ذلك أبناؤهم، ففي وقت قريب ستخرج العائلة بأكملها عن المسار.

إن احترامي للرسول بولس يزداد يومًا بعد يوم؛ فكلما تعمقت في كتاباته تحداني عمق إيمانه بصورة أكبر، وجعلني أتواضع بشكل أكبر، وبالأخص فيما يتعلق بالقدوة التي تركها لتلاميذه. كان بولس يملك الجسارة ليقول لأهل كورنثوس: «فأطلب إليكم أن تكونوا متمثلين بي» (١كورنثوس ٤: ١٦). وعندما لم يفهموه، كرَّر ما قاله في نفس الرسالة: «كونوا متمثلين بي كما أنا أيضًا بالمسيح» (١كورنثوس ١١: ١).

ويقدِّم نفس النصيحة لأهل تسالونيكي:

> إذ أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتَمثَّل بنا، لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم، ولا أكلنا خبزًا مجانًا من أحد، بل كنّا نشتغل بتعبٍ وكدٍّ ليلاً ونهارًا، لكي لا نثقِّل على أحد منكم.

ليس أن لا سلطان لنا، بل لكي نعطيكم أنفسنا قدوةً حتى تتمثَّلوا بنا. (٢تسالونيكي ٣: ٧- ٩)

ويقول الرسول العظيم لأهل غلاطية: «أتضرع إليكم أيها الإخوة، كونوا كما أنا...» (غلاطية ٤: ١٢).

هل يمكن أن يكون واضحًا فيما يعنيه أكثر من هذا؟ لقد عاش بولس بطريقة يضع بها معيارًا ليتبعه الآخرون. كان عليه أن يتأكد أنه يسير في الاتجاه الصحيح؛ فقد أخبر الآخرين على وجه التحديد أن يفعلوا ما كان يفعله، وأن يحذوا حذوه. هذه هي دعوة مضاعفة عشر مرات لكل أب وأم! حتى بدون أن نطلب من أبنائنا أن يتبعونا، فإنهم سيفعلون هذا، على الأقل بدرجة ما.. ربما سيحاولون تقليدنا، أو ربما سيبتعدون عنا ويتمردون، لكنهم سيتأثرون بنا وبأسلوب حياتنا.

أتذكّر مرة صليت من أجل ابني جراهام، وبدا أن الله يقاطع صلاتي قائلاً: "لابد أن تصير كما تصلي لجراهام أن يصير عليه." بدا أن الله يخبرني أنه بالرغم من شوقه ليستجيب صلواتي نيابة عن جراهام، لكنه يريد أن يستخدمني لتحقيق هذه الاستجابات. إذا أردت أن يصبح جراهام رجل صلاة، فلابد أن أصير أنا أولاً رجل صلاة.

لا أشعر بالثقة التي كان بولس يشعر بها حتى أخبر الآخرين "تمثلوا بي"، لكني أرجو أن يفوقني جراهام وآليسون وكيلسي في بعض الجوانب الشخصية. ولكن سواء شعرت بالثقة مثل بولس أو لا، هذه ليست المشكلة- هذا التمثُّل يحدث بالفعل. وبالتالي لابد أن أسأل نفسي: ماذا سأفعل في هذا الشأن؟

لا نستطيع أن نتجنب ترك مسارات من ورائنا.. عندما يكون لديك طفل فهذا معناه أنك تؤثر في حياة أخرى، وربما لعدة أجيال متعاقبة. السؤال الوحيد: في أي اتجاه سوف تحمل مساراتنا أبناءنا؟

"عندما كنتُ على وشك أن أصير أبًا، قال صديقي بيرجيس ميريدث: "ستجد شيئًا رائعًا: شخصًا تحبه أكثر من نفسك، بالنسبة للأشخاص الأنانيين، هذه بركة عظيمة."

– بيتر بويل (ممثل)

« لا حاجة به إلى أن يقدِّم الذبائح كل يوم كفارة لخطاياه أولاً، ثم لخطايا الشعب، لأنه فعل هذا مرةً واحدةً حين قدَّم نفسه. »

– عبرانيين ٧: ٢٧ – الترجمة العربية المشتركة

الفصل الثاني عشر

التضحية

كيف تُعلِّمنا التربية أن نضحي

خلال مسيرة مهنية مليئة بالعطاء كتب «ديك تشاب» العديد من الكتب، وقدَّم الكثير من البرامج التليفزيونية والإذاعية الرياضية. وخَلَفه ابنه «چيرمي» في العمل بمجال الصحافة الرياضية، وهو يعمل بمحطة «ESPN» منذ عام ١٩٩٦.

عندما توفي ديك فجأة بدون مُقدمات بعد جراحة روتينية بسيطة في عام ٢٠٠١، أُصيب المهتمون بعالم الرياضة بصدمة شديدة؛ لأنهم فقدوا صوتًا محترمًا يشيد به الجميع. كما وصف ابنه چيرمي، في مقال للإشادة بحياة والده، كيف قدّم ديك أعظم تضحية من أجله:

> لقد شهد أبي «بيل مازورسكي» في أوج تألقه، وشهد «چيري كرامر» وهو يفوز ببطولة «آيس باول»، وشهد

«محمد علي كلاي» و«چو فريزر» يلاكمان أحدهما الآخر في مانيلا، وشهد «ريجي چاكسون» وهو يحرز أول أهدافه في بطولة العالم عام ١٩٧٧.. وقد أحرز چاكسون ٣ أهداف في هذه المباراة ليساعد فريقه على الفوز. وعندما أحرز چاكسون هدفه الثاني كان أبي يقف أمام أحد الأكشاك يشتري لي الفيشار، وعندما أحرز هدفه الثالث كان يشتري لي مشروبًا.

وفي النهاية، لقد سامحني- على ما أعتقد.[١]

يطلب الآباء والأمهات من أبنائهم بعض المطالب المشروعة، مثل الاحترام والطاعة على سبيل المثال؛ لكن الأبناء يطلبون من والديهم الكثير.. إن مجرد وجودهم يتطلب رعايتنا، وحمايتنا، ومحبتنا، والتزامنا، ووقتنا، ودعمنا المالي أيضًا. هذه المطالب التي يحتاجها الأبناء من وقتنا وأموالنا وطاقتنا وتفكيرنا يمكن أن تقودنا إلى روح التضحية.. هذه الروح التي تمثل قلب الإيمان المسيحي الحقيقي.

أرجعي هذه الشوكة إلى الطبق

الشخص الأول الذي يتحمَّل جزءًا كبيرًا من طلبات الطفل هو الأم. يستغرق الأب ٩ أشهر لإجراء عملية الإحماء قبل تحمُّل مسؤولياته، لكن لأن الطفل يسكن في جسد الأم فهي تواجه طلبات فورية وقاسية. تصف الكاتبة الإنجليزية «راتشيل كاسك» هذه الحقيقة في كتابها «A Life's Work» (أو عمل مدى الحياة) كالتالي:

مثل الأب السيئ أو الأم السيئة، فإن الكتب التي تتناول فترة الحمل تكتظ بالوعيد والوعد بالثأر، مع تلميحات مروعة لتوابع الأفعال المتهورة. إذا أكلتِ

الباتيه سيصاب طفلك بإصابات بالغة في الكبد. إذا أكلتِ الجبن الريكفورت سيصاب طفلك بالليستيرية (نوع من الجراثيم)، وهو مرض صامت بدون أعراض قد يسبب تشوهات بشعة للطفل. إذا اقتربتِ من قطة، قد يصاب طفلكِ بعدوى التوكسوبلازما... حيث ترتفع درجة حرارة الجسم إلى ٤٠ درجة مئوية لمدة أيام متواصلة، وقد تقضي على الجنين في الأسابيع السبعة الأولى من الحمل. لا تستخدمي الساونا، ولا تستحمي بماء ساخن، ولا ترتدي ملابس من الصوف في أي مرحلة من الحمل. لا تشربي كحوليات ولا تدخني، أنتِ تقتلين طفلكِ بهذا. لا تتعاطي الأسبرين. ارتدي حزام الأمان عندما تسافرين بالسيارة. أي شخص يعتقد أن الحمل هو مرحلة من العمر يُسمح فيها بزيادة الوزن لابد أن يراجع تفكيره. لا تأكلي الفطائر أو البسكويت، أو مخبوزات بالقمح الأبيض، أو الشيكولاتة، أو الحلويات، أو الشيبسي، أو المشروبات الغازية. يقول أحد الكتب عن هذا الأمر: عندما ترفعين الشوكة إلى فمك، انظري إليها وفكّري، هل هذه هي أفضل قضمة أستَطيع أن أقدِّمها لطفلي؟ وإذا كانت الإجابة بـ "لا"، أرجعي الشوكة مرة أخرى إلى الطبق.[٢]

تتحدث راتشيل عن "الدور العجيب" الذي يلعبه الجنين في "ثقافة الحمل": "إنه ضحية وديكتاتور في نفس الوقت."[٣]

كل شيء عن نمط حياة المرأة.. ما تأكله، وتشربه، وترتديه، وتستمتع به، سواء تمرينات رياضية أو ترفيهية، يصبح فجأة مثارًا للجدل والمناقشة.

معظم الناس لديها عادات سلبية بسيطة: مثل تناول البيبسي يوميًا، أو الحلويات في المساء، كما كان سي. إس. لويس يفعل، أو بضعة فناجين من القهوة.. لكن الأم الحامل يُطلب منها أن تتوقف بين ليلة وضحاها عن كل العادات السلبية، وإلا تُدفع بالإحساس بأنها تساهم في احتمالات تدمير أو تشويه جنينها.

باختصار، إن دعوة الأم للتضحية تبدأ بمجرد اكتشافها أنها حامل بطفل. كانت زوجتي ليزا بطلة في هذا الصدد.. كانت تعتبر التعليمات الغذائية بمثابة وحي إلهي، ولم تفكِّر أبدًا في انتهاكها. ونظرًا لعاداتي الغذائية السيئة كنا شاكرين لأن جسدي لن يساهم بأي شكل من الأشكال في تغذية أحد أطفالنا قبل ولادته.

إن استعداد الأب والأم لعمل هذه التضحيات له مكاسب روحيَّة عظيمة. وُلدت المسيحية في التضحيات، وتدعونا إلى أشكال متعددة من التضحية. ولأننا نعبد إلهًا كريمًا ورحيمًا ومحبًا ومعطاءً، نجد سهولة في الانزلاق نحو النظر إلى المسيحية من منظور "شجرة الكريسماس"- كما لو أن جوهر المسيحية هو فتح الهدايا واحدة تلو الأخرى بينما نجتمع حول شجرة الرب؛ بدلاً من الصورة التي أُعطيت لنا في العهد الجديد.. الصورة المتمركزة حول الصليب. لقد رأى الرب يسوع أن التضحية يجب أن تأتي في مقدمة ما يفعله تلاميذه: «إن أراد أحدٌ أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم، ويتبعني» (لوقا ٩: ٢٣). كما يؤكد الرسول بولس على هذا عندما يتحدث عن فكر التضحية باعتباره أساسًا للعبادة المسيحيّة: «فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدِّموا أجسادكم ذبيحة حيَّة مقدَّسة مرضية عند الله، عبادتكم العقلية» (رومية ١٢: ١).

نحن نحب أن نتكلم عن بركات إيماننا، وعن عناية الله، وعطاياه

التي يمنحنا إياها؛ لكن المؤمن غير الناضج يمكن أن يستقبل كل هذا.. لا يحتاج الأمر إلى قدر كبير من الإيمان لنقبل سخاء الله! لكنَّ النضج الروحي الحقيقي كثيرًا ما يظهر خلال تلك الأوقات التي يطالبنا الله فيها بالتضحية. وبينما نجد سهولة في "فتح الهدية" الروحيّة، ليس من السهل أن نبذل أنفسنا من أجل الله؛ بل نحتاج أن نتدرب لكي نكون قادرين على ذلك. أحيانًا قد نحتاج حتى إلى محاولات الإقناع المتملق لنفعل هذا! في هذا الصدد، يصبح الأبناء أدوات في يدي الله يستخدمها ليعلِّمنا كيف نقبل هذا التدريب الروحي الجوهري عن التضحية.

أعد التفكير في هذا الطموح

عاش الشماس «چون آدامز» كمزارع بسيط وصانع أحذية في القرن التاسع عشر، متمسكًا بمبدأ بديهي بسيط: أن الاستثمار الوحيد الصحيح والحقيقي هو في الأرض. بالنسبة له، كان من المرفوض تمامًا أن تبيع الأرض بعد شرائها. يعتقد المؤرخون أن چون صنع استثناءً وحيدًا لهذه القاعدة: لقد باع ١٠ أفدنة ليرسل ابنه الأكبر، «چون»، إلى الجامعة. وبالرغم من أنه كسر مبدأ عزيزًا على قلبه، لكنه فعل هذه التضحية طواعيةً ليوفر لابنه أفضل فرصة للنجاح.

لم يسمح الابن لنفسه بأن يضيّع تضحية أبيه هباءً؛ حتى أنه أصبح في النهاية ثاني رئيس للولايات المتحدة.

تضعنا تربية الأبناء وجهًا لوجه مع أنانيتنا ونرجسيتنا، وتدعونا إلى التضحية براحتنا نيابة عن شخص آخر- وهذا بالطبع يوفر تدريبًا روحيًا رائعًا. ذات مرة أكد لي رجل بشدة بأنه لن يسمح لنفسه أبدًا بأن يقترض ليرسل أحد أبنائه إلى الجامعة، ولن يفكّر حتى في تقليص معاشه حتى يحصل أبناؤه على درجة البكالوريوس. كان لديه أحلامه الخاصة

بعد التقاعد! وبالرغم أنني لا أعارض فكرة السعي نحو تحقيق أحلامنا الخاصة، لكنني أختلف مع فكرة أن نفعل هذا بأنانية. يشدد الرسول بولس بوضوح على هذا الأمر: «إن كان أحدٌ لا يعتني بخاصته، ولا سيما أهل بيته، فقد أنكر الإيمان، وهو شرٌ (أسوأ) من غير المؤمن» (١تيموثاوس ٥: ٨). في بعض الأحيان تستدعينا المسؤولية والوفاء والنضج إلى التضحية بأحلامنا عن طيب خاطر من أجل مَنْ نحبهم، وعلى رجاء بأن مَنْ يأتون بعدنا سيحققون أكثر مما نستطيع نحن تحقيقه.

ألم يكن هذا أسلوب حياة المسيح؟ ألم يبذل حياته طواعية وهو في شبابه في عمر الثالثة والثلاثين؟ تخيّل كم كان سيفعل أكثر جدًا لو عاش ثلاثين أو أربعين سنة أخرى على الأرض! لكنَّ الرب يسوع أخبر تلاميذه قائلاً: «الحق الحق أقول لكم مَنْ يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعمل أعظم منها، لأني ماضٍ إلى أبي» (يوحنا ١٤: ١٢).

كيف سنفعل أشياءً أعظم من التي فعلها المسيح؟ هذا بفضل التضحية التي صنعها (لأنني ماضٍ إلى الآب). كيف يقدر چون آدامز أن يحصل على التعليم الذي يؤهله للقفز خارج الطبقة الأدنى ليصبح واحدًا من أكثر الشخصيات تأثيرًا في عصره؟ هذا بفضل تضحية أبيه. كيف يقدر الصغار أن يشبعوا بالحب الباذل، والنصيحة المتاحة، والحضور الدائم بالصلاة الذين هم في أشد الاحتياج له؟ هذا بفضل تضحيات أمهاتهم.

إن احتياجات الصغار نادرًا ما تكون "مُريحة"، وما يحتاجونه لينجحوا نادرًا ما يأتي بدون ثمن غالٍ. لكي نربيهم جيدًا هذا يتطلب تضحية يومية بأنواع كثيرة، وهذا له تأثيرٌ روحي عجيب في تشكيلنا على مثال المسيح نفسه. الله يدعونا لننمو ونتجاوز أنفسنا، ونتوقف عن التصرف كما لو

كانت أحلامنا تبدأ وتنتهي بنا. بمجرد أن يكون لدينا أبناء، لا نستطيع أن نتصرف أو نحلم كما لو كنا بدون أبناء.

منذ عدة سنوات، دعاني واحد من أكثر الرعاة تأثيرًا اليوم في أمريكا لألقي كلمة لفريق العاملين معه، ثم فاجأني بشدة عندما قدَّم لي عرضًا بالعمل في كنيسته. ككاتب ما كان لي أن أحصل على منصة أفضل من هذا المنصب للترويج لكتبي. الأهم من ذلك، أنا أحترم جدًا عمل هذا الراعي، وأعتبر خدمته ذات بُعد استراتيجي، وقد باركها الله بغنى. لكن عائلتي كانت قد استقرت في بيلنجهام.. في الواقع في نفس اليوم الذي حدثني فيه هذا الراعي كنا قد اتفقنا على شراء منزل. وأطفالي، الذين انتقلوا معنا من "إيست كوست" قبلها بأربع سنوات، شعروا بالارتياح لاستقرار علاقاتهم مع أصدقائهم، وظروف مدارسهم، واجتماعات الشبيبة التي يحضرونها. شعرتُ بأنني سأكون أحمق إذا رفضت هذا العرض.. من الناحية المهنية بدا الاختيار واضحًا. لكن أحلامي لا يمكن أن تبدأ أو تنتهي بي!

بعدها بعام، أرسلت لي إحدى المعاهد اللاهوتية عرضًا للعمل في منصب "كاتب مقيم"، وبدا العرض مغريًا لدرجة جعلت زوجتي تضحك. بينما كانت تقرأ العرض، قالت يبدو أنهم قرأوا أفكاري، وتعجبت قائلة: "ما كان لهم بأن يقترحوا شيئًا أكثر إغراءً من هذا!" وكانت على حق.

لكن هذا العرض بدا كخنجر يخترق قلبي؛ لأنني أدركت في النهاية، وأنا أصيح وأخبط في الأرض، أنه عليّ أن أتخلى عن هذه الفرصة أيضًا. عندما انتقلنا مع أطفالنا إلى ولاية واشنطن، وعدتهم عندئذ أن "هذا لن يحدث ثانية إلى أن تستقلوا بحياتكم، ولن أسبب اضطرابًا مثل هذا مرة أخرى." كان لابد أن أنتقل لمدينة أخرى لأحصل على هذا المنصب "المثالي".. نعم كان يمثل حُلم العمر بالنسبة لي، وتوصيف

وظيفي يناسبني بدرجة هائلة؛ لكنني لستُ رجلاً فقط، أنا أب. في هذه الحالة اعتقدت أن مسؤولياتي كأب يجب أن تؤخذ في الاعتبار أكثر من طموحي الشخصي.

أعتقد أن «إيلتون تروبلاد» على الأقل سيتفق معي في هذا- وأنا أشعر بالأمان بصحبة هذا الرجل. إنه يقدم هذه الملحوظة:

> في نفس الوقت الذي تولى فيه أحد الأطباء منصب رئيس «جمعية الأطباء الأمريكيين»، قُبل ابنه في عضوية أكبر جمعية أمريكية شرفية للفنون المتحررة والعلوم (فاي بيتا كابا)، ولاحظ زملاؤه أنه يشعر بالرضا تجاه تكريم ابنه أكثر جدًا من تكريمه هو. في الواقع، الرجل الذي لا يزال يضع تركيزه الأساسي على طموحه وتقدمه الشخصي، حتى بعد أن يكوِّن أسرة، يُظهر عجزه الشخصي عن النضوج. الطموح الشخصي قد يكون ضروريًا للصغار، لكنه يصبح شيئًا غير مستحب كلما تقدَّم العمر.[٤]

أتفهم لماذا باع الشماس چون ١٠ أفدنة من أرضه من أجل مستقبل ابنه. أنا مستعد لأرهن منزلي، ومستعد لأضحي بكل ما أملك، حتى أضع أطفالي على الطريق الصحيح. كتب الرئيس چون آدامز، وهو ابن المزارع الشماس چون، خطابًا حفظته أجيال عن ظهر قلب:

> لابد أن أدرس السياسة والحرب حتى يُتاح لأبنائي الحرية ليدرس الرياضيات والفلسفة. يجب على أبنائي أن يدرسوا الرياضيات، والفلسفة، والجغرافيا، والتاريخ الطبيعي، وهندسة السفن، والملاحة، والتجارة، والزراعة؛ حتى يعطوا أبناءهم الحق في دراسة الرسم، والشعر، والموسيقى، وفنون العمارة، والنحت، والنسيج، والبورسلين.[٥]

جزء من تنفيذ مسؤولياتنا كوالدين يتطلب تبني الروح المسيحية المتواضعة. مهما شعرنا أننا "مهمون"، يجب أن نتوقع أن الله يستطيع أن يصنع أمورًا أكثر أهمية من خلال أبنائنا، وواجبنا أن نمنحهم انتباهًا كاملاً وأقصى جهد لدينا، راجين أن يستفيدوا من هذا، ويصبحوا شخصيات مؤمنة مؤثرة. عندما ينشغل الآباء أو الأمهات بحياتهم وخدماتهم الشخصية ويقصرون في حق أبنائهم، فهذا قصر نظر منهم في أفضل الحالات، وقمة الغرور في أسوأ الأحوال؛ لأنهم ينسون مسؤوليتهم تجاه الجيل التالي بصرف النظر عن الامتيازات المتوفرة له.

أحد أساتذتي السابقين في كلية اللاهوت، الراحل «كلاوس بوكمول»، كان قدوة في هذا. بالرغم من شخصيته المرموقة والجذابة، أخبرني أنه كان يهدف إلى رفع تلاميذه على كتفيه حتى يزيد طولهم عنه. وبالرغم أنني كنت أتشكك وقتها، ولازلت حتى الآن، في أنني أستطيع حتى الوصول إلى عمقه أو تأثيره، فإن كلماته تقدِّم صورة جذابة لي كأب يأمل في أن يرفع أبناءه على أكتافه.

غطاء من التضحية

أخبرني الراعي «چيم شموتزر» عن صديق كان لديه ابنة في الصف الثاني الإعدادي. ومع بدايات مرحلة البلوغ كانت تشعر بالحرج في مرات كثيرة من الملابس التي اعتادت أمها على ارتدائها. أخيرًا، لم تحتمل الأم أكثر من هذا، وشرحت لابنتها شيئًا قائلة: "حبيبتي.. أعرف أن الملابس التي أرتديها ذات موضة قديمة، لكن يجب أن تعرفي شيئًا: أنا أرتدي هكذا لكي تتمكني أنتِ من ارتداء ما تريدين. نحن لا نستطيع أن نتحمّل تكلفة أن نشتري أنتِ وأنا آخر صيحات الموضة."

أفكّر في الأمهات اللاتي يدرسن لأبنائهن في البيت- بما فيهم زوجتي.. أحيانًا تتمنى ليزا أيضًا أن تذهب إلى "الچيم" أربع مرات أسبوعيًا، وتستمتع بتناول القهوة مع صديقاتها في ستاربكس، وتقضي وقتًا أطول في عمل الأشياء التي تستمتع بها؛ لكن التدريس لاثنين من الأبناء (الأكبر في المرحلة الثانوية الآن) مهمة تحتاج إلى دوام كامل.

الله يدعونا كآباء وأمهات أن نقدِّم غطاءً من التضحية نيابة عن الجيل القادم. هذا هو أسلوب حياة الرب يسوع.. بطرق متعددة تُعرِّف التضحية معنىالحب الحقيقي. كان يمكن أن يقول يسوع للعالم: "أنا أحبكم"، لكن الأمر مختلف تمامًا أنه أظهر محبته هذه بموته نيابة عنا. يخبرنا الرسول بولس: «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح، أنه من أجلكم افتقر وهو غنيٌ، لكي تستغنوا» (٢كورنثوس ٨: ٩).

لا تعبر مرور الكرام على هذه العبارة! لقد افتقر يسوع حتى يستغني أبناؤه الروحيون.. سمح يسوع لنفسه بالذل حتى نتمجَّد نحن.. مات لكي نحيا نحن! كل شيء روحي نملكه يأتي بفضل تضحية الرب يسوع.

بدون تضحية لا يتبقى من الحب سوى كلمات ومشاعر خاوية. يُظهر الملاكم الشهير «مايك تايسون» روح هذا العصر عندما يتحدث عن مدى "محبته" لأبنائه، حتى وهو يعترف بأنه بالكاد يستطيع أن يراهم، عندما أخبر الصحفيين في ليلة سابقة لإحدى مبارياته: "ليس لديّ علاقة عميقة بأبنائي، فلدينا مشكلات في بيتي، لكن بشكل عام كل شيء على ما يرام. أنا أفضل أب في العالم! إنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على أب أفضل مني. حتى إذا لم يروني ليوم آخر في حياتي، فلن يتمنوا أبًا أفضل مني، لأنه لا يوجد مَنْ يستطيع أن يحبهم أكثر مني."[٦]

بالرغم من "مشاعر" تايسون، هناك أدلة قوية تثبت عكس ما يقول.

أظهرت محاضر جلسات المحكمة من عام ١٩٩٥- ١٩٩٧ أن تايسون أنفق على رعاية وتغذية حيواناته (بما في ذلك الآلاف من الحمام والعديد من القطط) تقريبًا ضعف ما قدمه كنفقة لدعم أطفاله.[٧]

الكلمات والمشاعر هي العملة الرخيصة للتأثر العاطفي الوقتي، أمّا التضحية فهي العمود الفقري للمحبة الكتابية الحقيقية: «ليس لأحدٍ حُب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يوحنا ١٥: ١٣).

التخلي عن احتياجات مشروعة

تتحدّث الصحفية «إيريس كراسناو» عن كيف تزينت تمامًا لخروجة "لذيذة" بعد ظهيرة أحد الأيام؛ فقد كانت تحتاج بشدة إلى استراحة من تربية أربعة صبيان صغار، وتتطلع لهذه الخروجة بكل ذرة من كيانها. في البداية، خططت لتذهب إلى مصفف الشعر (الكوافير)، ثم تنوي الذهاب لتقوم بالتدريس في مادة الكتابة بالجامعة. بعد ذلك كانت ترجو أن تتقابل مع صديقة مقربة لها في مطعم لتقضي وقتًا معها في "حديث للكبار". بدا الأمر مثاليًا أكثر من اللازم!

ومع الأسف كان كذلك.. بينما كانت إيريس ترتدي المعطف الصوف الأسود، وهي تحلم بما ستأكله وتشربه في غضون ساعات قليلة، دخل أحد أبنائها غرفة نومها، وأعلمها أنه تقيأ ويشعر بسخونة في رأسه.

قامت إيريس بقياس درجة حرارته: ٣٩ ونصف.

لم تكن إيريس "تريد" فقط هذه الاستراحة من أطفالها، لكنها شعرت أنها تحتاجها. لكن ابنها كان يحتاجها أيضًا. ترى مَنْ سيحظى بحقوقه الآن؟

تقول إيريس: "بينما احتضنته بين ذراعيَّ، طبع وجهه المبلل في

المعطف الأسود الذي كنت أرتديه.. فرفعتُ سماعة التليفون، واتصلت بطبيب الأطفال، ثم قمتُ بإلغاء موعد الكوافير، وحصة التدريس، والخروجة مع صديقتي."

سألها ابنها: "ماما.. هل تبقيني في حضنكِ؟"

أجابت إيريس: "طبعًا، حبيبي."[٨]

إن طريقة استجابة إيريس تذكرني باستجابة الرب يسوع بعدما سمع الأخبار عن مقتل يوحنا المعمدان. يا لها من لحظة تأمل في حياة يسوع! لقد عرف أن العنف الذي أودى برأس يوحنا المعمدان ما هو سوى مؤشر لبعض مما سيلحق به هو في القريب العاجل. لقد رأى الرب يسوع الساعة آتية، ويوم استشهاده يقترب أكثر فأكثر. لذا نتفهم جيدًا كيف شعر برغبة شديدة في قضاء بعض الوقت في خلوة مع أبيه.. يسجل البشير متى: «فلما سمع يسوع (بما حدث ليوحنا المعمدان) انصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفردًا» (متى ١٤: ١٣). كان يسوع "يحتاج" هذا الوقت بمفرده.

لكن عندما سمعت الجموع أن يسوع قريب منهم، تبعوه بأعداد كبيرة، وبدلاً من قضاء بعض الوقت بمفرده، واجه يسوع عددًا ضخمًا من الناس يريدون المزيد منه. كان بإمكان المسيح -ومن حقه- أن يُرسل الجموع بعيدًا، ويشرح لهم أنه يحتاج أن يصلي؛ وما كان لأحد أن يعيبه في هذا. لكن، حسب ما قاله متى «تحنَّن عليهم وشفى مرضاهم» (متى ١٤: ١٤). واستمر هذا طيلة اليوم، وفي نهاية اليوم أشبع الخمسة آلاف منهم.

أحيانًا نجعل الأمر يبدو كما لو أن الرب يسوع أجرى معجزاته بمجرد طقطقة أصابعه؛ في الواقع، مثل هذا العمل العظيم استغرق قدرًا هائلاً من الطاقة والقوة. يسوع إله كامل، لكنه إنسان كامل أيضًا، وكان معرضًا للإعياء. تخيَّل كم كان يومه مليئًا بالتحديات العاطفية، لكنه يستدعي قوته

ليشفي عشرات المرضى، ثم يجد القليل جدًا مما تبقى من قوته ليطعم جمعًا من الناس يبلغ عدده أكثر من خمسة آلاف شخص.

من المؤكد أن الرب يسوع شعر بالإرهاق الشديد، وكان في أشد الاحتياج إلى تجديد طاقته الجسمانية والروحية. ولا نحتاج للتخمين في هذا الأمر؛ فكلام البشير متى يصوّر بوضوح حالة طارئة. بعد إطعام الخمسة آلاف مباشرة، يسجل متى: «وللوقت ألزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العَبر حتى يصرف الجموع. وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردًا ليصلي» (متى ١٤: ٢٢ و٢٣). لقد قام يسوع بواجبه، لكنه على الفور بعد ذلك سعى بشغف لقضاء وقت في الصلاة.

كم من الآباء والأمهات شعروا بأنه قد نفذت طاقتهم، وتحمسوا لوقت على انفراد، لكنهم اضطروا للتضحية بهذا الوقت من أجل أبنائهم؟ عندما يدعوك الله للدخول إلى هذه الحلبة، تذكّر أن هناك مَنْ يشعر بك. دخل يسوع هذه الحلبة، وهو يعرف تمامًا ما تشعر به، ويدعوك أن تحوّل هذه اللحظة العصيبة للتضحية إلى فرصة عميقة من الحميمية والتفاهم معه. هو يعرف مدى احتياجك لبعض الوقت المنفرد، وبعض الوقت لتجديد الطاقة والانتعاش، لكن الاحتياجات الملحة للآخرين تسرق هذا الوقت.

مع الأسف، نادرًا ما تظهر احتياجات الأبناء ونحن بكامل طاقتنا، أو بعد أن ننال قسطًا وافرًا من الراحة؛ بل تظهر عندما تكون طاقتنا مُستنفذة، وعندما نكون في وقت حرج، أو في خضم مخاوفنا وقلقنا. الأطفال لا يراجعون جدول مواعيدنا قبل أن يمرضوا، أو يتشاجروا معًا، أو يقرروا أن يتمردوا. هذا هو صميم تضحية الوالدين.. أن نضحي باحتياجاتنا من أجل الدعوة الأكثر إلحاحًا لتربية الأبناء.

لن يُطلب من معظمنا أن نقدِّم تضحيات كُبرى.. التضحية، وفضيلة التواضع المصاحبة لها، لا تُبنى على تحركات عملاقة بقدر ما تُترجم في أفعال من الاهتمام مستمرة وذات طبيعة يومية: أم تختار أن تلعب مع ابنتها الصغيرة بدلاً من مشاهدة التليفزيون، أب يحرص على الرجوع إلى البيت لتناول العشاء مع عائلته بدلاً من التأخر في مكتبه، أبوان يمارسان هوايتهما بمعدل أقل من أجل قضاء وقت أطول مع أبنائهما. يصف «إيلتون تروبلاد» الأمر جيدًا كما يلي:

> من حق الأطفال الصغار أن يحصلوا على الحب بصورة فردية طوال اليوم، وأن يحصلوا على ما هو أكثر من فتات المشاعر. لكن هذا لن يحدث إلا بعد أن تُعامَل العائلة كمنظومة غالية تستدعي تضحية الرجل والمرأة، بحماس وبتعبير شخصي، من أجل الحفاظ عليها.[٩]

في كورنثوس الثانية ١٢: ١٤ ينصح الرسول بولس: «لأنه لا ينبغي أن الأولاد يذخرون للوالدين، بل الوالدون للأولاد.» وحتى إن كان بولس يتحدث هنا عن الأمور المالية، لكن المبدأ يتسع لأشياء أخرى.. احتياجات الأبناء تجبرنا ككبار على الاعتناء بهم، حتى وإن تكبدنا تضحيات كبيرة من أجل ذلك. ثم يواصل بولس قوله: «أمّا أنا فبكل سرور أُنفِق وأُنفَق لأجل أنفسكم، وإن كنتُ كلما أحبكم أكثر أحبُّ أقل!» (عدد ١٥)

الجانب العملي للتضحية

سنلقي نظرة على بعض الجوانب العملية التي تستدعي تضحياتنا كآباء وأمهات.

(١) الوقت

أحد أعظم التضحيات التي نصنعها لأطفالنا تتضمن توفير الوقت. الآن تتحدد الإجازات الأسبوعية والأمسيات وفقًا لاحتياجات العائلة ورغباتها، بشكل مستقل تمامًا عن رغباتنا الشخصية. بالنسبة للأب أو الأم الذي يبقى في البيت، تصبح التضحيات أكبر؛ لأن هناك مَنْ يطلب كل دقيقة من وقتنا.

تصف «راتشيل كاسك» مشهدًا أثق أن معظم الأمهات اختبرته بشكل شخصي: نشوة أن ترى رضيعًا ينام، ربما ليمنحك أخيرًا بعض الوقت لنفسك:

> تبدأ جفون الرضيع تسقط. ومنظرها يُذكرني بإمكانية أن ينام ويبقى نائمًا لساعتين أو ثلاث... المشهد مثير، لأنه حين ينام الرضيع، أتواصل مع حياتي السابقة كما لو كنت في علاقة غرامية.. هذا التواصل، بالرغم أنه مثير دائمًا، كثيرًا ما يكون مفزعًا أيضًا؛ لأني أنطلق في أرجاء البيت غير قادرة على تحديد ما أفعل: هل أقرأ، أم أعمل، أم أتصل تليفونيًا بصديقاتي... عندما أرى جفونه تسقط، تجري في عروقي نشوة لما ينتظرني من حرية. أبدأ بجنون في ترتيب ومراجعة الأمور التي قد أفعلها، وأغفل بعض الأفكار، وأحتفظ بأفكار أخرى. تسقط جفونه مرة أخرى حتى يغمض عينيه تمامًا. في سكينة ترى وجهه رقيقًا وهادئًا كالمحار.

كل الأبناء يحتاجون لقدر هائل من الوقت، ولأن مَن لديهم أطفال ليس لديهم ساعات في اليوم أكثر ممن ليس لديهم أطفال، فلابد أن "يصلبوا"

بعض الأنشطة لكي يوفروا وقتًا لمتطلبات أخرى. لا شيء يمكن أن يستبدل الوقت الذي نقضيه مع أطفالنا، وهذا الوقت لابد أن نستقطعه في مرات كثيرة من شيء آخر نفضِّل القيام به.

لكن أليست الخدمة هكذا؟ ألا نحب جميعنا أن نتطوع من أجل جمعية أهلية، أو نساعد في بناء كنيسة في أوغندا، أو نتطوع في إحدى المستشفيات، أو أي أعمال خدمة أخرى، فقط إذا توّفر لدينا الوقت؟

مَنْ يفعلون هذه الأمور ليس لديهم وقت أكثر ممَنْ لا يفعلونها- تمامًا كما أن الآباء الذين يتحدثون مع أبنائهم ليس لديهم يوم من ٢٨ ساعة مقارنة بالآباء الصامتين الذين لديهم يوم من ٢٤ ساعة. الوقت لا يحابي للأشخاص، الأمر كله يتعلق بأين نختار أن ننفق ساعاتنا، وما الذي سنضحي به عن قصد لكي نوفر بضع ساعات من الوقت.

(٢) الجنس

يمثل إنجاب الأطفال وسيلة جيدة لتقوية مهارات ضبط النفس لديك. بمجرد أن يظهر الصغار على المشهد، تتخذ العفة معنىً جديدًا تمامًا.

في إحدى المرات بعد عودتي من رحلة عمل طويلة، أدركنا ليزا وأنا أن ما نشعر به تجاه أحدنا الآخر يتجاوز مجرد الرومانسية. كل منا أراد بشدة أن "نبقى سويًا"، لكن حدثت سلسلة من المصادفات غير المتوقعة أحبطت كل المحاولات، ليلة بعد الأخرى. أخيرًا بعد مرور أسبوع تقريبًا، قررنا أن نستمتع سويًا بليلة السبت. ولكن للأسف نسينا ماذا يمكن أن يحدث عندما وافقنا لابنتنا الكبرى بأنها تستطيع أن تدعو صديقتين لها ليبيتا معها.

لم نكن نعرف أن إحدى هاتين الطفلتين تعاني من أرق مزمن.. فظلت مستيقظة حتى بعد منتصف الليل، وكانت تقرأ أمام باب غرفتنا حتى

الواحدة بعد منتصف الليل- بعد ساعتين كاملتين من استغراقي في النوم. (قد تصفنا بالاحتشام والوقار- لكننا اعتقدنا أنه من غير اللائق أن نطلب منها أن تذهب إلى مكان آخر في بيت غريب بالنسبة لها لتقرأ كتابها حتى يتمكّن والدا صديقتها من ممارسة العلاقة الحميمة.) كُنّا نعيش في بيت مستأجر في ذلك الوقت، وكانت الحوائط غير سميكة، وكذلك الأبواب، وهو ما يعني أن أي حركة بسيطة ستُسمع في تلك الليلة في بيتنا.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي، ونظرت إلى ليزا، وقلت لها: "هل لم ننجح هذه المرة أيضًا، أم أن ذاكرتي قد تدهورت لدرجة سيئة؟"

ضحكت ليزا وقالت: "لا تتطرق إلى هذا الحديث. لقد نسيت حتى كيف نقوم بالأمر، لقد مَرّ وقت طويل."

في أجيال سابقة كان بعض المؤمنين ينظرون باحتقار إلى المتزوجين من المؤمنين لأنهم لا يمارسون العفة، فقط الشخص الأعزب أو المتزوجون بلا إنجاب يمكن أن يفكروا في هذا الأمر. لكننا قد لا نمارس الامتناع المستمر، لكن الصغار لديهم طريقة أكيدة في جعلنا نختبر هذا الأمر بدرجة ما!

كلمة في آذانكم: عندما قرأت زوجتي المسودة الأولى من هذا الكتاب، وقرأت الجملة المكتوبة في بداية هذا الجزء (يمثل إنجاب الأطفال وسيلة جيدة لتقوية مهارات ضبط النفس لديك)، كَتبَتْ على الهامش هذا السؤال: "هل هذا جيد فعلاً داخل الزواج؟ أسأل بجدية!"

في رأيي، نعم هذا جيد من ناحية، بينما أؤمن أن الشغف والرغبة هما شيئان صحيّان ومقدسان من الله، فكل منا يحتاج أن يتعلَّم السيطرة على النفس، أو ما يسميه الكتاب المقدس التعفف (أو ضبط النفس). ليس معنى أنه من حقنا ممارسة الجنس كزوجين أن نسمح لأنفسنا أن نلقي

بضبط النفس من النافذة. الشريك الأناني فقط هو مَنْ يطلب الجنس، بينما يعرف أو تعرف أن شريك حياته منهك تمامًا. لقد أوضح الرسول بولس أن المؤمنين الناضجين يُفرقون بين ما هو مسموح وما تحكمه قواعد الحب (راجع ١كورنثوس ٦: ١٢). يمثل الجنس واقعًا قويًا ومبهجًا جدًا في الحياة الزوجية، لكني تحدثت أيضًا في عدد كبير من المؤتمرات عن الزواج أن الجنس يمكن أن يصبح مؤلمًا لأقصى درجة.

ما الذي يجعل الجنس مؤلمًا علاقاتيًا؟ الطلبات الأنانية، التلاعب، الإنكار الخبيث.. باختصار، كل شيء يتعارض مع روح التضحية. بالرغم أن أبناءنا لا يعرفون ما سأقوله الآن -وغالبًا لن نخبرهم!- لكنهم بتعليمهم لنا أن نضحي، فهم في الواقع يطهرون ويعززون علاقتنا الجنسية، حتى وإن لم نستمتع بالعلاقة بنفس المعدَّل الذي اعتدنا عليه.

(٣) الصلاة

الآباء والأمهات الذين لديهم أطفال رُضع، أو في سن المشي، أو مراهقون مشغولون، يحتاجون إلى نفس الوقت من التأمل الروحي والدراسة مثل أي شخص آخر -وربما أكثر. لكن دعونا نكون واقعيين.. إن جدول مهام مثل هذا الأب أو الأم لا يسمح بنفس الفرصة المتاحة لطالب أعزب في الجامعة، أو لأبوين كبر أبناؤهم وتركوا البيت. المفارقة أننا نكون في أشد الاحتياج للصلاة في أكثر الأوقات التي لا يتوفر أي وقت لهذا.

حتى الكُتّاب الكلاسيكيون أدركوا هذا، يعترف «توماس كيلي» في كتابه الشهير «A Testament of Devotion» (أو عهد من التأمل) بذلك بينما يكتب السطور التالية:

هل تريد أن تعيش في حضور إلهي عجيب بحيث تتغيَّر

الحياة وتتجلّى وتتحول إلى سلام وقوة ومجد ومعجزة؟ إذا أردت ذلك، فأنت تستطيع. لأنه باستثناء نوبات المرض في العائلة، وعندما يكون الأطفال صغارًا، وعندما تنهال علينا الضغوط، فإننا نجد وقتًا لما نريد حقًا أن نفعله.[١١]

وفي فقرة أخرى يؤكد كيلي أننا نستطيع فعلاً أن نفعل ما نريده، لكنه يعترف أنه في حالة الزوجين الشابين أحيانًا تقل أوقات صلاتنا لأسباب مشروعة. ولكي يساعدنا على التأقلم مع هذا، فإنه يعطينا كلمة منفعة:

وجدتُ أن حياة بها القليل من كلمات الإعجاب الهامسة لله، والتسبيح، والصلاة، والعبادة، يمكن أن نتنفسها على مدار اليوم. قد يكون يومك مشغولاً جدًا، أعني خارجيًا، ومع ذلك تظل في حضرة مقدسة مستمرة. بالفعل نحن نحتاج نصف ساعة أو ساعة من القراءة الهادئة والاسترخاء، لكنني أجد أن الإنسان يستطيع أن يحمل لحظات الصمت المجدِّدة بداخل نفسه طوال الوقت تقريبًا.[١٢]

يقر «فرانسيس دي سال»، أحد القادة الروحيين في القرن السابع عشر، ويقول: "يجب علينا أن نترك ربنا أحيانًا لكي نرضي الآخرين من أجل محبته."[١٣] كما يشرح فرانسيس أن الله لا يحتقرنا عندما نفعل هذا، بل يرى هذه التضحيات كجزء من تكريس حياتنا له. ويقدّم فرانسيس نصيحة رقيقة لامرأة كانت مُحبطة لأن الحمل استنفذ كل قوتها، ومن ثم أضعف حياتها الروحية:

ابنتي العزيزة، لابد أن نكون منصفين ولا نحمِّل أنفسنا ما هو فوق طاقتنا. الطفل الذي يتشكل في رحمكِ سيكون

صورة حية للجلال الإلهي. وبينما تُستنفذ نفسكِ وقوتكِ ونضارتكِ في هذا الحمل، فلابد أن تشعري بالإرهاق والتعب، ولا تستطيعي تأدية نفس التدريبات الروحية المعتادة بنفس النشاط والارتياح. لكن تحمّلي بحب هذا الإعياء والتثاقل، وأنتِ تنظرين إلى الإكرام الذي سيناله الله جراء عملكِ هذا.[١٤]

في خطاب آخر يشجع فرانسيس المرأة الشابة الحامل لتمتنع عن الصوم، ويشرح لها أن الله لن يُسرّ إذا حرمت طفلاً ينمو في بطنها من التغذية اللازمة له. إن حياتنا الروحية لابد أن تراعي ما نمر به من مراحل في حياتنا.

ساعد «إيلتون تروبلاد» مؤمنين كثيرين على مواجهة هذا التوتر بين الحياة العائلية والخدمة وحياة الصلاة الخاصة من خلال توضيحه بأننا نعيش حياتنا في فصول أو مواسم، والفصل الواحد لا يمكن أبدًا أن يعبِّر عن القصة كاملة.. هناك فصل خاص بمرحلة عزوبيتك، وفصل لأول خمس سنوات في زواجك، وفصل عن سنوات حياتك في تربية أطفالك في عمر المشي، وفصل عن سنوات حياتك في تربية أطفالك في المراهقة، وفصل عن سنوات حياتك عندما يغادر أبناؤك البيت، وفصل عن سنوات حياتك كجد أو جدة. لن يحكم الله على حياتنا من خلال فصل واحد بشكل منفصل، وإنما من خلال القصة التي تتشكل عبر الفصول كلها في نسيج واحد. خلال بعض هذه الفصول، قد تفوتنا بعض الأمور، بما في ذلك الساعات المطوّلة في الصلاة المنفردة. لكن جوهر الأمر هو اتجاه قلبك بشكل عام نحو خدمة الرب وأحبائه. على مدار حياتك كلها، هل تعكس قصتك تكريسًا حقيقيًا وعبادة قلبية لله؟

هل تتذكّر يسوع؟ لقد أراد أن يصلي، لكن مَنْ كانوا يحتاجون إليه

استحوذوا على انتباهه، واضطر أن يلغي وقت تعبده وتأمله، ثم عاد إلى الصلاة بأسرع ما يكون.. لقد تعلَّم أن يطوِّع احتياجه لقضاء وقت مع أبيه السماوي مع مراعاة لواجباته الأرضية.

لا يمثل الوقت والجنس والصلاة سوى القليل من جوانب كثيرة تتطلب تضحية من الوالدين. قد نتكلَّم عن المال، والنوم، والسلام، والهدوء، والهوايات الشخصية، وأشياء أخرى كثيرة. لكن بمجرد أن نتبنى روح التضحية، تصبح التطبيقات واضحة بعد ذلك. نحن كوالدين لا نستطيع، ولا يجب، أن نعيش كما لو أننا لم ننجب أطفالاً. هذا ليس شيئًا نُجبر على فعله، لكن لابد أن ننظر لهذا كدعوة إلى اختبار جانب من حياة المسيح في صميم حياة الإيمان الحقيقية: التضحية الكتابية.

ما أهمية التضحية؟

كان الرسول بولس يشعر بالانبهار تجاه تضحية الله نيابةً عنا. ويكشف بولس خلال كتاباته عن نفسه التي لا تستطيع التغلُّب على انبهاره بأن يسوع مات حتى يعيش هو. لنتأمل فقط كم مرة يبدو بولس مذهولاً بهذه الأعجوبة:

- «الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين...» (رومية ٨: ٣٢)
- «ربنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجل خطايانا...» (غلاطية ١: ٣ و٤)
- «فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غلاطية ٢: ٢٠)
- «الإنسان يسوع المسيح، الذي بذل نفسه فديةً لأجل الجميع.» (١تيموثاوس ٢: ٥ و٦)

• «ظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي يفدينا ...» (تيطس ٢: ١٣ و١٤)

حتى حين يناقش بولس قضايا أخرى مثل الزواج، لا يستطيع أن يهرب من هذه الفكرة: «أيها الرجال، أحبّوا نساءكم كما أحب المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها.» (أفسس ٥: ٢٥)

يمكن أن تعرف أهم فكرة تشغل الواعظ من خلال عدد المرات التي يرجع فيها إلى نفس الموضوع، ولاشك أن فكرة تضحية المسيح نيابةً عنا كانت مسيطرة على ذهن بولس. وهو ما يدعونا لنسأل: لماذا يبدو بولس حساسًا جدًا فيما يتعلق بتضحية المسيح نيابةً عنا؟ أو كما هو ظاهر، لماذا نبدو فاترين مقارنةً ببولس؟ أعتقد أن بولس كان يحمل تقديرًا كبيرًا لتضحية المسيح لأنه "دخل إلى الملعب".. عرف بولس معنى التضحية؛ فقد رُجم، وضُرب، وانكسرت به السفينة من أجل الإيمان، وتعرّض للجوع والبرد والإعياء. ولأنه ضحّى بأشياء، فقد اختبر بشكل شخصي ماذا يتطلب إنكار النفس من أجل شخص آخر، ومعنى أن تتحمّل الألم وتواجه الخسارة- وهذا ما ساعده على تقدير تضحية المسيح الأعظم من أجلنا.

الأمر هو كالتالي: ليس بمقدورك أن تقدِّر مهارة «تايجر وود» في الجولف ما لم تجرب بنفسك أن تلعب الجولف. لهذا السبب نجد المحترفين الآخرين منبهرين به أكثر من المشجعين العاديين.. هؤلاء المحترفون يعرفون مدى صعوبة التسديدات التي ينجح تايجر في تسديدها باستمرار. بنفس الطريقة إذا عشنا حياة مسيحية مُدللة، ولم نبذ لأنفسنا، يصبح الصليب قصة خرافية شاعرية- أو قصة جيدة نحكيها مرة كل عام، ويصبح معتادًا لدرجة أننا لا نطيق الانتظار حتى ننتقل في الحديث إلى موضوع القيامة. لكن إذا عانينا مثلما عانى بولس، وإذا ضحينا لأجل

شخص آخر مثلما ضحّى من أجل رعيته، حينئذٍ سننظر إلى الصليب في انبهار؛ لأننا ندرك أن كل معاناتنا إذا ضاعفناها مائة مرة فلن تقارن بما تحمَّله المسيح من أجلنا. نتيجة لذلك نجد أنفسنا في انبهار تجاه ما فعله الله لأجلنا، وتتحول آلام الصليب من مفهوم مجرد إلى حقيقة مذهلة.

كل هذا يؤدي إلى حالة من الشكر والتقدير لعمل المسيح الذي لن يخفت بريقه أبدًا، وحقيقة هذا العمل ستغمر نفوسنا دائمًا. لا أستطيع إثبات ذلك، لكني أعتقد أن بولس فجّر كل عواطفه عندما كتب غلاطية ٢: ٢٠. من الواضح أنه عرف معنى التضحية: «مع المسيح صُلبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ.» وعندما وصل إلى عبارة: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي»، أعتقد أن الدموع تدفقت غزيرة في عينيه. ثم يعود إلى هذه الفكرة مرات كثيرة.. إنه لا يملك القدرة ليتوقف عن هذا: المسيح مات لأجلنا! المسيح تألم لأجلنا! المسيح حَمل بشاعة آثامنا على كتفيه!

إذا نظرت إلى الصليب في حالة شخص متبلِّد يشعر بالضجر لمشاهدة لوحة جامدة، هناك على الأرجح حقيقتان أحدهما صحيحة: إمّا أنك غير مؤمن، أو أنك مؤمن لكنك لم تقدِّم أبدًا تضحية من أجل الله، ولم تحمل صليبك أبدًا، ولم تنكر نفسك أبدًا لتتبعه. بدون بذل أنفسنا، لا نستطيع أن نقدِّر ذبيحة المسيح.. وهذا يعني أن الأبناء بكل متطلباتهم التي يضعونها على عاتقنا، يقودوننا إلى فهم وانبهار عميقين لما فعله الله لأجلنا.

كانت هذه أكثر فكرة شغلت عقلي عندما قرأت عن إحدى الأمهات وهي تصف صعوبة الولادة القيصرية التي اضطرت لإجرائها لتهب الحياة لطفلها الثاني. دُفعت الأم إلى غرفة العمليات، والتي ذكّرتها "بصور مُفزعة شاهدتها عن غرف الإعدام". ثم أُحيطت بغرباء يرتدون أقنعة، وشعرت فجأة بأنهم يتزاحمون حولها، ويمسكون بذراعيها ورجليها، ويدفعونها على ظهرها. وفي لحظة ما، حَقن أحدهم إبرة في يدها، بينما حقنها

آخر بشيء في ظهرها. ثم نظرت بجانبها ورأت "صمامًا يتفرع إلى ثلاثة أنابيب تم إدخاله في الوريد". وكان رد فعلها الطبيعي أن تقاوم هذا العدوان السافر، لكن كيف؟ "لا أعرف إلى أي جهة أرسل دفاعاتي، وأين أركّز قوى احتمالي؛ لذا استسلمت ونظرت في الأرض."[١٥]

بينما أقرأ هذه القصة، لا أستطيع أن أمنع نفسي في التفكير في الأسد «أصلان»، الذي ذُبح في عالم نارنيا على المائدة الصخرية القديمة، وكان يُجذب ويُضرب من كل الجوانب.[١٦] كل أم سارت في هذا الطريق لكي تقدِّم الحياة لشخص آخر.. فهي حرفيًا تقدِّم جسدها لمدة تسعة أشهر، ثم تخاطر بحياتها وصحتها لتلد هذا الطفل بأمان في العالم. وبمجرد أن يُولد الطفل، تظهر الضرورة لتضحيات أخرى. كلٌّ من الرجال والنساء يمكن أن يتحركوا لتسديد هذه المتطلبات، وتتشكل أنفسهم طبقًا لذلك. إذا قبلنا هذه الاختبارات الصغيرة والعظيمة وعيوننا الروحية مفتوحة، ربما نبدأ في تقدير التضحية المطلوبة منا، وبالتالي نجد مجازاة ببركات روحية تتبع ذلك.

الكريسماس الأخير

في عام ١٩١٨ أخبر أحد الأطباء «بيلي ميسك»، وهو بطل ملاكمة محترف في الوزن الثقيل، بأن الحياة وجهت له ضربة قاضية تُسمى "مرض برايت". أخبر الطبيب أن كليتي بيلي في حالة تدهور شديد جعلت احتمالية أن يعيش إلى عمر الثلاثين أمرًا مستبعدًا. وكان الطبيب على حق حسبما اتضح بعد ذلك.

نصح الطبيب بشدة بأن يتوقف بيلي عن ممارسة الملاكمة في التو واللحظة، ويعمل في أي وظيفة لا تحتاج إلى مجهود كبير- لعلَّ جسده يستطيع أن يتشبث بالحياة لبضع سنوات أكثر.

لم يكن الطبيب يعلم حجم الديون التي دفنت بيلي بالفعل.. فحسبما ذكر الصحفي «ريك ريلي»، فإن توكيلات السيارات المسؤولة عن توزيع سيارات بيلي "لم توزّع ما يكفيها من سيارات"، بالإضافة إلى أنه كان يثق في الناس بشكل زائد- وقد استغله أصدقاؤه، وكثيرًا ما كانوا لا يدفعون له مقابل استئجارهم لسياراته.[١٧] أيضًا كان لديه عائلة، وكانوا يحتاجون للطعام. ولأن تجارته أخفقت، لم يكن بيلي يعرف إلا طريقة واحدة لتوفير قوت عائلته.. أن يكسب بقبضته في الملاكمة.

لذا واصل الرجل المريض في ممارسة الملاكمة، بل دخل الحلبة ثلاثين مرة بعد تشخيصه بهذا المرض المميت. معظم الملاكمين في الوزن الثقيل اليوم لا يلعبون أكثر من مرتين سنويًا، لكن بيلي ظل يلعب كل شهرين تقريبًا. ولم يكن ينافس المبتدئين، بل ثلاثة من هذه المواجهات كانت ضد الأسطورة «چاك ديمسي»، الذي كانت قبضتاه ككرتين من الحديد. وخلال إحدى هذه المواجهات، قام ديمسي بضرب بيلي بشدة في صدره حتى أنه ظهر على الفور على جسد بيلي آثار زرقاء بحجم كرة البيسبول. عندما رأى ديمسي هذه الآثار المفزعة كاد أن يُصعق، لكنه لم يجد وقتًا ليشفق عليه، لأن بيلي أخذ يسدد الضربات إلى رأسه.

لكن "مرض برايت" ظل يهاجم بيلي بضراوة وبدون توقف، وفي النهاية أنهكه المرض تمامًا. وقد ناضل بيلي في المباراة قبل الأخيرة له في يناير ١٩٢٣، وبحلول الخريف كان قد أصبح كرسم كاريكاتير نحيل وذابل مقارنةً بحالته السابقة، وكان عاجزًا حتى عن التدريب، فما بالك بالملاكمة.

كان بيلي يرجو أن يقضي الكريسماس الأخير له مع عائلته، ولم يتحمل فكرة أن تحتفل زوجته وأبناؤه الثلاثة بميلاد المسيح حول مائدة فارغة

وبدون هدايا- حيث كان قد أفلس؛ لذا قرر أن يفعل الشيء الوحيد الذي يتقنه.. فعاد إلى مدير أعماله، وطلب منه أن ينظم له مباراة أخيرة.

لو لم يعرف المدير بيلي لسنوات طويلة، لضحك في وجهه. في النهاية لقد قَلّ وزن بيلي جدًا، وأصبح نحيلاً جدًا لدرجة أشبه بفزاعة الطيور في الحقل (خيال المآتة). لكن المدير قال له مباشرةً: "بيلي، لا أحب أن أقول هذا، لكنك إذا دخلت الحلبة الآن، وفي حالتك هذه، فربما تُقتل."

فأجابه بيلي على الفور: "وما الفارق إذًا؟ هذا أفضل من انتظار الموت على كرسي هزاز."

ولأن المدير يعرف عناد بطله السابق، قال له إنه سيفكّر في الأمر بشرط أن يعود بيلي إلى صالة التمرين، وتتحسَّن حالته. عرف بيلي أنه لا يملك القوة لإكمال تدريباته، فلم يكن في جسده أية قوة باقية. لذا اعترف لمديره وقال: "لا أستطيع أداء التدريبات، لكن بداخلي ما يكفي لمباراة أخيرة. عليك أن تساعدني."

ولأن المدير كان يعرف حالته المادية الصعبة، استسلم في النهاية. لقد وجد منافسًا عنيفًا، يُسمى «بيل برينان»، الذي تمكَّن من الصمود في عشر مواجهات ضد ديمسي.. إذا استطعت الصمود أمام ديمسي في عشر جولات، فأنت ملاكم حقيقي.

قرر المدير إقامة المباراة في ٧ نوفمبر، ثم ظهر بيلي في تلك الليلة، وكان شكله أكثر ضعفًا مما كان عندما قابل المدير. وكما توقع الناس، استمرت المباراة لأربع جولات فقط، لكن بيلي رجع إلى بيته بشيك بمبلغ ٢٤٠٠ دولار- كان هذا مبلغًا كبيرًا في عشرينات القرن الماضي.

وفي صباح يوم الكريسماس استيقظ بيلي الصغير (ابنه)، ودوجلاس، ودونا، وأمهم ماري على كريسماس مثل الذي يُحكى عنه

في كتب الأطفال.. كان هناك جدار حقيقي من الهدايا، وقطار صغير يتحرك على قضبان. لم تصدِّق ماري عينيها عندما رأت البيانو الذي كانت تحلم به في غرفة المعيشة. وأكلوا طعامهم مثل الملوك والملكات، كالأمراء والأميرات، يضحكون ويغنون ويحتفلون كما في الأحلام. لم يستطع الصغار أن يزيلوا البسمات من على وجوههم، لكن ابتسامة أحدهم فاقت في بريقها كل البسمات الأخرى- لقد عرف بيلي ميسك أن الأمر كان يستحق!

في اليوم التالي للكريسماس، استدعى بيلي مدربه مرة أخيرة، لكن حديثه هذه المرة ارتكز على معركة مختلفة تمامًا.

قال له: "تعال، وخذني يا چاك. أنا أحتضر."

أسرع المدرب به إلى المستشفى، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا له.. أصيبت كليتاه بالفشل التام، وغادر هذه الحياة في عمر التاسعة والعشرين، في أول يوم من عام ١٩٢٤.

بالمناسبة، نسيتُ أن أذكر شيئًا. هل تتذكرون مباراة ٧ نوفمبر، المباراة التي استمرت لأربع جولات فقط؟ لقد انتهت المباراة سريعًا لأن «بيلي ميسك» الهزيل وعلى مشارف الموت قضى على منافسه بالضربة القاضية.

لا تراهن أبدًا ضد أب أصرّ أن يقدِّم آخر تضحية له ليترك لعائلته ذكرى أخيرة في يوم الكريسماس.

«لأنه (الإنسان) لا يعلم ما سيكون (المستقبل). لأنه مَن يُخبره كيف يكون؟ ليس لإنسان سلطانٌ على الروح (أو الريح) ليمسك بالروح، ولا سلطانٌ على يوم الموت.»

– جامعة ٨: ٧– ٨

الفصل الثالث عشر

الفراق

كيف تعلِّمنا التربية
أن نعالج الرغبة في السيطرة والخوف
بالثقة والأمل

هل لاحظت مرة كيف اختلفت قراءتك للكتاب المقدس وأنت في الثلاثينات والأربعينات عن قراءتك له في المراهقة والعشرينات؟ هناك بعض الآيات التي لم أكن ألتفت إليها في الماضي والآن تصيبني بالقشعريرة. من بين هذه الآيات متى ٤: ٢٢.. عندما دعا يسوع كلاً من يعقوب ويوحنا، «للوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه». منذ عشرين عامًا، لم تكن تحركني هذه الآية كثيرًا؛ لأني رأيت نفسي يعقوب أو يوحنا أخوض مغامرة مثيرة.. كنتُ الابن الصغير، ولم أرَ سوى الجانب الإيجابي المنتظر من هذا الفراق أو الترك.

الآن، أفكِّر في نفسي كالأب الذي يشاهد أبناءه المحبوبين وهم يتركونه- الأبناء الذين ضحيتُ من أجلهم، ولازلت مستعدًا للتضحية بسرور من أجلهم بكل ما أملك. يصبح الأمر مختلفًا تمامًا عندما تكون أنت المتروك في البيت!

إن إطلاق أبنائنا يكشف النعمة الفياضة التي في قلب أبينا السماوي. في هذه الحالة لا يطلب الله منا أي شيء لم يفعله هو أولاً.. عندما أرسل الآب السماوي ابنه، كان يعرف أنه يرسله إلى عالم لن يقدِّر على الأغلب شخصه الإلهي؛ بل على النقيض سيتهمونه بالتعاون مع إبليس، ثم يعذبونه، وفي النهاية يقتلونه. وإذ أرسل الله ابنه بينما كان يعرف هذا مسبقًا، كيف نسمح لأنفسنا بأن نتحفَّظ نحن على أبنائنا؟ كما أرسل الله ابنه نيابةً عنا، كذلك التربية المقدسة تدعونا إلى إرسال أبنائنا نيابةً عنا، من أجل ملكوت الله.

وبالرغم من صعوبة هذا الأمر، واختلافه من طفل لآخر، بمقدورنا أن نقدِّس الألم المصاحب لهذه العملية كوسيلة لمزيد من الفهم والتقدير لتضحية الله العظيمة من أجلنا.

عملية بطيئة ومستمرة

إن إطلاق أطفالنا يشكّل جزءًا هامًا -وإن كان مؤلمًا- من عملية تشكيلنا الروحي. يبدأ الأبناء عملية الترك (لأنها هي فعلاً عملية تتم على خطوات) أسرع مما يروق لمعظم الآباء والأمهات. بالنسبة للأمهات، عادةً ما تبدأ عملية الترك عندما ينتقل الرضيع من الرضاعة الطبيعية إلى الرضاعة الخارجية (باستخدام الببرونة). تقر «راتشيل كاسك» بمدى صعوبة أن ترى زوجها وهو يقدِّم الببرونة لابنتها لأول مرة.

> يأتي المساء، وأعد اللبن الصناعي. يجب على والدها أن يقدّمه لها؛ لأنهم نصحونا بأن هذه "الخيانة" لا يُفضل أن ترتكب بواسطة "الخائن" نفسه (الأم)، ولكن بواسطة "قاتل مستأجر" (الأب)! أراقبه وهو يلمس شفتيها بالحلمة المطاطية، ثم تعضعض فيها وهي مُجبرة، بينما تجعِّد أنفها.

في هذا الوقت تفهم الصغيرة إصراره.. هذه ليست لعبة جديدة غريبة، كما ظنت في البداية. تحملق في الببرونة، وأرى اتضاح الأمر لها. تجذب رأسها لأعلى بقوة، ونظرة عينيها تتلاقى مع نظرة عينيّ؛ وتملأ مشاعر الحيرة والجُرح نظراتها. إنها ترى أنني أصدِّق رسميًا على هذه الجريمة. تبدأ في البكاء، فأتحرك لأتراجع، أو لأسترضيها.. تتحرك يدي مباشرة إلى أزرار قميصي؛ فيُقال لي اذهبي إلى غرفة أخرى، وأذهب لأجلس على السرير باكيةً، وألمُ يعتصر أحشائي. بعد دقائق أتسلل لأرقب الأمر من بعيد.. ها هما يجلسان في بقعة من الضوء الخافت. الحجرة دافئة وساكنة، والطفل يتناول اللبن. أرجع بسرعة إلى الغرفة كما لو أنني شاهدتُ خيانة![1]

أتذكر عندما كانت «ليزا» تُرضع أبناءنا طبيعيًا، كان الناس يسألوننا باستمرار: "متى تخططان للفطام؟" وكنتُ كثيرًا أجيبهم- بقليل من الجديّة: "السؤال ليس متى ستفطمون الصغير، السؤال هو متى سنفطم الأم؟" وانطبق هذا الأمر بالأخص على طفلنا الأخير.

بعد فطام الطفل عن الرضاعة، يتخرج ليفطم نفسه من التوقعات المثالية لوالديه ممارسًا شخصيته المتفردة. بعد بلوغ ابنتي "كيلسي" سن السابعة، أصبحت متحمسة جدًا للون البنفسجي. وعندما انتقلنا إلى بيت جديد، وقرر الأبناء أن يدهنوا غرفتهم الخاصة، كان اختيارها هو اللون البنفسجي أيضًا. كما قررت أن تجعل حفلة عيد ميلادها العاشر "حفلة بنفسجية". كانت بعض الأطعمة مزينة باللون البنفسجي، والجميع يرتدي اللون البنفسجي، ويشربون مشروبات بنفسجية، ويأكلون حلوى بنفسجية. ولم تتحمل الانتظار لتبلغ السادسة عشرة؛ لأنها لسبب ما (بالرغم أننا

أخبرناها بما يكفي بعدم صحة ذلك)، كانت تظن أنها ستحصل على سيارة بنفسجية كهدية.

لا تشتري زوجتي الكثير من المجلات، لكني أتذكر أنها كانت تقرأ مجلة «ڤيكتوريا» في بدايات زواجنا. لا أتذكر ولو صورة واحدة لصبية صغيرة ترتدي ملابس بنفسجية وتعيش في غرفة بنفسجية. لا تنجذب كيلسي للفساتين التي ترتديها البنات الصغار في مجلة «ڤيكتوريا»، ومؤخرًا قالت لزوجتي: "من فضلك هاتي لنا طفلة أخرى حتى ترتدي هي الفساتين وأرتدي أنا البنطلونات!"

التربية رحلة طويلة من التخفيف التدريجي لقبضتنا على اللجام. عندما يكون أطفالنا في سن الرضاعة، نحن نسيطر تقريبًا على كل شيء في عالمهم.. نحن نختار ما يرونه، ونختار شكل وتزيين سريرهم الصغير، وما يأكلونه، وما يرتدونه، ومَنْ يتواجد في محيطهم. الرضيع يعتمد بنسبة ١٠٠٪ على والديه، ويكون لدينا كامل التحكُّم عليهم. هل تلاحظون؟ نحن كبشر نحب السيطرة والتحكم.

ثم يدخل أطفالنا المدرسة؛ وفجأة يلعبون في فرق مدربين آخرين، ويقضون من حين لآخر الليل في بيوت آباء وأمهات آخرين. يذهبون إلى المدرسة، ويغادرون البيت من ٦ إلى ٨ ساعات في كل مرة، ويختارون أصدقاءهم على طريقتهم، ويأكلون ما يشاؤون من وجبات يستبدلونها بالوجبات التي نعطيها لهم.

ثم تأتي مطرقة المراهقة الثقيلة لتزيل أية فكرة رومانسية بأن أطفالنا ينتمون لأي أحد سوى الله. لا نستطيع أن نتخلى عن أبنائنا في هذه المرحلة، بل يجب على الأسرة أن تستمر في التأثير على العلاقات الجوهرية في حياة أبنائها.. لكن المراهقين لديهم مكالمات تليفونية طويلة وسرية، وأحيانًا يقضون عطلة نهاية الأسبوع، أو حتى أسبوعًا كاملاً بعيدًا عن

البيت في أحد معسكرات أو مؤتمرات الشباب. ثم يبدأون في قيادة السيارة، وحتى إذا وثقنا في قدرتهم على القيادة لا نستطيع التحكم في السيارات التي تسير بجوارهم. فجأة يصبح إحساسنا بالسيطرة وهمًا وبخارًا!

على الآباء والأمهات أن يتعلَّموا الدرس الروحي الجوهري عن رعاية أبنائهم بشغف وعمق، بينما في نفس الوقت يسمحون لهم بالنمو بشكل طبيعي وباستقلالية عنهم. لابد أن تتحول رعايتنا لهم من السيطرة عليهم إلى التأثير فيهم.. يصف كلٌّ من «چيمس وايتهيد» وزوجته «إيفلين» هذا الأمر كالتالي:

> بينما نرى أبناءنا ينضجون في اتجاهات غير متوقعة، ربما نميل إلى كبحهم أو تركهم تمامًا ونحن محبطون منهم. وعندما نكبحهم، فإننا نحاول إرغام نضوجهم على أن يتفق مع تصوراتنا.. نحن نذكِّرهم بأنهم "مِلكنا". إن رعايتنا تُصرُّ على السيطرة، وبهذا ندرك بأن أعمق رغباتنا هي أن نستنسخ أنفسنا -في أبنائنا- أكثر من العمل على تقديم حياة جديدة بكل خصائصها ومميزاتها. أو نتركهم، ونشعر بالمرارة لأنهم لا يقدِّرون كل ما فعلناه لهم.
>
> نحن ننضج، جسمانيًا وروحيًا، عندما نعترف بأن أطفالنا ليسوا مقتنياتنا. بل إن صميم التربية هو أن نتعلَّم مواصلة استثمار رعايتنا لهم، بينما نقلل من سيطرتنا عليهم تدريجيًا.. هل نستطيع أن نواصل تقديم أنفسنا للجيل القادم، عندما ندرك أنهم لن يصبحوا مثلنا؟[٢]

ربما نُختبر في هذا الجانب من إيماننا أكثر من أي شيء آخر؛ فنحن بدافع من الغيرة المقدسة والحسنة على خلاص أبنائنا، قد نحاول

كوالدين مؤمنين أن نسيطر على مصير أطفالنا بشكل يرقى إلى الكوميديا الواضحة. عندما نقول لطفل في الثالثة من العمر: "چوني، هل تريد أن تقضي الأبدية كلها في السماء مع مامي وبابي وجدو وتيتا ومع يسوع، ومحاطًا بكل الملائكة، في مكان ليس به بكاء أو وجع على الإطلاق؛ أم تريد أن تقضي الأبدية بطولها تحترق في جهنم مع إبليس؟"

هل تعرف؟ هذا اختبار سهل للغاية بالنسبة لطفل في الثالثة؛ فهو عادة لن يقول مثلاً: "سأرجع إليك بعد أن أفكر في الأمر يا بابا." لكنه سيقول بالطبع: "أريد أن أذهب إلى السماء!" ثم نقوده إلى الخطوة التالية للتوبة حتى قبل أن يفهم ما الخطية التي يرتكبها، وما سيحصل عليه من هذه التوبة. إذا ظننا أن اختبار إيمانهم سينتهي في هذه اللحظة، فإننا نخدع أنفسنا. عندما يلتحق أبناؤنا بالمرحلة الثانوية أو الجامعية، لن يكونوا تحت رحمة طريقتنا في عَرض هذا القرار؛ بل ستكون لهم أسئلتهم الخاصة، وسيبحثون عن الإجابات بأنفسهم.

عند هذا المفترق –سواء المرحلة الثانوية أو الجامعية– تصبح السيطرة "حرثًا في الماء"! الأكثر من ذلك، كلما حاولنا أن نزيد من سيطرتنا عليهم، على الأغلب سيبتعدون عنا أكثر. ومع ذلك لايزال بإمكاننا أن نترك رصيدًا كبيرًا من التأثير.. فإذا رأوا فينا قدوة أصيلة، سيرغبون في اقتناء ما عندنا. أمّا إذا شاهدوا فينا تدينًا بدافع الخوف ويعتمد على السيطرة، فعلى الأغلب سينحرفون بأسرع وأبعد ما يمكن في الاتجاه العكسي.

كانت زوجتي وابني يدربان كلبنا الصغير الجولدن ريتريڤر على مدار الأشهر الماضية، ومؤخرًا بينما كنتُ أتمشى مع زوجتي رأيتها تفعل شيئًا أثار دهشتي وأبهرني بنفس المقدار. بينما كنا نعبر الشارع، قرر «آمبر» أن ينحرف في اتجاه بعض السيارات القادمة في الاتجاه المقابل؛ وفي ذعر هرعتُ وراءه، مما شجعه في الابتعاد أكثر في الاتجاه الخطأ.

احتفظت زوجتي بهدوئها، وسارت بعيدًا عن الخطر؛ وفجأة استدار آمبر وغيّر اتجاهه ومشى وراء ليزا، في اتجاه الجزء الآمن من الطريق. خلال تدريب ليزا لآمبر، علّمته أنه لابد أن يبقى بجوارها.. الكلب المتدرب جيدًا يرى مدربه كأهم مصدر للمعرفة. وعندما كانت ليزا تغيّر اتجاه السير، كان آمبر يعرف أنه لابد أن يغيّر الاتجاه أيضًا؛ وبالتالي عندما تحركت بعيدًا عن الخطر تبعها بشكل غريزي.

هناك الكثيرون من الآباء والأمهات يفعلون مثلي -نطارد أطفالنا في منطقة الخطر؛ بينما ينبغي أن نتعلّم من ليزا تقديم قدوة في الابتعاد عن الخطر، ثم دعوة أطفالنا ليتبعونا. كلٌّ من الرب يسوع والرسول بولس فعل هذا، لكن التنفيذ بالطبع أصعب كثيرًا من الكلام. فكّر للحظات في القلق الذي ربما شعر به المسيح عندما أراد أن يترك الكنيسة في أيدي قلة من التلاميذ الخائفين.. كان يعرف أنه بعد موته سيحتشد تلاميذه خلف الأبواب المغلقة مرعوبين وشاعرين بالحيرة تجاه ما ينتظرهم؛ كان يعرف قبل موته أن بطرس، الصخرة التي ستُبنى عليه كنيسته الجديدة، سينكر حتى أنه يعرفه- ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات.

لو كان الرب يسوع يتحرك بمنطق السيطرة بدافع الخوف ما كان ليذهب إلى الصليب أبدًا، وما كان للتلاميذ أن يكونوا مستعدين "بما يكفي" أبدًا. لكن يسوع لا يبقى مسيطرًا على الآخرين، بل يطلقهم. لقد وثق في عمل الروح القدس المعزي ليثبت الدروس التي علّمها إياهم؛ كما يجب علينا أيضًا أن نثق في أن الروح القدس ليذكّر أبناءنا بالحقائق الروحية التي تعلّموها.

عاد المسيح إلى الآب، وبالرغم من أنه لا أحد يستطيع أن يدَّعي أن الكنيسة مثالية، لكنها بقيت وازدهرت على مدار ألفي عام. مرة أخرى، نحن نواجه هذه المفارقة العجيبة: بالرغم أن يسوع، الذي لم يتزوج، لم

يكن أبًا بالجسد لأي طفل، فإن عملية التربية تأخذنا إلى نفس المحطات الروحية التي خاضها خلال فترة تجسده على الأرض.

الثقة في الله

إن روح التسليم تبني استقامتنا الروحية بدفعنا نحو الثقة في الله والراحة فيه بدلاً من توجيه الاتهام له عندما لا تسير الأمور تمامًا كما خططنا لها. إحدى الأمهات التي كان طفلها يعاني من «متلازمة أسبرجر» (حالة مرضية تشبه التوحد) وجدت نفسها في مرحلة عميقة من التشكك في رعاية الله لابنها. قالت هذه الأم للطبيبة «كاثي كاربنتر»: "مررتُ بوقت ظننتُ فيه أن الله لا يحب مايكل. لماذا يسمح إله محب بحدوث كل هذا الألم له؟ كان لديّ مشكلة في تصديق أن الله يحب مايكل.. كان هذا افتقارًا للثقة في الله. شعرت بالأسف لأن مايكل لن ينعم بالحياة التي ينعم بها آخرون."[٢]

الأطفال المصابون بالتوحد يجدون صعوبة غالبًا في فهم الإشارات الاجتماعية؛ لذا اشترت والدة مايكل لابنها نسخة من كتاب "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس" للمؤلف ديل كارينجي؛ ليحمله في حقيبته إلى المدرسة الإعدادية. ما يلتقطه معظم الناس بشكل طبيعي -مثل كيف تعرف أن الآخر غاضب، أو ما يضايق الآخرين وهكذا- كان على مايكل أن يتعلّمه عن طريق الحفظ عن ظهر قلب.. كان يعوزه الإحساس الفطري في المواقف الاجتماعية ليعرف متى يتراجع، ولم يكن يستطيع التقاط الإشارات التي تقول إن الآخرين وصلوا إلى درجة عدم التحمُّل.

في أول يوم له في المدرسة الإعدادية، وكتاب "كيف تكسب الأصدقاء" في حقيبته، ربَّت مايكل على كتف أحد الطلبة الذين يكبرونه ليسأله

سؤالاً، وليس مستبعدًا أبدًا أن مايكل قد ربَّتَ على كتفه إلى حد ما بشدة زائدة، أو ربما أطال في هذا كثيرًا. عندما يقوم طفل مصاب بالتوحد بهذا السلوك فكل الاحتمالات واردة، وتدرك والدة مايكل هذا. على أية حال، لقد انزعج الطالب بسبب يد مايكل؛ وأخبره بأن يتوقف عن ذلك وإلا لكمه في وجهه.

لم يستوعب مايكل تحذيرات الصبي. وإذا لم يكن للمتوحد خبرة مع ذات الموقف من قبل، فلن يعرف بالضبط كيف يتصرف.. ولأن مايكل أراد المزيد من المعلومات، ربَّت مرة أخرى على كتف الصبي الأكبر ليسأله عما كان يعنيه- فانهال الصبي عليه ضربًا.

أدركت والدة مايكل أنه بسبب طبيعة ابنها -أو الطريقة التي سمح الله بأن يكون عليها- فإن التعرض لمواقف مشابهة يبدو محتومًا. لم يقابل الصبي الأكبر طفلاً مصابًا بالتوحد من قبل، لذا بالرغم أنك كنت تتمنى أن يتجاوب بمزيد من الصبر، تستطيع أن تتفهم كيف تجاوب -بناءً على جهله بالأمر- بهذه الطريقة التي تصرَّف بها. لكن هذا يعيد السؤال مرة أخرى: لماذا يسمح الله بأن يواجه مايكل مثل هذه المعاملة الوحشيَّة؟

من المثير للاهتمام أن مايكل لا يبدو أنه يشارك أمه في شكوك قلبها. خلال أحد المعسكرات الصيفية، وبينما كان بصحبة مراهقين آخرين في نيوچيرسي، نادى مايكل أمه وقال: "ماما، ليس هناك مشكلة إن لم أتزوج أبدًا؛ لأن يسوع هو أقرب صديق لي، ولن أشعر بالوحدة أبدًا."

تعترف والدة مايكل: "كنتُ قلقةً دائمًا على علاقة مايكل بالله.. لأنه إن لم يستطع التقارب مع إنسان، فكيف سيستطيع أن يفهم الله؟ وعندما يتعلق الأمر بحياة مايكل، أجد نفسي أقلل دائمًا من عمل الله. لقد تلامس مع الله بطريقة عميقة في هذا المعسكر الصيفي."

عندما يشاهد معظمنا كآباء وأمهات أبناءنا وهم يغادرون البيت، نشعر بشكل طبيعي بالقلق تجاه كيف سيعيشون حياتهم بمفردهم.. لكن تخيّل فقط كيف يبدو الأمر لو أطلقت صبيًا مصابًا بالتوحد! تعلَّمت والدة مايكل درسًا غاليًا: نحن لا نربي كمَنْ لا رجاء لهم.. نحن لدينا إله يعتني بأبنائنا.

بمجرد أن تخرّج مايكل من الجامعة كان الأمر مختلفًا تمامًا. كان والداه قلقين بشأن ابتعاده عن البيت، لكنهما تركاه يغادر، وسلّماه ليدي الله. وقاد الله مايكل بعنايته الصالحة إلى كنيسة صغيرة رحَّبت به بأذرع مفتوحة. وشعر الناس في هذه الكنيسة بشيء "مختلف" لدى مايكل؛ لذا دعت زوجة الراعي والدة مايكل، وقضت معها ساعة لتعرف أكثر عن تاريخ مايكل والتشخيص الطبي لحالته. لقد رحَّب به شعب الكنيسة، وأغدقوا عليه الحب والتعاطف.

كل هذا دفع والدة مايكل لمراجعة مخاوفها السابقة: "بالنسبة لي الأمر يتعلق بشعوري بالسلام تجاه ما يعمله الله. ظننتُ بفهمي البشري المحدود أن إعاقة مايكل تُحدُّ الله بشكل أو بآخر. ظننتُ أنه لن يفهم الله بسهولة، مثلما لا يفهم الناس بسهولة. كان هذا تفكيرًا غبيًا مني. لقد أظهر الله مرة أخرى أنه أكبر بكثير من تقديري لما يمكن أن يفعله مع مايكل."

قد لا يكون طفلك مصابًا بالتوحُّد.. ربما يكون لديه صعوبة في التعلُّم، أو لديه عادة سيئة، أو شخصية مضطربة، أو إعاقة جسدية.. وأنت تقضي ساعات طويلة تفكّر فيما سيحدث لهذا الطفل، وهل سينجح في الحياة! من فضلك لا تنسَ أن الله لا يلقي بطفلك في العالم ويتركه بمفرده. لقد أعطى طفلك أبًا/ أمًا مهتمًا -أنت، ومنحه معزيًا، مرشدًا، هو الروح القدس؛ ليذهب مع طفلك في الأماكن التي لا تستطيع الذهاب إليها.

وحتى إذا رفض طفلك الروح القدس، بمرور الوقت يناديه الله ويتقرب إليه ليجذبه إلى النور.

من المعروف أنه ربما من الأسهل أن تسلِّم نفسك لله عن أن تسلِّم طفلك الأول (البكر)، أو الثاني، أو الأخير- لكن أهلاً بك في المستوى المتقدم من التعلُّم! التربية المُقدسة صُممت لتقوي إيمانك.

من الصعب علينا أن نشاهد أبناءنا يغادرون، ومن الصعب علينا أن نُطلِقهم. وأحيانًا لا يتعلق الرحيل ببُعد المسافة، وإنما قد يعني الموت. ما الذي يمكن أن يقوله إيماننا في هذه الحالة؟

تسليم داخلي

ربما واجه «كيفن كونلن» أكبر معركة للتسليم عندما تُوفي ابنه كريستوفر في عمر الثالثة والنصف بمستشفى الأطفال في بوسطن. بينما كان ابن كيفن يحارب بشجاعة المرض الذي أصيب به بقسوته وقوته التدميرية (حتى وإن لم ينجح في هذه المعركة) قرر كيفن أن يُعبِّر عن أفكاره في شكل خطاب. فيما يلي بعض الفقرات المقتبسة منه، وهي من أكثر الأشياء المؤثرة التي قرأتها:[٤]

عزيزي كريستوفر،

بينما أرقد على السرير ممسكًا بك، أدرك متألمًا بشدة أنك ستظل معنا لبضع ساعات فقط. نحن في ساعة متأخرة الآن، لكني لا أستطيع السيطرة على مشاعري؛ لذا بحثت عن مكان هادئ في المستشفى لأصيغ أفكاري في هذا الخطاب من أجلك.

ينكسر قلبي عندما أفكّر في الصراعات التي خضتها في

الشهور الثمانية الماضية لتُخرج هذا "الحجر" من رأسك. أنا مستعد لأفعل أي شيء لأكون مكانك، ولن يوجد ما يسعدني أكثر من هذا.

بينما تغمض عينيك وتقرر متى تريد أن تذهب إلى السماء، من فضلك تذكّر كم أنا فخور بك. منذ يوم ولادتك وحتى الآن، لم تجلب لي سوى البهجة والسعادة. لقد فُقتَ أسمى توقعاتي عن كيف يكون الابن.. لم تكن فقط ابنًا لي، لكنك كنت أعز أصدقائي ورفيقي الدائم. في العمل أو في أسفاري كنت دائمًا أتوق لأكون معك.

يذكر كيفن الكثير من المواقف المبهجة التي اختبرها بصحبة ابنه، ثم يتحدث عنه كأخ رائع لأخيه الأصغر «كودي». لكن الآن، في وسط هذا الحزن، أصغِ إلى روح التسليم المذهلة التي حافظ عليها هذا الأب وهو يرى ابنه يموت أمامه:

نعم، «كيه. سي.» سأفتقدك كل يوم، وفي رحلاتنا، وكذلك في المناسبات الخاصة مثل الكريسماس. العام الماضي كنت مريضًا للغاية، ولم تستطع الاستمتاع بالكريسماس، وخلال الشهور الثمانية الماضية كنت أحلم أن أجعل هذا الكريسماس متميزًا لك. لا أستطيع أن أتخيّل هذا اليوم بدون أن أفتح لك الهدايا، وتلعب مع أخيك كودي، وأبناء عمك.

سأفتقدك بشدة! كل ما تعلمته منك يؤكد أن حياتي تسير في المسار الصحيح، وأن القيمة التي أؤمن بها في مكانها الصحيح.. وإلا كيف كان يمكن أن يكون لديّ ابن مثلك؟ أشكرك من أجل هذا.

منذ ديسمبر الماضي كنتَ تنازع حتى تتحسَّن صحتك.. لقد حاربت كما لو كنتَ جيشًا من ألف رجل، كنتَ في غاية الشجاعة. وبينما تستعد للذهاب إلى السماء، من فضلك اعلم أن أمك وأخاك كودي، وجدك وجدتك، وأبناء عمك، وأعمامك وخالاتك، وأصدقاءك.. جميعنا نحبك، وأنا أحبك من كل قلبي. لن ننسى أبدًا كل البهجة والسعادة التي أعطيتها لنا في كل يوم عشته معنا. أنا أسعد إنسان في العالم لأني أبوك وصديقك. أحبك بجنون.

وهكذا، «كيه. سي.» يمكنك أن تغلق عينيك وتستريح بسلام. ليس عليك أن تستمر في هذه المعركة. لقد انتصرت في أعظم معارك الحياة: لقد أصبحت كاملاً وجميلاً جدًا، لذا دعاك الله إلى بيته في السماء. أشكرك لأنك ابني.

أحبك دائمًا،

بابا

قد يُقدَّم الإيمان في كثير من الدوائر المسيحية على أنه المقدرة الروحية التي "تتغلب" على الكثير من عقبات الحياة وتجاربها من خلال الصلاة.. أي أنه إذا كان لدينا ما يكفي من الإيمان، فلن يأخذ السرطان حياة مَنْ نحب أبدًا. لكننا نرى الإيمان الحقيقي يفيض في هذا الخطاب الذي كتبه كيفن كونلن لابنه! بعد أن يُقال ويُفعل كل شيء، فإن الإيمان ليس هو القدرة على الحصول على ما نريده، بل هو الروح الذي يتقبل أي شيء من الله! نعم، صلى كيفن من أجل شفاء ابنه كريستوفر، لكن عندما اختار الله أن يأخذه إلى بيته، أظهر كيفن أن القبول برضا للاستجابة بـ "لا" على صلاته يحتاج إلى إيمان أكبر من الاستجابة بـ "نعم".

من الواضح أن ما قرأته هي كلمات رجل لديه إيمان- وأنه في وقت

ما يجب على الأب أو الأم أن يجهز طفله للموت بدلاً من التشبث بأمل زائف. هذا ليس موقفًا ضد الإيمان، لكنه ذروة الإيمان، والمعيار الحقيقي للإيمان. صلى يسوع لعل الآب يرفع عنه كأس الحزن الذي كان على وشك أن يتجرعه، الرب وعندما قال الآب: "لا، يجب أن تشرب هذا"، ظهر إيمان يسوع في تسليمه: «لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو ٢٢: ٤٢).

ليس لدينا أية ضمانات في هذا العالم الساقط.. في الولايات المتحدة ما يقرب من ٣٥٠ عائلة تدفن طفلاً يوميًا.[٥] مثل هذه الخسارة ستترك أثرًا على الأب أو الأم مدى الحياة! تعترف المغنية «سيدني بولينز» بالكثير عندما تتحدث عن ابنتها «چيسي» التي ماتت من السرطان وهي في عمر الحادية عشرة:

> لازلتُ أريد أن أرى هذا الوجه، الذي لم يغِب عني أبدًا.. ولا بعد خمس سنوات، ولا بعد عشر سنوات. أستطيع أن أضحك اليوم، وهو ما لم أستطع فعله منذ سنتين، أستطيع أن أستمتع بوقتي اليوم؛ لكن دائمًا ما يصاحبني الحزن، وسأعيش مع حزني حتى اليوم الذي أموت فيه وأكون مع چيسي مرة أخرى.[٦]

أبسط الأشياء قد توقظ الوجع مجددًا وتستدعيه مزمجرًا إلى الحياة.. رؤية طفل آخر بشعر أحمر، رؤية ملابس أقل في سلة الغسيل، المرور على الحلوى أو الطعام المفضل لطفلك في السوبر ماركت، أو التوقف مصادفة أمام القناة أو البرنامج الذي كان مفضلاً له. الوجع حقيقي ومستمر، ولا أحد فينا يستطيع أن يقول شيئًا ليخفف الألم قليلاً. في واقع الأمر، من المستحيل أن تخفف من أوجاع أب أو أم حزين على فراق أحد أبنائه، وربما يكون هذا الألم هو آخر شيء يربطهم بشخص عزيز على قلبهم. قد نُجرح ونتألم معهم، لكننا لا نستطيع أن نشفيهم.

ليس بمقدوري أن أزيل خطر الموت، وأنا ككاتب لن أكون أمينًا إن قللت من قدر هذا الخطر. الحقيقة هي أن الموت في وجهة النظر المسيحية هو مجرد دينونة يوقعها إله قدوس على عالم خاطئ. ولكن كما سنرى بعد دقيقة، هذه الدينونة الفتاكة والفراق المبكر يمكن أن تشير إلى أسمى أمانينا، وتجعلنا نركز على التربية بطريقة مختلفة عن أي شيء آخر في رحلتنا على الأرض.

الرحيل الأخير

في أحد الأيام، أوقعتُ نفسي في ورطة كبيرة في «يورك» بولاية بنسلفانيا عندما حكيت عن صديق أنفق ما يقرب من ٦٠٠ دولار في العيادة البيطرية محاولاً علاج قطة شاردة لتكون بصحة جيدة. واعترفت أن "تعاطفي تجاه القطط الضالة يتوقف عند ٦ دولارات تقريبًا. أنا أنظر إلى الأمر كالتالي.. إناء كبير مليء بكرات الجولف، أم علاج قطة شاردة؟ إناء كبير مليء بكرات الجولف أم علاج قطة ضالة- عادة ما يكسب إناء كرات الجولف."

كان هناك طبيب بيطري يجلس بين الحضور، وكذلك عدد من محبي الحيوانات الأليفة، وسمعتُ منهم ما يكفي! وعندما بدأت المحاضرة التالية، حفرت لنفسي حفرةً أكثر عمقًا عندما علقتُ بسخرية بأنني فعلاً معجب جدًا بالحيوانات الأليفة التي يمتلكها أطفالي، فقلت: "على سبيل المثال، أنا ممتن جدًا أن ابنتي كيلسي لديها سمكة. اكتشفت أن السمك مهم جدًا لأنه يعلِّم أطفالنا عن الموت."[٧]

ضحك بشدة عدد كبير من الحضور، لكني وضعت نفسي في مأزق أكبر مع محبي الحيوانات من الحاضرين. ومع ذلك فهناك حقيقة روحية خطيرة وراء ما قلته: الموت هو نداء الإطلاق الأخير.. الرحلة التي لابد أن

نخوضها كلنا. تُرى كيف سنتعلَّم كآباء وأمهات أن نطلق أبناءنا عندما يشير هذا النداء إلى موتنا نحن؟ ولأن معظمنا سنموت قبل أبنائنا، فإن معظمنا سيواجه هذا المسار الروحي أولاً.

بينما كنت أكتب هذا الكتاب، شاهدتُ فريق كرة السلة الذي يلعب فيه ابني جراهام يفوز بالبطولة. وخلال الاستراحة قبل الشوط الرابع، جَرى جراهام إلى غرفة تبديل الملابس؛ فتبعته لأعطيه نصيحة بشأن لعبة معينة، ووقفنا ثلاث أو أربع دقائق نتكلم عن الحكام والفريق المنافس، وما كان على جراهام وزملائه في الفريق أن يفعلوه ليحافظوا على تقدمهم. هذا ما نحب أن نفعله جراهام وأنا – نحب أن نتكلم سويًا.

ذات مرة، عندما كان جراهام بعد سن المشي بقليل، وكنتُ مسافرًا وقتها، اندهشت زوجتي ليزا عندما رأت جراهام يشاهد مباراة لكرة القدم. تعلَّمت ليزا أن تتحمل استمتاعي بمشاهدة المباريات على التليفزيون، لكنها تمردت على فكرة توريث هذا الأمر لابني.

فسألته: "جراهام، ماذا تفعل؟" لم نعِش في فلوريدا من قبل؛ لذا لم تستطع ليزا أن تفهم لماذا يهتم جراهام بهذه اللعبة. في المقابل ظل جراهام مُصرًا على موقفه؛ لذا أعطته ليزا ٢٥ دقيقة إضافية للمشاهدة. وعندما انقضت هذه الدقائق، دخل جراهام غرفة نومه، لكنه استشعر عدم رضا أمه؛ لذا توقف وقال: "ماما، هل تعرفين لماذا أردتُ مشاهدة هذه المباراة؟"

"لماذا؟"

"لأني أعرف أن أبي سيشاهد المباراة في غرفة الفندق، واكتشفت أننا لن نكون معًا الليلة، فعلى الأقل يمكننا مشاهدة نفس المباراة في نفس الوقت، وبذلك نكون كأننا معًا؛ ثم سنتكلم عن المباراة غدًا عندما يتصل بنا."

هذه هي نوعية العلاقة التي تجمعني مع ابني جراهام: نحب أن نتكلَّم عن الأشياء. أشدُّ ما يؤلمني في فكرة الموت هو إدراك أنني أريد أن أكون بجوار جراهام لأساعده على تقبُّل فكرة موتي، ولأتحدث معه عن هذا الأمر، وعن أنه أصبح الرجل الآن- لكنني لن أكون متاحًا لأتحدث إليه، وعليه أن يواجه هذا الأمر بمفرده. أتذكر حين تحدث «فرانك شافير» عن الوقت الذي اتصل فيه بأبيه، «فرانسيس»، بعد موته بوقت قصير، ولم يتذكر أن أباه لم يَعد يجيب على الهاتف إلا بعد أن رَنَّ ٤ أو ٥ مرات.

هذه الفكرة تجعلني أذرف الدموع.. وأكثر ما يحزنني بما يفوق التصور أن أفكّر أن جراهام سيواجه فقدان أبيه بينما لن أكون بجواره لأتحدث معه عن الأمر. عندما يدرك أولادي أن أباهم لم يعد متاحًا لهم بعد الآن، وعندما يفقدون وعيهم بالتاريخ -هذه "الشبكة الحياتية العلاقاتية"- لن أكون قادرًا على أن أحتضنهم عندما يبكون، لن أكون قادرًا على ترك بعض قصاصات الورق التشجيعيّة في غرفهم، لن أكون قادرًا على الصلاة معهم أو تشجيعهم. مَنْ سيفعل هذا عندما أرحل؟

لكن الإيمان يُذكرنني بأنني حتى كأب/ أم لست مركز الكون بالنسبة لأبنائي. هذا لا يعني أنني غير مهم أو حضوري غير مؤثر، لكن يعني أن حضوري ليس هو كل شيء. كَتب صديقي «چون سلون» في كتابه الرائع «طريق برنابا» (The Barnabas Way) عن فقدان أبيه عندما كان في عمر الثامنة، ويقرُّ في البداية: "شعرت أن الدنيا كلها تتفكك، وظننت أنه لن تمر عليّ ساعة فرح في حياتي. لكن الله تولى الأمر.. في تلك اللحظة ظهرت مجموعة من الرجال، واحد تلو الآخر، الذين بوقوفهم بجانبي حافظوا على تدفق الأمل في قلبي بأن الله لا يزال حيًا."[٨]

أتألم فعلاً عندما أفكّر في الفراق عن أبنائي، لكن نفس العناية الإلهية التي تسمح لي بمواجهة موت مبكر ستعطي أبنائي نعمةً لاجتياز تجربة

الموت. حتى الفراق المبكر لا يجب صباغته بالخوف، بل على النقيض يجب صبغه بالأمل والثقة والإيمان بالله.

في الواقع، هذا الاهتمام الحقيقي يمكن أن يحفزنا على إنجاز أعظم مهمة لأي أب أو أم: العمل على أن ينال أبناؤنا الخلاص. في حديث لـ «سي. چي. ماهاني» يصف فيه لماذا يسعى لإيجاد طرق جديدة في الحديث عن رسالة الخلاص مع ابنه، وبعد أن يعترف لمَنْ يسمعونه أنه لا يعرف كم سنة سيعيش يقول:

> أصلي أن أظل متاحًا لابني بينما يكبر، أصلي أن أكون جَدًّا لأبنائه. لكن حينما أفكّر في المستقبل، لا أجد أية ضمانات بأن أعيش حتى هذا اليوم. وحتى في أفضل السيناريوهات، فإن أيامي معدودة. لذا أترك الحديث عن الموت وأسأل نفسي: ما هو الهدف من حياتي؟ إن الهدف من حياتي هو أن أُعدَّ ابني ليكون مستعدًا للموت، وليس فقط لموته، بل للدينونة التي سيواجهها بعد الموت.. إن أهم دور هو أن أُعدَّ ابني لهذا اليوم عندما يقف أمام الله ويقدِّم حسابًا عن نفسه.[٩]

ولأننا نعرف أن وقت الرحيل قادم -ربما عاجلاً وليس آجلاً- يمكن لهذا أن يحافظ على تركيزنا كوالدين على الأمور التي تهم. في ذلك اليوم الأخير، لن أهتم كثيرًا بمهارات جراهام في الجولف، ولن تشغلني بطولات النادي الذي يشجعه، ولن أشعر بالانبهار لأن غرفته نظيفة دائمًا، أو أنه ينظر بثقة في عيون الكبار عندما يحييهم ويصافحهم. لكن الرائع حقًّا، والأكثر أهمية بالنسبة لي، والأكثر قيمة في نظري، هو أن يسمع إلهه يقول له: «نعمًا أيها العبد الصالح والأمين. ادخل إلى فرح سيدك!»

لذا أريد أن أصبغ كل يوم بهذا الهدف الوحيد: أن أفعل كل ما في

استطاعتي لأتأكد أن أبنائي يقبلون عطية الخلاص الإلهية، أريدهم أن يعرفوا الله الذي سيرحب بهم في الأبدية. لديّ ما يكفي من الوقت فقط لأطبع في نفوس أبنائي أهمية وخطورة هذه المهمة، ولكن أقل شيء يمكن أن يُقال إن حقيقة الموت تذكّرنا بشكل جيد بهذه المسؤولية.

كتبتُ في كتابي الأول «طَلب وَجه الله» (Seeking the Face of God) فصلاً كاملاً يوضح كيف أن كلاسيكيات الكتب المسيحية تتحدث عن أن التذكُّر الدائم لفكرة الموت يمثل واجبًا روحيًا. لقد رأوا هذا الأمر باعتباره تدريبًا روحيًا لا غنى عنه للتحلي بالتوجُّه الصحيح تجاه النمو في حياة القداسة والخدمة، وتثبيت النظر نحو الأبدية. أحد هؤلاء الكتّاب هو يوحنا الصليب، الذي كان يعيش في غرفة مليئة بالصلبان وصور الجماجم.. لم يكن يريد أن ينسى أنه زائل؛ لذا من حين لآخر كان يأكل في صحن مصنوع من جمجمة إنسان.

لا أتخيّل أن أفعل بنفسي هذا الأمر، ولكن كأب لا أحتاج أن أحيط نفسي بالجماجم لتذكرني بالموت. لكن إنجاب الأطفال، وخوفنا المصاحب لمحبتنا لشخص ما حبًا جمًا، يخدمان هذا الهدف تمامًا. إن تربية الأبناء تعمل بالتأكيد كمدرسة تتقن تشكيلنا روحيًا. هذه الرحلة رائعة، ومجهدة، ومع ذلك مشبعة من بدايتها حتى نهايتها. وبالرغم من أنه لا أحد منا يعرف مَنْ سيغادر الأرض أولاً إلى الأبدية، بمقدورنا أن نطمئن بأن الله سيكمل العمل الذي بدأه، وسيشكل النفوس التي يحبها محبة أبدية.

هدايا مقدسة

كانت «إيرين بيتشاينين» في الثالثة من عمرها عندما شخّص الأطباء حالة أمها «مارشا» بسرطان الثدي. وعندما شُخصت بنفس المرض مرة ثانية كانت إيرين في الثالثة عشرة، وتعي أكثر ما يدور حولها من أحداث.

في هذه المرة ظهر ورم جديد على الجانب الآخر من جسم مارشا. ونتيجة لخوفها بسبب أول تشخيص، اكتشف الأطباء هذا الورم مبكرًا، وعالجوه بالإشعاع بدلاً من العلاج بالكيميائي.

في المرة الأخيرة التي ظهر فيها السرطان كانت إيرين في عمر السادسة عشرة.. ظهر للأم نوع من سرطان الرئتين عادةً لا يصيب الناجين من سرطان الثدي. وخلال ٣ أشهر انتشر السرطان في كل رئتيها، وكذلك البلعوم، حتى أصاب قشرة مخها.

بشكل أو بآخر بمجرد ظهور التشخيص الثالث يبدو أن والدة إيرين عرفت أنها "سترحل" هذه المرة؛ فقد اختبرت شيئًا مختلفًا عن السرطان، وأدركت أنها لن تنجو منه.

قررت الأم أن ترحل بلياقة.. فأبعدت كل أدوات المائدة الزجاجية والفضية العادية، وأحضرت الأدوات والآنية الخزفية الثمينة والكريستال.

تتذكر ابنتها إيرين: "كان من اللطيف جدًا أن نأكل في أطباق خزفية، ونشرب العصير في أكواب من الكريستال."

ولأن مارشا كانت مُصرّة أن تقدّم لعائلاتها انتقالاً سلسًا، بدأت في عمل مخطط لجنازتها.. راجعت بيتها، وكتبت بعض المقتنيات لأشخاص معينين حتى لا يكون هناك أي شجار على مَنْ سيأخذ ماذا بعد وفاتها.

"أريد أن يذهب هذا الشيء إلى إيرين (أو كيلي أو سكوت)، وهذا بسبب كذا وكذا." تعتز إيرين بشكل خاص بالأسباب من وراء هذه التوصيات، لأنها أضفت على أشياء تبدو عادية مشاعر حقيقية.

نمت إيرين في بلدة كولورادو، وكان بها نظام دراسي حكومي "بشع"، كما تصفه. صارعت إيرين مع مستواها الدراسي، وعندما خططت أمها

وأبوها لزيارة مدير المدرسة والمدرسين، نالت مارشا توبيخًا، وقيل لها: "انظري مدام مارشا، إيرين لا تتعاطى المخدرات، وليست حُبلى، ما الذي تقلقين بشأنه؟"

هذا كل ما أرادت مارشا أن تسمعه، وقالت: "إيرين لن ترجع"، وألحقتها على الفور بمدرسة داخلية.. وهذا ما يفسِّر لماذا كانت إيرين بعيدة عن المنزل عندما عرفت مارشا تشخيصها الثالث. وانتظر والداها حتى تعود إلى البيت من المدرسة، ثم أخبراها أن السرطان عاد من جديد.

في ذلك الصيف تزوج اثنان من أبناء مارشا. وشعرت بالحزن الشديد عندما أخبرها الأطباء بأن حالتها لا تسمح بحضور زفاف ابنها؛ فقد كان عليها السفر بالطيران لتصل إليه، وأخبرها الأطباء أنها لن تحتمل ذلك بأي شكل.

سافر بقية أفراد العائلة لهذا الاحتفال باستثناء مارشا ووالد إيرين «ليو». تخيلوا فرحة الأبناء عندما عرفوا من خلال اتصال تليفوني أن ليو ووالده قررا أن يستأجرا طائرة خاصة. لقد كانت مارشا امرأة عنيدة.. بصرف النظر عما يقوله الأطباء أو غيرهم، ستحضر زفاف ابنها.

وفي أثناء عودتها من الزفاف، قام والدا إيرين بتوصيلها إلى المدرسة، لكنها كانت مترددة، وأرادت أن تبقى معهما. فقد اشتد المرض على أمها، لذا خافت أن تتركها؛ لكنها عرفت أن هذا ما ينبغي عليها فعله.

بعد أسبوعين من العام الدراسي، اتصلت إيرين بالبيت وانفجرت في البكاء عندما أجابها والدها.

وقالت وهي تبكي: "أريد أن أرجع إلى البيت في نهاية هذا الأسبوع."

أدرك والد إيرين بتفكيره العملي أن إيرين لديها بالفعل تذكرة طيران

لترجع إلى البيت بعد أسبوعين. قال: "لابد أنكِ تمزحين. إيرين ستكونين بخير." لكن إيرين لم تكن بخير، بل كانت ترتجف، وتصيح، وتتنفس بسرعة، وكانت وهي تصرخ وتقول: "أريد فقط أن أرجع إلى البيت في نهاية هذا الأسبوع!"

"يا إيرين أعلم أنه من الصعب عليكِ أن تكوني بعيدة عنا، لكن يجب أن تكوني في المدرسة." شعرت إيرين بالغضب الشديد؛ حتى أنها أغلقت الهاتف في وجهه، ثم اتصلت بأختها: "كيلي، أريد أن أرجع إلى البيت. من فضلك اتصلي بـ «بوب» وقولي له أنا أحتاج أن أعود إلى البيت."

تكلمت كيلي بنفس أسلوب أبيها: "إيرين، ماذا بكِ؟ سترجعين بالفعل بعد أسبوعين!" أغلقت إيرين التليفون في وجهها، واتصلت بالبيت مرة ثانية. هذه المرة وافق أبوها أن تتحدث مارشا معها. قالت مارشا بصوت ضعيف ومُجهد: "نعم، أحب أن تعودي إلى البيت."

هذا كل ما أراد والد إيرين أن يسمعه، ثم قال لها: "سأتصل بالمطار، وستجدين تذكرتك في انتظاركِ لدى مكتب شركة الطيران."

حزمت إيرين حقائبها، وأخذت التاكسي إلى المطار، وسافرت إلى البيت، وقضت نهاية الأسبوع بأكملها بجوار والدتها. في هذه المرحلة كان السرطان قد انتشر ووصل إلى المريء، مما تسبب في حدوث نوبات شديدة من السعال؛ مما أفزع إيرين أكثر من أي شيء آخر، لأنه بدا في بعض الأحيان أن والدتها لن تخرج من هذه النوبات أبدًا.

في يوم الأحد، وقبل ساعات قليلة من رحيل إيرين كما هو مقرر لها، دخلت أمها في أسوأ نوبة من السعال، وكان كلاهما فقط في البيت.

تتذكر إيرين: "كانت أكثر اللحظات رعبًا في حياتي؛ فقد ظننتُ أنها ستموت."

توقفت النوبة، وشربت مارشا بعض الماء، ورجع والد إيرين إلى البيت بعد ٢٠ دقيقة ليجد ابنته العنيدة تقول له: "لن أسافر."

أجابها: "إيرين، لا يمكنك فعل ذلك. هذه السنة الأخيرة لكِ، ولابد أن تلتحقي بالجامعة. يجب أن ترجعي لمدرستكِ."

"مستحيل.. لن أرجع."

بدأ والد إيرين يعترض مرة ثانية، لكن المشاجرات كلها توقفت عندما أمسكت مارشا بيد زوجها ويد ابنتها وقالت: "لا أريد أن تذهب إيرين."

ماتت مارشا في اليوم التالي صباحًا.

لاتزال إيرين تزرف الدموع كلما تذكرت هذا: "كانت ماما تعرف –وكان الله يعرف، وقد أخبرني بشكل أو بآخر أنه يجب أن أكون بجوارها."

وبالرغم أنها رأت اثنين من أبنائها وهما يتزوجان في الصيف السابق لوفاتها، لكنها عرفت أنها ستغيب عن بعض من أهم الأحداث والمحطات في حياة ابنتها. هذا هو الشيء المؤلم.. الرغبة في أن تكون جزءًا من تلك اللحظات الفارقة التي يعتبرها معظمنا أنها أمور مُسَلَّم بها. ولأن مارشا واجهت هذه الحقيقة المحزنة وجهًا لوجه، فقد كانت مُبدعة جدًا قبل وفاتها. بدون أن تخبر أبناءها، أحضرت هدايا كثيرة، ولفتها، وتركتها في الخزانة حيث كانت تعرف أن زوجها سيجد هذه الهدايا بعد وفاتها.

لهذا السبب أدمعت عينا إيرين في عيد ميلادها الثامن عشر عندما أدركت خط الكتابة المألوف لها على هدية ملفوفة بشكل جميل: **إلى إيرين في عيد ميلادها الثامن عشر.**

لم تصدق إيرين هذا.. آخر شيء توقعته في هذا اليوم أن تحصل على هدية من أمها، لكنها فتحت العُلبة بشغف لتجد خاتم زواج أمها. كانت

مارشا قد نزعت قطعة الألماس (ووضعتها في خاتم لزوجها)، واستبدلتها بحجر كريم لونه أزرق. تأثرت إيرين جدًا لأن أمها وجدت طريقة لتبقى موجودة في هذه المناسبة الخاصة. وحتى إذا لم تعد موجودة بالجسد، لكنها ظلت روحيًا صاحبة تأثير هائل في حياة ابنتها.

بعد عدة سنوات تخرجت إيرين من الجامعة. وفي الليلة السابقة لأول يوم عمل، قدّم لها والدها عُلبة أخرى مكتوب عليها أيضًا بالخط المألوف لها.. هذه الهدية كانت ساعة اليد الخاصة بمارشا.

تقول إيرين: "هذه الهدية كانت قوية جدًا، لأني كنتُ أتساءل عن بعض الأشياء وأين ذهبت.. أشياء خاصة جدًا بأمي، وأشياء كنت أراها ترتديها كل يوم. كانت أمي ملكة الإكسسوارات؛ لذا تساءلت كثيرًا ماذا حدث لهذه الأشياء؟! هذه الساعة كانت هدية حصلت عليها في عيد زواجها الخمسين، وهي من ماركة روليكس، ومن الأناقة أن أرى هذه الساعة في يدي. هي تُذكرني بأمي؛ لذا أرتديها كل يوم."

مرت سنوات أكثر حتى قابلت إيرين فارس أحلامها، تعرفا على أحدهما الآخر، ثم تمت خطبتهما. وبينما كانت تجهز ليوم زفافها شعرت إيرين أنها تفتقد والدتها أكثر من أي وقت مضى. كل شابة صغيرة تريد أن تكون أمها معها وهي تخطط لزفافها؛ فلا يكون عليها أن تفعل كل شيء بمفردها. تعترف إيرين أنها شعرت بقليل من الأسف على نفسها، لكنها بالأكثر كانت مفتقدة لوجود أمها معها في مثل هذه المناسبة الهامة.

وبينما كانت إيرين تتهيأ وترتدي فستان الفرح، وتتحدث إلى وصيفاتها، قرع والدها على الباب؛ فقد طلبت منه المجيء ليضع بعض اللمسات الأخيرة. وعندما دخل والدها الغرفة، كان معه عُلبة كلاسيكية أخرى.

أدركت إيرين على الفور أنها هدية أخرى من والدتها؛ فأخذت برفق

الهدية من يدي أبيها مرة أخرى، وكان عليها الخط المألوف، لكن هذه المرة مكتوب: **إلى إيرين في يوم زفافها.**

فتحت إيرين العُلبة، وشهقت عندما رأت الحلق الألماس الذي كان يضوي في وجهها. وعندما ارتدته، شعرت أنه كما لو كانت أمها تحتضنها حضنًا دافئًا، أو تأخذ رأسها بين يديها الناعمتين. ارتدت إيرين هذا الحلق بينما كانت تتقدم بين الحضور في الكنيسة، وبالرغم أن الأفكار الخاصة بمستقبلها والرجل الذي ينتظرها تسارعت بغزارة إلى رأسها، لكنها تذكرت أيضًا الأم التي وهبتها نعمة الحياة.

لقد وجدت الأم طريقة ما لتكون حاضرة في زفاف ابنتها.

لا تعرف إيرين هل هناك هدايا أخرى تنتظرها أم لا؛ فلن يقول لها أبوها، بالرغم أنه أخبرها عندما سلَّم لها هدية الزفاف أنها "واحدة من الهدايا الأخيرة". لا تعرف إيرين هل هذه واحدة من الهدايا الأخيرة الخاصة بالجميع- بمعنى أنه قد نفذت تلك المخصصة لها، أم أنها واحدة من الهدايا الأخيرة الخاصة بها وحدها.

أخبرتني إيرين: "أكثر من أي شيء آخر، أحمد الله لأنه أعدها.. من المستحيل أنها كانت ستنجز ما أنجزته بدون الرب. أؤمن أن الله أرشدها كثيرًا في ذلك."

"كل الهدايا تمثل وسائل رائعة لتذكيرنا، لكني أحمد الله من أجلها ولشخصها الرائع الذي أراه."

أما أنا ككاتب، فصححتُ لإيرين خطأً لغويًا، وقلت لها إنها استخدمت المضارع وليس الماضي عند الإشارة لوالدتها.

تعترف إيرين: "من المؤكد أنني لازلتُ أشعر بتوجيهها ليّ الآن. كثيرًا ما أفكّر فيها- تُرى كيف كانت ستتصرف أمي، ماذا كانت ستقول، ما

الذي كان سيجعلها فخورة؟ لا أفكر أنها لاتزال موجودة هنا، لكني أشعر كما لو أنها تنظر إليّ من بعيد."

وإذ تتقدّم إيرين في العمر -نسبيًا، لأنها لاتزال في العشرينات من عمرها وأنا أكتب صفحات هذا الكتاب- فإن صديقات وأقرباء أمها كثيرًا ما يتعجبون من التشابه بين إيرين وأمها. "إنهم يندهشون جدًا لأننا نبدو متشابهتان، لكن هناك ما هو أكثر من ذلك.. يقولون إنها نفس نبرة الصوت، نفس الحب تجاه الرب، نفس الأسلوب في السلوكيات. لقد غيرني الرب بشكل كامل. وبالتأكيد تمثل أمي جزءًا من كينونتي. بدون شك لقد ساهمت في تشكيل شخصيتي التي أصبحتُ عليها الآن."

تخبرنا قصة إيرين أننا لا نترك أبناءنا أبدًا، نحن فقط نقول وداعًا إلى حين. وبالرغم أننا لابد أن نفارقهم بالجسد، لكننا نظل -بكل ما تحمله الكلمة من معنى- جزءًا منهم. أحيانًا تكون هدايا، وفي أحيان أخرى ذكريات، لكن على الأقل چيناتنا ولون بشرتنا.

ليس لدينا أية ضمانات.. قد نموت، أو يموت أبناؤنا، أو قد يتمرد صغارنا علينا ويتجنبوننا. ليس لدينا السيطرة الكاملة على مجريات الأمور، لكن بإمكاننا أن نترك أثرًا عميقًا. لكن حتى هذا لا يساوي أبدًا سيرنا مع إله نستطيع أن نثق فيه، إله يرشدنا إلى مكان -ويقدّم لنا دعوة إلى هذا المكان- حيث لا يوجد هناك فراق بعد.

هذا بالحقيقة هو جوهر التربية المقدسة: أن نتعلم أن نرتاح ونثق ونؤمن بالله بينما نوجّه أبناءنا إلى الملاذ الأخير.

"هؤلاء الصغار قد يعطلون مسيرتي المهنية، لكنهم يربطونني بثبات بنفسي وبالله القدير وبالحاضر وبالأبد... هؤلاء الأبناء الذين يتلوون قد استحوذوا عليّ في لحظة وجيزة هي الآن، لكنهم جذبوني في النهاية نحو السلام الذي كنت أبحث عنه قبلاً باستماتة."

– إيريس كراسناو

خاتمة

استلم مكافأتك!

عندما أصبحت ليزا أمًا لأول مرة، كتبتُ قصة قصيرة لأشجعها، وأسميتُ هذه القصة "البقع البيضاء" (White Spots)، لكن لم أجد أية مجلة مستعدة لنشرها. ولازلت أرى أن مغزى هذه القصة في غاية الأهمية- وهذا ربما يفسِّر لماذا لم تنجح كقصة.

"البقع البيضاء" تشير إلى الدليل المادي لرضاعة ليزا، التي جعلت بقعًا بيضاء في معظم أقمصتها، وكانت تحتاج إلى غسيل مستمر. كان طفلنا الأول يكشط اللبن كثيرًا.. لو كانت ليزا ستغيِّر قميصها في كل مرة يكشط عليها الرضيع، فربما ما كانت لتجد واحدة نظيفة خلال ست ساعات. بمرور الوقت تراكم الإحباط والإحراج داخل نفس ليزا بسبب أنها أصبحت ترتدي ملابس كما لو كانت غير مصبوغة جيدًا.

كانت ليزا، مثل معظم الأمهات الشابات، تعاني من صعوبة التأقلم على هذا التغيير في نمط حياتها. فمنذ سنوات قليلة، قبل هذا الوقت، كانت (كما تصفها ثقافتنا) في "زهرة شبابها"، وفي أحسن حالاتها، وتتمرن

في الچيم، وتفعل كل ما تريده في الإجازة الأسبوعية، وتستمتع كثيرًا بوقتها. وبعد أن تزوجت، وصارت أمًا، أصبحت تمكث في البيت مع طفل، وتحاول أن تستعيد رشاقتها، ويغطيها اللبن الراجع من فم الرضيع، وغير قادرة على فعل أي شيء إلا بعد استئجار جليسة أطفال.

في القصة تشعر الأم الشابة بالدهشة الكبيرة عندما تكتشف أن إدخالها لهذا الابن في العالم هو ذاته عملٌ يوقره الرب يسوع جدًا في الدينونة:

«لأني جعت فأطعمتموني. عطشتُ فسقيتموني. كنتُ غريبًا فآويتموني. عُريانًا فسكوتموني. مريضًا فزرتموني.»

(متى ٢٥: ٣٥ و٣٦)

مَنْ يجوع أكثر من رضيع قام للتو من النوم ويبحث بشغف عن ثدي أمه؟ مَنْ أكثر عُريًا من طفل وُلد للتو؟ مَنْ أكثر غربة من رضيع جاء إلى العالم لا يعرف أحدًا؟ مَنْ يمرض أكثر من صغير يسهل إصابته بعدوى في أذنه، والتهاب المؤخرة من الحفاضات، والمغص؟

عندما تأتي الأم بطفل إلى العالم، وتُرضعه، وتوفر له الملبس والمأكل، وتحتضنه عندما يتوجع (على الأقل مع الطفل الأول تغلي "السكاتة" كلما وقعت على الأرض، وتجري به إلى غرفة الطوارئ عندما تصل حرارته إلى ٤٠ درجة مئوية)؛ فهي تفعل بالضبط ما يخبرنا المسيح أننا سنكافأ عنه في السماء.

ربما يسأل أحدهم: "كيف يمكن للاعتناء بطفلك أن يمنحك مكافأة سماوية؟ من المؤكد أن الرب يسوع لم يقصد هذا، أليس كذلك؟"

مَنْ يسألون هذا السؤال لا يفهمون أن الأطفال الذين نربيهم هم في النهاية ليسوا ملكنا. الله يخلق كل طفل، ولديه حبٌ وعشق لكل صبي

وكل فتاة لدرجة أنه لا يفوته أية مناسبة خاصة بهم في حياتهم: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (متى ٢٥: ٤٠).

إن فهم تمتع الله بخليقته هو أحد أعمق الاختبارات الروحية التي سنختبرها. لقد اصطحبت ابني وصديقه المقرب إلى كاليفورنيا للاحتفال بعيد ميلاده الثاني عشر ليقضي هناك ثلاثة أيام وزيارة عدد من الملاهي. وبفضل بعض العروض على التذاكر والفنادق، لم تكن الرحلة مُكلفة بشكل كبير. ولكن مع ذلك فتكلفتها جعلتني أفكر مرتين. في أحد الأيام حين كنتُ أتأمل في هذه التكلفة، فكرت كم سيفرح الله لما سيختبره ابني وصديقه في هذه الرحلة. الصبي الذي كان سيسافر معنا لديه أحلام بأن يصبح طيارًا، لكنه لم يسافر من قبل على طائرة ركاب ضخمة، وبدا الأمر كأن الله ينقل لي فرحته وتشوقه لما سيختبره ابني بصحبة صديقه هذا.. كان الله فرحًا بهذه الرحلة.

كان إحساسًا غريبًا وطريفًا، وبالقطع أثَّر على نظرتي للأطفال، وبالأخص فيما يتعلق باهتمام الله المستمر بهم وشغفه بهم. في كل مرة نجعلهم يفرحون، فنحن نرسم ابتسامة على وجه الله. وفي كل مرة ننتهك براءتهم، نربح عدوًا شرسًا: «مَنْ أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يُعلَّق في عنقه حجر الرحى ويُغرق في لجة البحر» (متى ١٨: ٦).

أيها الآباء والأمهات عندما تعطون رضيعكما الصغير حمامًا، فأنتم تغسلون طفل الله. توقف للحظات في يومك المزدحم وتطلع إلى السماء.. عندما تجهز وجبة لذيذة لطفل عمره ست سنوات، أنت تُغذي أحد أطفال الله. أصغِ بعناية– فربما تسمع الله يضحك راضيًا. عندما تحضن مراهقًا يهزأ به أقرانه بلا رحمة في المدرسة، فأنت تريح مراهق الله. هل تشعر بحزن الله عندما تبلل دموع هذا المراهق كتفيك؟

من خلال هذا الحب والاعتناء، أنت تُفرح قلب الله جدًا. وفي هذه اللحظة بالذات تصبح أنت عنايته وتعزيته واهتمامه. تعلَّم السباحة في هذه الفرحة، ولن تنظر للتربية بنفس المنظور فيما بعد.

ربما كنتِ سترفضين هذا الطفل، وربما كنتِ سترفضين طلباته التي تأخذ من وقتكِ وإمكانياتكِ وسلامتكِ النفسية؛ لكنكِ قبلتِ هذا الطفل، وبألم كبير ولدتِه. وأبوكِ السماوي لا يغفل لحظة عن هذه التضحية؛ فهو يرى كل شيء.. هو يبكي معكِ، ويضحك معكِ، ويتمتع بفرح عظيم تجاه العمل الجيد الذي تقومين به.

عندما أرى الأطفال في الأماكن العامة، أحاول التلامس مع شغف الله بهم. أحيانًا أصلي من أجلهم. وإذا جلست بجوارهم في الطائرة، أتحدث معهم، وأحاول أن أخفف بعض العبء عن والديهم، لأني أعرف أن السفر مع الأطفال ليس سهلاً. في إحدى المرات كنتُ مسافرًا إلى سياتل، وجلست بجوار عائلة خفيفة الظل، ولديهم ابنة صغيرة اجتماعية للغاية، مع أخيها الصغير المؤدب الذي يبلغ من العمر سنة ونصف تقريبًا. مع اقتراب نهاية الرحلة كان الصغيران يقفزان فوقي لأني كنتُ جالسًا بجوار النافذة، وكنا نعبر على قمم جبلية رائعة الجمال، فأرادا بالطبع مشاهدة الجبال. وبمجرد أن هبطت الطائرة، نظرت إليّ الصبية وقالت: "أتمنى أن أراك ثانية."

أجبتُ: "وأنا أيضًا." وأدركت أن الله لن يتأخر أبدًا عن حماية ومحبة ورعاية هذه الطفلة وإحضاره له- بهذا المعنى أحببت هذه الفتاة جدًا.

وسواء كنا آباء وأمهات أو لا، فلدينا فرصة مذهلة للمشاركة في مشاعر الله تجاه الأطفال. أنا متأكد أن الله حاضر في الكنيسة؛ ويسوع يقول أيضًا إنه حين يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه، فهو يوجد

معهم (راجع متى ١٨: ٢٠)، لكن إذا أردنا حقًا أن نعيش في محضر الله، فربما نحتاج أن نخرج إلى ملعب للأطفال، أو أحد فصول مدارس الأحد، أو الروضة.

من المستحيل أن الله يفوته ما يحدث في هذه الأماكن.

دعوة مقدَّسة

منذ ما يقرب من عشر سنوات، كنت أسافر إلى عملي على الطرق السريعة خارج واشنطن العاصمة. وكان عليَّ أن أغادر المنزل في الخامسة والنصف صباحًا أو قبل ذلك. وإذا غادرت في السادسة إلا ربع، أستغرق ثلاثين دقيقة إضافية لأصل إلى مكتبي. وإذا غادرت بعد أن تبلغ السادسة صباحًا، فربما لن أصل إلى العمل قبل الغذاء.

في صباح أحد الأيام توقفت لبعض اللحظات قبل أن أغادر للعمل. في المعتاد كنت أندفع من الباب، لكن في هذا اليوم انتابني شعور بأن عملاً معجزيًا يحدث.

رجعت إلى البيت، وصعدت السلم، وراجعت غرف الأطفال.. اثنان منهم كانا قد تركا سريرهما. ثم عدتُ إلى غرفة النوم الكبيرة، ورأيتُ ليزا نامت سريعًا، وذراعها حول كيلسي الصغيرة، التي كانت أنفها الصغيرة (كانت لاتزال رضيعة وقتها) تتحرك برقة مع كل نفس. أما جراهام (٣ سنوات) فقد أوجد مكانًا لنفسه بالقرب من نهاية السرير، مما جعلهم يبدون كقطع "البازل". كانوا ينامون في سلام ورضا، وكانت آليسون في عالم آخر ترقد بداخل أغطيتها كعادتها.

توجد قدسية خاصة في الساعات الأولى الهادئة من الصباح -عندما يصبح البيت البسيط، صغيرًا كان أو كبيرًا، هيكلاً أو كاتدرائية. الهدوء يعيد إلى عقلي سلام الله وحضوره. وبالرغم أن اليوم قد يعج بالضحك

-وفي أحيان أخرى بالدموع- فلا شيء يتحدث بوضوح لي أكثر من هدوء الصباح الباكر.

في النهاية خرجت إلى الظلام، شاعرًا بالرضا على غير العادة.. شعرت في نفسي بالامتلاء والشبع. ربما يعيب عليَّ أنصار الحركات النسائية، لكن لا توجد مشاعر أفضل لدى الرجل عن الذهاب إلى العمل بينما عائلته تنام في حالة من الرضا. شيء يخبرك أنه هكذا يُفترض أن تسير الأمور. أبي فعل ذلك، جدي فعل ذلك، وجده الأكبر فعل هذا أيضًا.

بجسدي كنتُ أجلس في سيارتي في الطريق إلى العمل، لكني روحيًا كنتُ أجلس في حِجر الله، وأتمتع بشعور بالسلام يملأ الله به قلبي. كانت الشمس بالكاد تظهر في الأفق، لكن أثناء القيادة عبر الظلام أدركت أنني حصلتُ على لمحة مضيئة عن معنى التربية المقدَّسة.. شعرت بالحماس لمقابلة أية تحديات تعترضني في هذه الرحلة العجيبة والمدهشة.

لم تتوقف التحديات، ومازلت أتعلَّم. لكني أعرف شيئًا واحدًا: التربية دعوة مقدَّسة.

الحواشي

الفصل الأول: الله أبي

(١) ومع ذلك من اللافت أنه في نفس الآية يضيف الرسول بولس قوله: «كونوا أولادًا في الشر، وأما في الأذهان فكونوا كاملين.»

(2) Rachel Cusk, *A Life's Work: On Becoming a Mother* (New York: Picador, 2002), 8.

(3) Cited in Rick Reilly, *Who's Your Caddy?: Looping for the Great, the Near Great and Reprobates of Golf* (New York: Doubleday, 2003), 59.

الفصل الثاني: أصعب ألم على الإطلاق

(1) David McCullough, *John Adams* (New York: Simon and Schuster, 2001), 226.

(2) Rick Reilly, "The Weak Shall Inherit the Gym," *Sports Illustrated* (14 May 2001), 96.

(3) Cited in Marilee Jones, "Parents get too aggressive on admissions," *USA Today* (6 January 2003), D1.

(4) Jim Schmotzer, personal communication.

(5) David Brooks, "The Organization Kid," *Atlantic Monthly* (April 2001), 43.

(6) Brooks, "The Organization Kid," 44.

(7) Brooks, "The Organization Kid," 54.

(8) You can order this tape (and many others) online by logging on to www.sovereigngraceministries.org.

(9) Gary Thomas, *Sacred Marriage* (Grand Rapids: Zondervan, 2000), 237.

(١٠) نعم أدرك أن الآية تقول حرفيًا: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» (متى ٢٧: ٤٦)، لكني سمحت لنفسي إن جاز التعبير حتى أوضح فكرتي هنا. أيًا ما كانت الألقاب التي اختارها يسوع لينادي بها أبيه، فإن كلمات "لماذا تركتني؟" هي التي تؤلم حقًا.

(11) Cited in Rabbi Nancy Fuchs-Kreimer, *Parenting as a Spiritual Journey: Deepening Ordinary and Extraordinary Events into Sacred Occasions* (Woodstock, Vt.: Jewish Lights, 1998), 162–63.

الفصل الثالث: الذَّنْب المُغلَّف بالذَّهب

(1) See Rabbi Nancy Fuchs-Kreimer, *Parenting as a Spiritual Journey: Deepening Ordinary and Extraordinary Events into Sacred Occasions* (Woodstock, Vt.: Jewish Lights, 1998), 115.

(2) Lisa Belkin, *Life's Work: Confessions of an Unbalanced Mom* (New York: Simon and Schuster, 2002), 119.

(3) Belkin, *Life's Work*, 120.

(4) Cited in Merrell Noden, "Marty Liquori, Dream Miler," *Sports Illustrated* (5 June 2000), 18.

(5) I was privileged to read an early draft of Carolyn's book *Feminine Appeal: Seven Virtues of a Godly Wife and Mother* (Wheaton, Ill.: Crossway, 2003), in which she makes this observation.

(٦) بالنسبة لهذه القصة أنا مدين للدكتور روبرت ستون الذي استخدمها في عظة قدمها إلى الأعضاء والضيوف في كنيسة Hillcrest في بيلنجهام، واشنطون، في ١٣ أكتوبر عام ٢٠٠٢.

الفصل الرابع: ضبط الموجة على السماء

(1) Cited in Dennis Rainey, *Ministering to Twenty-First Century Families* (Nashville: Word, 2001), 216.

(2) Frank Buchman, *The Revolutionary Path* (London: Grosvenor, 1975), 2–3, emphasis added.

(3) Buchman, *The Revolutionary Path*, 5.

(4) Gordon Smith, *On the Way: A Guide to Christian Spirituality* (Colorado Springs: NavPress, 2001), 72.

(5) Cited in Peter Howard, *Frank Buchman's Secret* (London: William Heinemann, 1961), 13.

الفصل الخامس: الفرح!

(1) Cited in Rick Reilly, "The Gold Standard," *Sports Illustrated* (4 March 2002), 88.

(2) Account taken from Reilly, "The Gold Standard," 88.

(3) Carol Lynn Pearson, *On the Seesaw: The Ups and Downs of a Single-Parent Family* (New York: Random House, 1988), 4–5.

(4) Cited in Elton Trueblood, *The Humor of Christ* (New York: Harper and Row, 1964), 22.

(5) Barna Research Group, "Surprisingly Few Adults Outside of Christianity Have

Positive Views of Christians"; view at Barna Research Online (www.barna.org/cgi-bin/PagePressRelease.asp?PressReleaseID=127&Reference=F).

(6) Cited in Trueblood, *The Humor of Christ*, 23–25.

(7) Cited in John and Susan Yates, *What Really Matters at Home: Eight Crucial Elements for Building Character in Your Family* (Dallas: Word, 1992), 141.

(8) Trueblood, *The Humor of Christ*, 32.

(9) C.J.'s tape is entitled "Gospel-Centered Parenting." Carolyn and the girls can be heard on "Mothers and Daughters." These tapes are available through www.sovereigngraceministries.org

الفصل السادس: الانكشاف البغيض

(1) Cited in Albert Kim and Mark Mravic, "The Beat," *Sports Illustrated* (11 June 2001), 40.

(2) Iris Krasnow, *Surrendering to Motherhood: Losing Your Mind, Finding Your Soul* (New York: Hyperion, 1997), 149.

(3) Dennis Rainey, *Ministering to Twenty-First Century Families* (Nashville: Word, 2001), 223.

(4) Cited in Cal Fussman, "Al Pacino—the Legend," *Esquire* (July 2002), 48.

الفصل السابع: الحب الملتهب

(1) Augustine, "Enchiridion," vol. 3 of *A Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, ed. Philip Schaff (Grand Rapids: Eerdmans, 1998 reprint), 249.

(2) Rachel Cusk, *A Life's Work: On Becoming a Mother* (New York: Picador, 2002), 79.

(3) Cusk, *A Life's Work*, 79–80.

(4) Cusk, *A Life's Work*, 80.

(5) C. S. Lewis, *Reflections on the Psalms* (New York: Harcourt, Brace and World, 1958), 30.

(6) Lewis, *Reflections on the Psalms*, 31–32.

(7) Hans-Cristoph Hahn, "Anger," *The New International Dictionary of New Testament Theology*, vol. 1, ed. Colin Brown (Grand Rapids: Zondervan, 1975), 109.

(8) See Duane Miller, *Out of the Silence: A Personal Testimony of God's Healing Power* (Nashville: Nelson, 1996).

(9) Dan Allender and Tremper Longman III, *Cry of the Soul* (Colorado Springs: NavPress, 1994), 74.

(10) Joy Davidman, *Smoke on the Mountain* (Philadelphia: Westminster, 1974), 67–68.

الفصل الثامن: المجد المستتر وراء التعب

(1) Rabbi Nancy Fuchs-Kreimer, *Parenting as a Spiritual Journey: Deepening Ordinary and Extraordinary Events into Sacred Occasions* (Woodstock, Vt.: Jewish Lights, 1998), 26.

(2) Rachel Cusk, *A Life's Work: On Becoming a Mother* (New York: Picador, 2002), 69–70.

(3) Cusk, *A Life's Work*, 70–71.

(5) Iris Krasnow, *Surrendering to Motherhood: Losing Your Mind, Finding Your Soul* (New York: Hyperion, 1997), 74–75.

(6) See Patrick Carnes, *Out of the Shadows: Understanding Sexual Addiction*, 3d ed. (Center City, Minn.: Hazelden, 2001), 87.

(7) Carnes, *Out of the Shadows*, 88.

(8) Krasnow, *Surrendering to Motherhood*, 86–87.

الفصل التاسع: الجانب الشائك من التربية: عطاء الأبناء المزعجين

(1) Cited in David McCullough, *John Adams* (New York: Simon and Schuster, 2001), 548.

(2) Cited in McCullough, *John Adams*, 634.

(3) Cited in Elton Trueblood, *The Recovery of Family Life* (New York: Harper Brothers, 1953), 50.

(4) Trueblood, *The Recovery of Family Life*, 50–51.

(5) Trueblood, *The Recovery of Family Life*, 56–57.

(6) One form of the story is cited in Rabbi Nancy Fuchs-Kreimer, *Parenting as a Spiritual Journey: Deepening Ordinary and Extraordinary Events into Sacred Occasions* (Woodstock, Vt.: Jewish Lights, 1998), 59.

الفصل العاشر: إصحاح مُمل (قد يغيِّر حياتك إلى الأبد)

(1) Account taken from Richard Wheeler, *Iwo* (New York: Lippincott and Crowell, 1980), 79.

(2) Cited in Terrence Rafferty, "The Evil Do-Gooder," *GQ* (June 2002), 83.

(3) Rabbi Nancy Fuchs-Kreimer, *Parenting as a Spiritual Journey: Deepening Ordinary and Extraordinary Events into Sacred Occasions* (Woodstock, Vt.: Jewish Lights, 1998), 10.

الفصل الحادي عشر: نحن ماكينات طباعة

(1) George Gilder, *Men and Marriage* (Gretna, La.: Pelican, 1986), 192.

(2) Gilder, *Men and Marriage*, 192–93.

(3) Cited in Ivan Solotaroff, "Pride of the Confederacy," *GQ* (October 2002), 279.

(4) See Patrick Carnes, *Out of the Shadows: Understanding Sexual Addiction*, 3d ed. (Center City, Minn.: Hazelden, 2001), 5.

(5) Carnes, *Out of the Shadows*, xviii.

(6) Carnes, *Out of the Shadows*, 5.

(7) Cited in John Stott, *Guard the Gospel* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1973), 27.

الفصل الثاني عشر: التضحية

(1) Jeremy Schaap, "A Father's Gift," *Sports Illustrated* (7 January 2002), 28.

(2) Rachel Cusk, *A Life's Work: On Becoming a Mother* (New York: Picador, 2002), 29–30.

(3) Cusk, *A Life's Work*, 30.

(4) Elton Trueblood, *The Recovery of Family Life* (New York: Harper Brothers, 1953), 92.

(5) Cited in David McCullough, *John Adams* (New York: Simon and Schuster, 2001), 236–37.

(6) Quoted in Dan Rafael, "Full Force Tyson . . . ," *USA Today* (18 October 2000), 2C.

(7) See "Spending Time with Tyson," *Sports Illustrated* (20 May 2002), 38.

(8) Iris Krasnow, *Surrendering to Motherhood: Losing Your Mind, Finding Your Soul* (New York: Hyperion, 1997), 166–67.

(9) Trueblood, *The Recovery of Family Life*, 30.

(10) Cusk, *A Life's Work*, 65.

(11) Thomas Kelly, *A Testament of Devotion* (New York: Harper and Brothers, 1941; rereleased 1992 by HarperCollins), 75, emphasis added.

(12) Kelly, *A Testament of Devotion*, 75.

(13) Francis de Sales, *Thy Will Be Done: Letters to Persons in the World* (Manchester, N.H.: Sophia Institute Press, 1995), 60.

(14) De Sales, *Thy Will Be Done*, 86–87.

(15) Cusk, *A Life's Work*, 41.

(16) See C. S. Lewis, *The Lion, the Witch and the Wardrobe* (New York: HarperCollins, 1994 reprint), 154–55.

(17) This story is based on a column written by Rick Reilly, "'Twas the Fight before Christmas," *Sports Illustrated* (27 December 1999), 144.

الفصل الثالث عشر: الفراق

(1) Rachel Cusk, *A Life's Work: On Becoming a Mother* (New York: Picador, 2002), 107–8.

(2) Evelyn and James Whitehead, *Marrying Well: Possibilities in Christian Marriage Today* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1981), 243–44.

(3) Cathy Carpenter, unpublished manuscript, 74 (shared in a personal communication).

(4) Cited in Bob Greene, "A Father's Farewell to His Dearest Friend," in *Chevrolet Summers, Dairy Queen Nights* (New York: Viking, 1997), 243–45.

(5) Cited in Greg Barrett, "A Child's Death Leaves an Unfillable Void," *USA Today* (1 August 2001), 10D.

(6) Barrett, "A Child's Death Leaves an Unfillable Void."

(٧) حتى أكون أمينًا، حصلت على هذه الفكرة من صديقي الطيب باول بيترسون.

(8) John Sloan, *The Barnabas Way* (Colorado Springs: WaterBrook, 2002), 7–8.

(9) C.J. Mahaney, "Gospel Centered Parenting, part 2: The Imperative of Instruction," available on CD through Sovereign Grace Ministries at www.sovereigngraceministries.org.

التربية مدرسة للتشكيل الروحي..
وأبناؤنا هم المعلَّمون!

من بين كل خبرات الحياة، فإن رحلة تربية الأبناء، وتدريبهم على مهارات الحياة تُحدث فينا كوالدين تحولاً عميقًا لا يمحوه الزمن.

هذا الكتاب يختلف عن الكثير من الكتب التي تتناول موضوع التربية، فهو ليس كتابًا يخبرك عن كيف تربي أبناءك، أو كيف تخرج بالحب والتأديب كل القدرات الكامنة فيهم.. «التربية المقدَّسة» للكاتب المعروف جاري توماس لا يناقش كيف يغير الآباء والأمهات أبناءهم، بل يبدِّل الأماكن ليشرح كيف يستخدم الله تربية الأبناء ليغير حياة الوالدين.

إذا كنت قد قرأت كل الكتب التي تتحدث عن أساليب التربية، قد تحتاج الآن أن تتوقف قليلاً لتستمد إلهامًا مشجعًا جديدًا بينما تقرأ كيف تَعامل آباء وأمهات آخرون مع تحديات وصعوبات عملية التربية، وكيف ساهم أبناؤهم في تعميق علاقتهم مع الله. كتاب «التربية المقدَّسة» يؤكد على القيمة الروحية للتربية، ويُظهر لك قدسية العلاقة بين الوالدين والأبناء.

جاري توماس ألَّف عدّة كتب باللغة الإنجليزيّة، ترجمت إلى اثنتي عشرة لغة، وحصدت العديد من الجوائز، منها كتاب «الزواج المقدس» من إصداراتنا باللغة العربية، إلى جانب مئات المقالات في المجلات المسيحيّة. وهو ضيف دائم في برنامجين إذاعيين بالولايات المتحدة. إنه حاصل على درجة الماجستير، والدكتوراه الفخرية. يعيش جاري مع زوجته وأولاده في ولاية واشنطن.

0600100011

مطبوعات إيجلز